

أسرار الباطنية والفرق الخفية

حركة الحشائش

نابج وعفاند أظرفرة في العالم الإسلامي

محمد بن عبد الله



دار الفيلسوف

أسرار الباطنية والفرق الخفية

حركة الحشائش

تاريخ وعقائد أخطر فرق سرية في العالم الإسلامي

محمد عامر الحشيش

مكتبة ابن سينا

للنشر والتوزيع والتصدير
٧٦ شارع محمد فريد - جامع الفتح - النزهة
مصر الجديدة القاهرة ت ٢٤٧٩٨٦٣ / ٤٨٣ - ٢٤٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مكتبة ابن سينا

نافذتك على الفكر العربي
والعالمى بما تقدمه لك من روائع
الكتب العلمية والفنية والتراثية
التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة.

يديرها ويشرف عليها
مهندس / مصطفى عاشور



تعتبر بلا شك حركة الحشاشين أخطر حركة سرية شهدها العالم الإسلامي ؛ نظراً لما كان لها من تأثير واسع النطاق في المجتمع الإسلامي إبان فترة بالغة التعقيد .. فترة كان يسيطر عليها الصراع بين مختلف الفرق العقائدية والسياسية ، بل بين مختلف دول العالم الكبرى آنذاك .

وأول شيء يتحتم علينا أن نؤكد عليه منذ البداية هو بيان الصواب من تسمية هذا الكتاب وهذه الحركة . فقد يطرأ على ذهن القارئ للوهلة الأولى عندما تقع عيناه على عنوان هذا الكتاب أننا نقصد به طائفة من المدمنين الأوباش الذين يضعفون أمام تأثير المخدرات .

ومن أسف فإن هذا المعنى هو الذي يؤكد عليه معظم الدارسين . والحقيقة أن هذا المعنى خطأ تماماً ؛ فقد ثبت لنا بالدليل القاطع ، كما سيرى القارئ في تضاعيف هذا الكتاب ، أن هذه الحركة بريئة تماماً من تناول الحشيش المخدر . والسبب الواقعي لتسميتها بهذا الاسم ، كما حققنا ، يرجع إلى مواقف صمودية كانت تقفها الحركة في مواجهة ضروب الحصار التي كانت تفرضها عليها الجيوش المضادة لمدد طويلة ؛ فكان يصمد رجال الحركة في قلاعهم حتى بعد نفاد المؤن والأطعمة ، معتمدين في غذائهم فقط على أكل الحشائش (= العشب أو الكلأ) . ومن هنا جاءت تسميتهم بالحشاشين .

إذن فليس هذا الكتاب إلحاحاً على « القصة السوداء » التي نالت من اسم هذه الحركة ، ومن ذكرى رجالها طويلاً ؛ وإنما هو مجرد محاولة موضوعية محايدة تهدف إلى غاية علمية بحثية بعيدة عن أى غرض دعائى أو تشهيرى ، محاولة منزهة تماماً عن أية نزعة مذهبية أو أيديولوجية . وعمل المؤلف في الكتاب ليس كعمل الداعية ولا كعمل المهاجم ، وإنما عمله يقف عند حد

البحث والمقارنة والوصف والتحليل والموازنة ، ولا يشبه بأي حال من الأحوال عمل القاضي أو المذهب الذي مهمته الأساسية إصدار الأحكام القيمية سواء بالخير أو الشر ؛ فالحكم القيمي أمر يخرج عن دائرة اهتمام المؤلف في هذا الكتاب . وإذا ما وجد القارئ ثمة آراء نقدية للمؤلف ولاسيما في الخاتمة ، فإنها نتيجة النقد العلمي الموضوعي والبحث الحر ، لا نتيجة التفكير الطائفي أو الانحياز المذهبي .

ولذا فلا أظن أن أحداً من أفراد هذه الحركة أو المتعاطفين معها سيتخذ منى موقفاً عدائياً لمجرد أني أحاول المساهمة في كشف الحقيقة عن وضع هذه الحركة في التاريخ ، أو لأني أسلط الضوء على أنساق العقائد التي تعتنقها .

كما أني لا أحسب أن أحداً من أهل التيارات المعارضة لهذه الحركة ، سيرفض الكتابة عنها على أساس أنها حركة سرية معارضة ينبغي لها أن تظل في طي الكتمان . فليس من شك أن أدنى وعي بالواقع المعاصر يجعل المرء يجزم بحق القارئ المسلم — الذي شب عن الطوق — في أن يتعرف على كل ما يدور حوله من مذاهب وحركات فكرية . ومن غير المعقول ولا المنطقي أن يظل هذا القارئ محروماً من التعرف على التيارات المعارضة في تاريخه وتراثه بحجة أنها تيارات مخالفة للتيار الرسمي السائد . وكل من يدعى وجوب عزل القارئ المسلم عما يدور حوله أو عما حدث في تاريخه ، لا شك أنه يحكم على هذا القارئ بالقصور وعدم التضج الحاجة في نفس يعقوب . وهذا ما نخالفه فيه تماماً ؛ لأن وعي القارئ المسلم نضج الآن بشكل يسمح له بالقدرة على الحكم والتمييز بين الصواب والخطأ والحق والباطل ، إلى حد كبير .

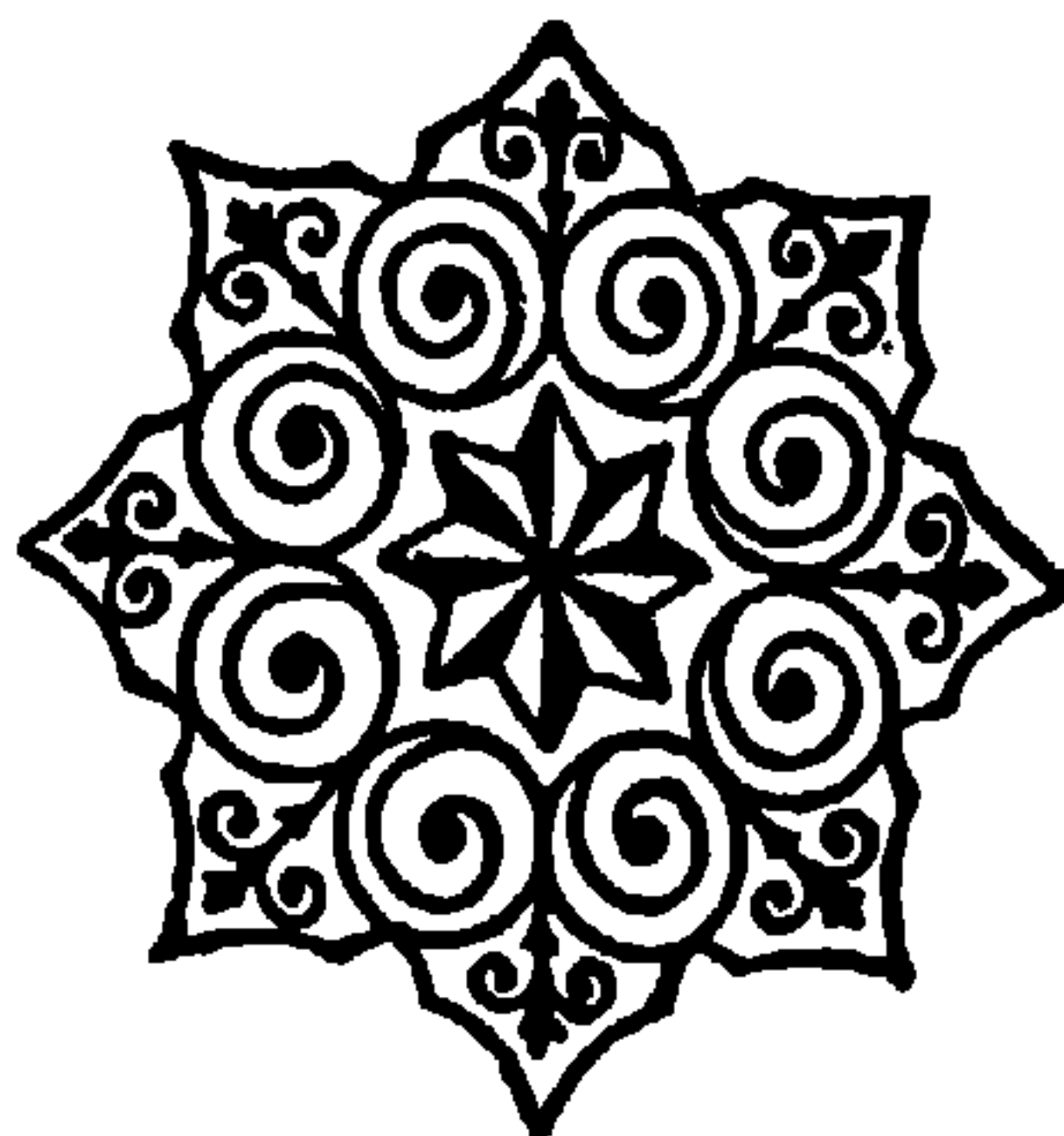
وأخيراً ، وليس آخراً ، فإن طبيعة العمل السري الذي كانت تنتهجه حركة الحشاشين ، جعل فكرها وعقائدها في طي الكتمان والخفاء ؛ مما أتاح لخصومها فرصة التشكيك فيها ونسج كثير من الأساطير والخرافات حول تاريخها وعقائدها ، لا سيما إذا علمنا أن هؤلاء الخصوم قد أبادوا معظم النصوص التي كتبها زعماء الحركة . وللأسف فإن معظم الباحثين المحدثين قد اعتمدوا في

كتاباتهم عن هذه الحركة على أقوال هؤلاء الخصوم ؛ مما اوقعهم في كثير من المزالق والعثرات التي حالت دون وصولهم إلى الحقيقة .

وقد حاولنا في دراستنا هذه تجنب هذا الخطأ المنهجي ؛ فلم نقف فقط عند ما كتبه الخصوم ، وإنما رجعنا إلى المصادر الأصلية والنصوص الحقيقية التي كتبها زعماء الحركة ومفكروها ، الأمر الذي ساعدنا أكبر مساعدة على تبديد كثير من الأوهام. والأساطير التي ارتبطت بهذه الحركة تاريخياً وعقائدياً .

محمد عثمان الحُشْت

القاهرة في : ٢٦ ذى القعدة ١٤٠٨ هـ
١٠ يوليو ١٩٨٨ م



الأحداث الخارجية المواكبة لنشأة الحركة وتطورها وضمحلها

- طابع العصر . ● السلاجقة .
- الفاتح طغرل .
- ألب أرسلان : البطل قلب الأسد .
- السلطان ملكشاه .
- نظام الملك : الوزير اللامع والخصم
اللدود لحسن الصباح .
- اضمحلال مجد السلاجقة .
- السلاجقة في الشام .
- سلبية الخليفة العباسي تجاه الحروب
الصليبية .
- مقدم صلاح الدين وانتصاراته .
- الخليفة الناصر وشاهات خوارزم .
- ظهور التار في أقصى الشرق .
- العاصفة المميتة .
- هولاءكو يحطم قلاع الحشاشين .
- سقوط بغداد .
- تحطيم الجيش المصري لأسطورة التار .

الأحداث الخارجية المواكبة لنشأة الحركة وتطورها واضمحلالها

عندما ظهرت حركة الحشاشين في أفق التاريخ الإسلامى من الشرق في القرن الخامس الهجرى (= القرن الحادى عشر الميلادى) لم يكن الخليفة العباسى يقبض إلا على خيال من سلطته السابقة ، وكانت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ممزقة شر ممزق .

ذلك أن بلاد فارس وما وراء النهر وما يليهما إلى الشرق وإلى الجنوب خاضعة للأتراك السلاجقة .

وكان الفاطميون الشيعة في مصر وشمالى أفريقية ، قد توطدت أقدامهم حتى أصبح أمر تنحيتهم بعيداً عن أن يجول في خاطر بغداد .

وفي الأندلس ظهرت مجموعة من الدويلات الصغيرة على أنقاض الخلافة الأموية كان يسمى زعمائها باسم ملوك الطوائف .

وكان شمالى الشام وأعالى العراق في أيدي بعض زعماء العرب المشاغبين الذين نجح فريق منهم في تأسيس دول خاصة .

وكانت الفوضى السياسية والحربية ضاربة أطنابها في كل مكان . وكان الاضطراب السنى الشيعى هو روح العصر السائد في ذلك الوقت .

وخيل إلى الناس أن العالم الإسلامى قد دالت دولته ، لاسيما مع مجيء الصليبيين — بعد ذلك بفترة — من الغرب ، ثم التار من الشرق ..

هذا ، وقبل أن نستعرض معاً تاريخ حركة الحشاشين ، يجدر بنا أن نستعرض حوادث العصر الخارجية التي واكبت ظهور الحركة وتطورها ثم اضمحلها ؛ حتى نتبين في أى إطار تاريخي بالضبط كانت تتحرك مختلف دول المنطقة ؛ الأمر الذى يسهل علينا كثيراً فيما بعد فهم العديد من السياسات التى كانت تلجأ إليها الحركة .

السلاجقة :

في وسط الاضطراب الذى كان يموج به العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى (= العاشر الميلادى) ظهر زعيم يسمى سلجوق ، فدخل إلى معمعة الصراع حوالى سنة ٩٥٦ م على رأس قبيلة من الأتراك ، وقد جاءوا من برارى القرغيز فى التركستان . وكانوا قومياً بدواً أقاموا فى منطقة بخارى التى اعتنقوا فيها الإسلام على المذهب السنى وتحمسوا له . ثم أخذوا يقتحفون سبيلهم ببطء وبقدم ثابتة وعلى رأسهم سلجوق ومن بعده أولاده حتى تمكنوا من أخذ بعض ممتلكات الإيلخانات والسامانيين .

الفاتح طغرل :

واجترأ أحد أحفاد سلجوق وهو الزعيم طغرل بك المخنك شديد البأس هو وأخوه داود ، فواصلوا زحفهم حتى أطراف خراسان . وفى سنة ١٠٣٧ م تمكن الأخوان من الاستيلاء على مرو ونيسابور من أيدي الغزنويين . وسرعان ما ضموا إلى ممتلكاتهم كلاً من بلخ وجرجان وطبرستان وخوارزم وكذلك همذان والرى وأصفهان . وتصعد البيت البويهى أمام تفوقهم . ثم شرعوا يمهدون السبيل لتقدمهم فى المستقبل ، فأرسلوا وفداً إلى الخليفة القائم بأمر الله فى بغداد ليبلغه أنهم يعتنقون الإسلام . وكان الخليفة يرجو أن ينقذه هؤلاء المحاربون البواسل من سيطرة بنى بويه ، فأرسل إلى طغرل بك يدعوه لمعونته . ولبنى طغرل دعوته فأقبل فى عام ١٠٥٥ م ، ووقف على رأس جماعة من قبائل التركمان الغلاظ الجفافة يطوقون أبواب بغداد . فبارح البساسيرى - القائد التركى والحاكم العسكرى لبغداد فى عهد آخر البويهيين - العاصمة .

وأُسرع الخليفة القائم إلى استقبال الفاتح السلجوقي واعتباره منقذاً . وقد غاب طغرل عن بغداد سنة ثم عاد إليها ، واستقبل استقبالاً حافلاً ، ولبس الخليفة البردة ، وأمسك بعصا الرسول ، وجلس من وراء ستار ، حتى إذا ما وصل الفاتح رفع الستار ، وجلس طغرل على منصة إلى جوار منصة الخليفة ، وكان يترجم بينهما ترجمان . وقد عين الغازي حاكماً للإمبراطورية ونودي به « ملكاً على الشرق والغرب » ، وكان لقبه الرسمي السلطان .

ومن ذلك الحين دخلت الخلافة العباسية تحت رعاية جديدة ، لم يعد الخليفة معها يملك إلا الزعامة الدينية .

وعندما غاب طغرل في حملة إلى الشمال ، انتهز البساسيري — وكان قد انحاز إلى الفاطميين — الفرصة ، فعاد في سنة ١٠٥٨ م على رأس جيش من الديلم وغيرهم واحتل العاصمة بغداد ، وأكره الخليفة القائم على أن يمضى وثيقة يتنازل فيها عن حقوقه وحقوق كل العباسيين الأخر لمصلحة الخليفة الفاطمي « المستنصر » المنافس له في القاهرة ، الذي أرسلت إليه إذ ذاك شارات الخلافة بما فيها بردة الرسول وغير ذلك من الآثار المقدسة . وأرسلت كذلك عمامة « القائم » وشباك جميل من قصره إلى القاهرة لتكون تذكراً لهذا الانتصار . ولكن لما عاد طغرل إلى بغداد أعاد الخليفة « القائم » ، وأمر بقتل البساسيري لخيانته سنة ١٠٦٠ م ثم سرح الجنود الديلمية ، فسحقت بذلك سلطة البويهيين نهائياً .

وبمجيء السلاجقة وسيطرتهم على الأمور بُعثت في الأداة الحكومية حيوية جديدة وكفاية لم تكن لها قبل مجيئهم ، كما بُعثت بفضلهم في الإسلام قوة جديدة من الإيمان الصادق السليم . فلقد أخذ هذا الشعب الأبي من آسيا الوسطى ينضم بدم جديد إلى الصراع الذي كان يقوم به الإسلام ليحصل على السيادة العالمية . إن قصة هؤلاء البدو الذين اعتنقوا ديانة أولئك الذين تغلبوا عليهم وأصبحوا من أشد أنصارها حماساً — تعتبر حادثة فذة من الحوادث المبعثرة في تاريخ هذا الدين . ولقد تكرر هذا العمل على أيدي التتار الذي

جاءوا في القرن الثالث عشر ، كما تكرر على أيدي أقربائهم الأتراك العثمانيين الذين جاءوا في أوائل القرن الرابع عشر . ولا أدل من ذلك على فاعلية الدين الإسلامي الذي يستطيع في أحلك الساعات السياسية بالنسبة له أن يكتسب انتصاراً من انتصاراته الزاهية .

ألب أرسلان : البطل قلب الأسد :

لما توفي طغرل بك في عام ١٠٦٣ م خلفه ابن أخيه ألب أرسلان سلطاناً على السلاجقة ولم يكن قد جاوز السادسة والعشرين من عمره .

وكان حاكماً قوياً ، عادلاً ، كريماً بوجه عام ، كثير البذل للفقراء لا يتوانى عن مجازاة من يظلم الناس أو يغتصب مالهم من عماله . وكان يقضى جزءاً كبيراً من وقته في دراسة التاريخ ، كما كان مولعاً بالاستماع إلى أخبار السابقين وإلى الأعمال التي تكشف عن أخلاقهم وأنظمة حكمهم وإدارتهم .

وقد أثبت ألب أرسلان رغم هذه الميول العلمية أنه خليق باسمه الذي معناه « البطل قلب الأسد » ؛ فقد فتح الشام ، وبلاد الكرج ، وهراة ، وأرمينية . وبذلك كان أول من اكتسب من المسلمين أرضاً ثابتة في بلاد الروم . وقد كان امبراطور الروم قد حشد جيشاً مؤلفاً من مائة ألف جندي من مختلف الأجناس ليلاقى به جنود ألب أرسلان المضرسين البالغ عددهم ١٥,٠٠٠ مقاتل . فلما التقيا عرض القائد السلجوقي على عدوه صلحاً معقولاً ، رفضه رومانوس بازدراء ، واشتبك معه في معركة منزكرت (ملازكرت أو ملاسجرد) بأرمينية عام ١٠٧١ م ، وحارب ببسالة بين جنده الجبناء ، فهزم ووقع في الأسر ، وجيء به إلى السلطان فسأله ماذا كان يفعل لو ابتسم الحظ لجنده ؟ فأجابه رومانوس بأنه في هذه الحال كان يمزق جسده بالسياط . ولكن ألب أرسلان عامله أحسن معاملة ، وأطلق سراحه بعد أن وعده بأن يفقد نفسه بفدية كبيرة ، وسمح له بالرجوع إلى بلاده ، ومنحه كثيراً من الهدايا القيمة . وبعد عام من ذلك الوقت أغتيل ألب أرسلان .

السلطان ملكشاه :

كان ملكشاه بن ألب أرسلان (١٠٧٢-١٠٩٢ م) أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق . وبينما كان قائده سليمان يتم فتح آسيا الصغرى ، كان هو نفسه يستولى على ما وراء نهر جيحون ويمد فتوحه إلى بخارى وكاشغر . واستطاع بتدبير وزيره العظيم نظام الملك أن يجرى كثيراً من الإصلاحات والتجديدات ، حتى أسبغ على البلاد كثيراً من الرخاء والبهاء كالذى أسبغه البرامكة على بغداد في أيام هارون الرشيد ، وقد كانت كل الطرق في عهده آمنة لدرجة أن القافلة الواحدة المكونة من رجل أو رجلين كانت تستطيع أن تسافر بسلام دون أن تحتاج إلى حراسة خاصة من بلاد ما وراء النهر إلى بلاد الشام .

نظام الملك : الوزير اللامع والخصم اللدود لحسن الصباح :

كان نظام الملك — العدو الأول والخصم اللدود لحسن الصباح — هو اليد المدبرة الهادية خلال حكم ألب أرسلان وملكشاه ؛ فقد ظل نظام الملك ثلاثين عاماً ينظم شؤون البلاد ، ويشرف على أحوالها الإدارية ، والسياسية ، والمالية ، ويشجع الصناعة والتجارة ، ويصلح الجسور والنزل ، ويجعلها آمنة لجميع المسافرين . وكان مثقفاً ، وعالماً كبيراً ، وصديقاً كريماً للمفكرين والشعراء والعلماء ، شاد المباني الفخمة في بغداد ، وأسس فيها مدرسة كبرى ذاع صيتها في الآفاق ، وأمر بإنشاء إيوان القبة العظيم في المسجد الجامع بأصفهان .

ويبدو أنه هو الذى أشار على ملكشاه بأن يستقدم إلى بلاطه عمر الخيام وغيره من الفلكيين لإصلاح التقويم الفارسي . وكانت النتيجة أن وضعوا التقويم المشهور المعروف بالتأريخ الجلالى الذى سمي كذلك نسبة إلى ملكشاه . لأن اسمه الكامل كان « جلال الدين أبا الفتح » . ولقد قال جوستاف لوبون أحد العلماء المستشرقين المحدثين عن هذا التقويم : « إنه إلى حد ما أضبط من تقويمنا » .

وتشير قصة قديمة إلى أن نظام الملك وحسن بن الصباح وعمر الخيام كانوا أصدقاء طفولة ، وقد أقسموا وهم صغار يطلبون العلم أن يقتسموا جميعاً ما عسى أن يوائى أى واحد منهم من حظ طيب . وسنذكر هذه القصة بالتفصيل ونحقق القول فيها عند الكلام على نشأة الحسن الصباح .

وقد كتب نظام الملك وهو فى سن الخامسة والسبعين فلسفته فى الحكم فى كتاب من أكبر الكتب فى النثر الفارسى وهو كتاب « سياسة ناما » أى كتاب فن الحكم . ويوصى فيه بقوة أن يتمسك الملك والشعب بأصول الدين ؛ لأنه يرى أن الحكومة لا يمكن أن تستقر إلا إذا قامت على هذا الأساس . ولم يبخل نظام الملك على مليكه ببعض النصائح الإنسانية يبصره فيها بما على الحاكم من واجبات ، فقال : إن الحاكم يجب ألا يفرط فى الشراب أو اللهو ، وإن عليه أن يتبين كل ما يرتكبه الموظفون من فساد أو ظلم ، ويعاقبهم عليه ، وأن يعقد مجلساً عاماً مرتين فى كل أسبوع يستطيع أن يتقدم فيه أحقر رعاياه بما لديهم من الشكاوى والمظالم .

وكان نظام الملك رحيماً بوجه عام فى حكمه ، ولكنه لم يكن متسامحاً فى أمور الدين ؛ ولذا فإنه يأسف لأن الدولة تستخدم فى أعمالها المسيحيين واليهود والشيعة ، ويندد أشد التنديد بحركة الحشاشين التى كان يتزعّمها الحسن الصباح ، ويقول إنها تهدد وحدة الدولة ، وأن زعماءها من نسل المزدكية الشيوعيين أهل فارس الساسانية .

ومن هنا فقد كان يحارب هذه الحركة حرباً لا هوادة فيها ، انتهت سنة ١٠٩٢م باغتياله على يد أحد أتباع الحركة . وسنشير إلى ظروف عملية الاغتيال هذه وكيفيتها عند الحديث عن تفاصيل الصراع بينه وبين الحسن الصباح .

اضمحلال مجد السلاجقة :

وقد توفى ملكشاه بعد شهر من وفاة وزيره ، وبموته انتهت فترة المجد التى شملت حكم السلاطين السلاجقة الثلاثة الأولين . لقد جمع هؤلاء الثلاثة —

لفترة صغيرة ولكنها زاهرة — معظم البلاد المبعثرة التي كانت تكون يوماً ما الخلافة الإسلامية .

وبعد موت ملكشاه تنازع أبناؤه على وراثة العرش وأخذت الحروب الداخلية يستعر أوارها بينهم ، وتلت ذلك عدة اضطرابات أضعفت السلطة المركزية السلجوقية وأدت إلى تصدع أسرته .

وقد كانت الامبراطورية السلجوقية مؤسسة على النظام القبلي لشعوبها البدوية ، فكان لا يستطيع أن يجمع بين هؤلاء إلا رجل يتمتع بشخصية قوية مسيطرة . وكان نظام الاقطاعيات الحربية الذي أسسه نظام الملك سنة ١٠٨٧ م ، والذي جعل هذه الاقطاعيات وراثية للمرة الأولى ، من العوامل التي أدت إلى تأسيس حكومات شبه مستقلة . وهذه الاقطاعيات المنفصلة وصلت إلى الاستقلال الحقيقي في أنحاء مختلفة من المملكة الواسعة في الوقت الذي كان فيه السلاجقة العظام في فارس لا يتمتعون إلا بنفوذ اسمي حتى سنة ١١٥٧ م .

السلاجقة في الشام :

في أواخر القرن الخامس الهجري وأواخر القرن الحادي عشر الميلادي عندما أخذت جموع الصليبيين المتعددة الهويات تسلك سبيلها إلى بلاد الشام لتفتصبها من أيدي المسلمين كانت البلاد مسرحاً للانقسامات والعجز ، فلقد كانت موزعة بين عدد كبير من زعماء العرب المحليين ، وكان يحلفها من الشمال الأتراك السلاجقة الأقوياء بينما كان الحكم في الجنوب في يد الشيعة الفاطميين بمصر . وكان السكان أبعد ما يكونون عن الوحدة في التكوين أو حتى في اللغة ؛ ففي جنوب لبنان كان يوجد الدروز ، وكان في الجبال الشمالية النصيرية ، ويجاورهم الاسماعيلية — أو الحشاشون فيما بعد — . وكان هؤلاء يكونون ثلاث فرق مختلفة تناقض المذاهب السنية في مميزاتها . أما الجماعات المسيحية فكان من بينها المارون في شمال لبنان الذين كانوا لا يزالون يستعملون اللغة السريانية إلى حد كبير ويكونون أكبر أقلية مسيحية في تلك البلاد

ثم جاء أحد فروع السلاجقة من أواسط آسيا ، وكونوا قسماً من أشهر أقسام تلك الأسرة ، ولكنهم لم يكونوا متحدين تحت زعامة رئيس واحد . فلقد كانت كل بلدة في سوريا مهما يكن شأنها في ذلك الوقت لها حاكمها السلجوقي أو العربي . وقد استقلت طرابلس بعد سنة ١٠٨٩ م تحت حكم بنى عمار الشيعيين . وكان بنو منقذ يحكمون شيزر بعد سنة ١٠٨١ م . وكان البيزنطيون يستولون ثم يفقدون البلاد الواقعة على طول السواحل وعلى الحدود الشمالية .

وقد ظهرت أول حملات السلاجقة في الشام قبل سنة ١٠٧٠ م بقليل . وجعل ألب أرسلان في هذه السنة من الأمير العربي الذي يحكم حلب تابعاً له ، ودخل أُنسز من قواد ألب بيت المقدس ، واستولى على فلسطين من أيدي الفاطميين . ولما كان السلاجقة من أهل السنة المتحمسين فإنهم كانوا يرون من واجهم استئصال شأفة التشيع الفاطمي الإسماعيلي . وبعد خمس سنوات استولى أُنسز على دمشق من الفاطميين أيضاً .

ولكن لم تكد تأتى سنة ١٠٩٨ م حتى عادت بيت المقدس مرة ثانية إلى أيدي الفاطميين الذين قد أعاد أسطوهم القوى سنة ١٠٨٩ الاستيلاء على كل مدن السواحل بما فيها عسقلان وعكا وصور وجبيل في الشمال .

ويعتبر تش بن ألب أرسلان المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة في الشام . وقد استطاع في ربيع سنة ١٠٩٤ م أن يدعم نفوذه في حلب والرها والموصل علاوة على ممتلكاته في خراسان .

ولكنه لما سقط في العام التالي في المعركة انقسمت ممتلكاته الشامية — التي تعب في الحصول عليها — بين ولديه رضوان ودقاق نتيجة للمنافسة بينهما والتحاسد الموجود بين قواده الذين كانوا يجرون وراء مصالحهم الشخصية .

وقد اتخذ رضوان حلب عاصمة له ، وظل يحكم فيها من سنة ١٠٩٥ إلى ١١١٣ م . أما دقاق الذي حكم من ١٠٩٥ إلى ١١٠٤ م فإنه اتخذ دمشق عاصمة له . وقد كانت العداوة والصراع بين الأخوين — التي بدأت سنة

١٠٩٦ م — هي المحور الذي دارت حوله الحوادث في عصرهما .

سلبية الخليفة العباسي تجاه الحروب الصليبية :

إن تسلط السلاجقة على الخلافة الذي بدأ في أيام القائم سنة (٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م) استمر حتى سنة (٥٩٠ هـ = ١١٩٤ م) في عهد الناصر . وخلال الشطر الأكبر من هذه المدة كانت الحروب الصليبية تسلك سبيلها بصعوبة في سوريا وفلسطين ، ولكن لم يكن سلاجقة فارس الأقوياء ولا العباسيون يكثرثون لشيء من هذه الأمور البعيدة عنهم . وكانت الحروب الصليبية في نظر الشطر الأكبر من المجتمع الإسلامي إذا نظرنا من زاوية مركزه الرئيسي — أمراً أو حادثاً غير واضح الدلالة أو الغرض . ولما سقطت أورشليم القدس سنة ١٠٩٩ م وصل وفد من المسلمين إلى بغداد يطلب المعونة ضد المسيحيين الغزاة — ذرف الناس الدمع الغزير وأظهروا العطف الكبير ولكن لم يتحرك أحد للعمل ! وقد أحال الخليفة المستظهر العباسي الوفد إلى السلطان بركيارق الخلف الثاني لملكشاه وابنه الذي بدأ في عصره تدهور السلطنة ، ففاوض الوفد السلطان وانتهت المفاوضة إلى لا شيء .

وفي سنة ١١٠٨ م ظهر وفد آخر من طرابلس التي دكها الصليبيون ، وكان يرأس الوفد زعيم المدينة المحاصرة ، وفشلت البعثة هذه المرة كما فشلت نظيرتها من قبل .

وبعد ذلك بثلاث سنوات عندما أسر الافرنج بعض المراكب المصرية التي كانت تحمل سلعاً تجارية إلى تجار حلب ، ذهب وفد ثالث إلى الخليفة المستظهر ، وألح أعضاء هذا الوفد الحلبي ، وبلغ بهم الأمر إلى أن حطموا المنبر وعطلوا الصلاة في المسجد الذي كان يؤدي السلطان فيه الصلاة ، وأخيراً اكتفى المستظهر بأن أرسل ثلة من الجنود مع الوفد لم تفعل شيئاً بطبيعة الحال .

وهكذا كان الخليفة العباسي وسلطانة السلجوقي يقفان موقفاً سلبياً حين كانت تمثل على مسرح تاريخ العلاقات الإسلامية الصليبية أروع مناظره ومآسيه .

وعندما صب الصليبيون — في عهد الخليفة المقتفى — جام غضبهم على الزعيم الإسلامى زنكى مؤسس دولة الأتابكة فى الموصل والشام ، وشددوا عليه الحصار — بعث يطلب النجدة العاجلة إلى بغداد ، فكان الرد أن أرسلت بضعة آلاف تلبية لإلحاح الشعب .

مقدم صلاح الدين وانتصاراته :

وفى تلك الفترة نفسها كان كل من نور الدين بن زنكى الذى اشتهر بشجاعته وميله إلى الحرب ، وصلاح الدين القائد العظيم ، قد نجحا لا فى مقارعة الصليبيين فحسب ، بل فى إسقاط الدولة الفاطمية ، ولما كان صلاح الدين سنياً مخلصاً فإنه أحل اسم الخليفة العباسى المستضىء فى خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة الفاطمى فى كل من مصر والشام . وهكذا اعترف بالسيادة الاسمية للخلفاء العباسيين فى هذه البلاد مرة أخرى .

واستطاع صلاح الدين أن يوجه الضربة القاضية للصليبيين فى معركة حطين سنة (٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) . وبعد حصار بيت المقدس — التى فقدت حاميتها فى حطين — حصاراً استمر أسبوعاً سلمت فى ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م ، وجلجلت فى المسجد الأقصى أصوات المؤذن بدل صلصلة الأجراس المسيحية ، ثم أسقط الصليب الذهبى الذى كان يعلو قبة الصخرة : أسقطه محطماً رجال صلاح الدين .

وكان الاستيلاء على عاصمة المملكة اللاتينية مؤذناً باستيلاء صلاح الدين على معظم المدن الفرنجية فى الشام وفلسطين . لقد سلم معظم تلك المعاقل على أثر سلسلة من الانتصارات الباهرة ، فلم يقاوم واحد منها ، وما كانت تستطيع ذلك بعد إذ فقدت أحسن حماتها فى يوم حطين ، وكأنما روح الجهاد التى يظهر أن الصليبيين فقدوها قد سرت فى بطل الإسلام العظيم صلاح الدين ، فدفعته يواصل انتصاراته فى الشمال حتى اللاذقية وجبله وصهيون وفى الجنوب حتى الكرك والشوبك . كل هذه المدن وغيرها مثل شقيف أرنون وكوكب

وصفد وغيرها من الأشواك التي كانت تحز في جنب المسلمين ، سقطت قبل خاتمة سنة (٥٨٦ هـ = ١١٨٩ م) .

الخليفة الناصر وشاهات خوارزم :

أتاح الاعتراف الجديد بالخلافة العباسية الذي يرجع الفضل فيه إلى البطل صلاح الدين ، والمشاحنات الداخلية — التي لا حد لها بين الأمراء السلاجقة — الفرصة لتحقيق آمال الخليفة الناصر في أن يرجع إلى الخلافة شيئاً يشبه كيانه القديم . وتعتبر فترة حكم الناصر التي امتدت من سنة (٥٧٦ هـ = ١١٨٠ م) إلى (٦٢٢ هـ = ١٢٢٥ م) أطول فترة حكم في التاريخ العباسي .

وقد بدأ يفرض الناصر إرادته على العاصمة بغداد ، فأمر بإقامة عدة مبان تعهدا بالأموال ، كما رفع مستوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وازدھر في ظل رعايته نظام خالص من الأخوة يعرف بنظام الفتوة ، ويرجع إصل هذه الأخوة إلى أيام علي وكانت تجمع نفراً من أصل طيب معظمهم من سلالة ابن عم الرسول وزوج ابنته . وكان يسمى أعضاء هذا النظام بالفتيان ، وكانت لهم حفلات خاصة وطقوس لإدخال الأعضاء في جماعتهم كما كانوا يلبسون ملابس تميزهم عن غيرهم .

على أن محاولات الناصر هذه لم تكن أكثر من اشتعال فتيل قبل انطفائه أو كصهوة الموت .

وكانت أول غلطة خطيرة له عندما حرض تكش — حاكم خوارزم وأحد أعضاء الأسرة التركية لشاهات خوارزم التي قيض لها أن تلعب الدور الرئيسي في تاريخ آسيا الوسطى أكثر من مائة سنة — أقول عندما حرضه على أن يهجم على سلاجقة العراق العجمي — أي إقليم ميديا — الذين خلفوا سلاجقة فارس العظام في حكم بغداد . ودارت رحى المعركة بين تكش والسلطان السلجوقي طغرل في سنة (٥٩٠ هـ = ١١٩٤ م) وانتهت بهزيمة طغرل . وبذلك انتهى البيت السلجوقي في كل من العراق وكردستان .

وكان الناصر ينتظر من الشاه المنتصر أن يسلم إليه البلاد المفتوحة ، ولكن تكش كان يفكر تفكيراً آخر ويدبر شيئاً ثانياً . ولقد اتبع التقليد السلجوقي بأن سك على العملة اسمه كسلطان ، وكان يطمع في أن يكون له النفوذ الزمنى في بغداد وأن يترك للخليفة السلطة الاسمية فقط .

واستمر النزاع في عهد ابنه علاء الدين محمود الذى خلفه على العرش سنة (٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) ، فبعد أن أخضع الشطر الأكبر من فارس وبخارى وأختها سمرقند واستولى على غزنة ، قرر هذا الشاه الخوارزمى أن يضع حداً نهائياً للخلافة العباسية ، وصمم على أن يقيم مكانها خلافة علوية .

ظهور التار في أقصى الشرق :

ووقع الخليفة الناصر في حيرة ، لم يخرج منه إلا ظهور قوة كبرى كان قد بدأ نجمها يبرز فوق الأفق في الشرق البعيد بقيادة جنكيز خان ، ذلك الزعيم المرعب لجموع التار الوثنية . فقد أدت ظهور هذه القوة إلى انشغال علاء الدين محمود الخوارزمى بمقاومتها والتصدي لها ، مما صرف نظره عن مطامحه بشأن القضاء على الخلافة العباسية .

وأمام هذه الجموع التتارية الرهيبة التى كانت تتراوح بين ٦٠,٠٠٠ و ٧٠,٠٠٠ ، ويزداد عددهم بمن ينضم إليهم من الشعوب التى تخضع لهم على طول الطريق — لم يجد علاء الدين وسيلة إلا الفرار . وكان الملجأ الذى أهرع إليه جزيرة في بحر الجزر .

التار يدمرون كل شيء أمامهم :

كان التار بقيادة جنكيز خان على خيولهم السريعة وبما يحملون من أقواس غريبة يثيرون وينشرون الفزع والخراب أينما حلوا . لقد استؤصلت أمام حركاتهم وزحفهم كل مراكز الثقافة في الشرق الإسلامى ، وتركوا كل مكان عامر صحراء بلقياً وخرائب متراكمة ، يستوى في ذلك القصور الفخمة ودور

الكتب العظيمة ، وكان يدل على مسيرهم مجرى من الدماء ؛ فقد كان تعطشهم للدماء عجباً ومفزعاً ، وعلى سبيل المثال . كان عدة أهل هراة ١٠٠,٠٠٠ فلم يتركوا فيها إلا ٤٠,٠٠٠ . أما مساجد بخارى التى كانت مقر العلم والتقى فقد اتخذ منها هؤلاء المتخلفون أشباه الإنسان — اسطبلات لخيولهم . وأسلم قائدهم جنكيز خان للسيف الكثير من سكان سمرقند وبلخ ، وساق أمامه جموع الأسرى منهم . أما خوارزم فقد دمرت تدميراً تاماً .

وقد روى عن جنكيز خان أنه بعد الاستيلاء على بخارى وصف نفسه فى إحدى خطبه بأنه عذاب الله أرسله إلى الناس عقاباً لهم على خطاياهم ! وعندما زار ابن بطوطة هذه المدن بعد مائة عام من ذلك الوقت وصفها بأن أكثرها لا يزال خرائب ينعق فيها البوم .

وزحف تولوى بن جنكيز خان بجيش يبلغ سبعين ألفاً اخترق به خراسان وخرب كل ما مر به من المدن . وكان هؤلاء الهمج يضعون الأسرى فى مقدمة جيوشهم ويخيرونهم بين قتال مواطنيهم — من أمامهم أو قتلهم من خلفهم . وفتحت مرو خيانة وأحرقت عن آخرها ، ودمرت فى اللهب مكتبتها التى كانت مفخرة الإسلام ، وسمح لأهلها بأن يخرجوا من أبوابها يحملون معهم كنوزهم ، ولكنهم لم يخرجوا على هذا النحو إلا ليقتلوا وينهبوا فرادى . ويؤكد المؤرخون أن هذه المذابح استمرت ثلاثة عشر يوماً هلك فيها ١,٣٠٠,٠٠٠ نسمة .

وقاومت نيسابور الغزاة الهمج ببسالة زينة طويلاً ، فلما استسلمت آخر الأمر قتل كل من فيها من الرجال والنساء والأطفال ، ماعدا أربعمائة من مهرة الصناع أرسلوا إلى منغوليا ، وكومت رؤوس القتلى فى كومة مروعة .

وخربت كذلك مدينة الرى الجميلة ومساجدها البالغ عددها ثلاث آلاف ، وما كان فيها من مصانع الفخار الذائعة الصيت ، وقتل أهلها عن آخرهم كما يقول أحد المؤرخين .

لقد كانت هذه الوحشية جزءاً من علوم الحرب عند المغول ، وكانوا يقصدون بها شل قوى أعدائهم بما يقذفونه من الرعب في قلوبهم ، وإرهاب المغوليين على أمرهم حتى لا يفكروا في الخروج عليهم . ونجحت هذه الخطة إلا مع مصر القاهرة .

أما الخليفة الناصر فإنه قضى السنوات القلائل الباقية من حكمه الطويل في حالة رعب مستمر ، وكذلك كان حال ابنه الظاهر وحفيده المستنصر . وحدث ذات مرة أن التتار قد تقدموا حتى وصلوا إلى سامراء ، فامتلاً أهل بغداد رعباً وأخذوا يتهيأون للدفاع عن أنفسهم . ولكن الخطر زال مؤقتاً ، ولم يكن زواله إلا بمثابة الهجعة المؤقتة قبل هبوب العاصفة المميتة .

العاصفة المميتة :

وقد هبت العاصفة المميتة بالفعل عندما سمع التتار بتحركات الحشاشين ضدهم في إيران ؛ ففي سنة (٦٥٢ هـ = ١٢٥٣ م) بارح هولاكو حفيد جنكيز خان مغولياً على رأس جيش ضخم وإضعافاً أمام عينيه هدفين أساسيين ، هما : تحطيم الحشاشين الذين أبدوا بأساً وشجاعة وصموداً في مواجهتهم ، والقضاء على الخلافة العباسية .

وعندما بدأت موجة الزحف المغولي الثانية اكتسحت أمامها كل الإمارات الصغيرة التي كانت تحاول أن تقوم على أنقاض امبراطورية خوارزم شاه .

هولاكو يحطم قلاع الحشاشين :

وأرسل هولاكو دعوة إلى الخليفة المستعصم لينضم إليه في حملة ضد حركة الحشاشين ، فلم تلق دعوته جواباً . مما دفع هولاكو إلى تركيز جل جهوده على مهاجمة معاقل وقلاع الحركة ، وبالفعل تمكن في النهاية من تحطيم معظم القلاع بما فيها قلعة الموت الشهيرة . وسنذكر إن شاء الله تعالى تفاصيل المواجهة بين المغول والحركة في فصل لاحق .

سقوط بغداد على يد التار :

وبعد أن حقق هولاكو هدفه الأول المتمثل في القضاء على الحركة الخطرة :
(حركة الحشاشين) ، أرسل في العام التالي وهو في طريق خراسان المتعرج المشهور إنذاراً نهائياً إلى المستعصم يطلب فيه أن يكون الخليفة خاضعاً للخان الأعظم ، وأن تجرد بغداد من الأسلحة ومن جميع وسائل الدفاع ، وأن يدمر أسوار مدينته الخارجية . فرفض المستعصم هذه الطلبات في إباء ، فحاصر المغول بغداد ، وأخذت منجنيقات هولاكو تقذف أحجارها على أسوار العاصمة ، وسرعان ما أحدثت تصدعاً في أحد الأبراج . فظهر على أثر ذلك الوزير ابن العلقمي ومعه الجاثليق النسطوري — وكان هولاكو متزوجاً من زوجة مسيحية — يعرض عليه الصلح ، ولكن هولاكو رفض أن يستقبلهما . ولما رأى الخليفة هلاك المدينة أمر لابد حادث ، لم يجد بداً من تسليم نفسه إلى عدوه على أمل الرحمة التي وعده بها هولاكو ، فخرج من بغداد يوم الأحد (٤ من صفر سنة ٦٥٦ هـ = ١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) ومعه أولاده الثلاثة أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك ، وثلاثة آلاف شخص من السادة والأئمة والقضاة وكبار رجال الدولة وسلم نفسه معهم إلى هولاكو .

وقد قابله هولاكو المخادع الذي ليس له عهد ولا ضمير بترحاب وطلب منه أن يأمر أهل بغداد بالتجرد من سلاحهم والخروج من مدينتهم بقصد عمل تعداد لهم ، فأجابه الخليفة إلى ذلك وأرسل رسولاً من لدنه ينادي على الناس في طرقات بغداد أن يرموا سلاحهم ويخرجوا من الأسوار . ولما فعلوا ذلك أمر هولاكو جنده فانقضوا عليهم وقتلوه .

ثم دخل جيش هولاكو المدينة وأعملوا فيها السلب والنهب والقتل أربعين يوماً كاملة ، حتى فتكوا بـ ٨٠٠,٠٠٠ من أهلها على حد قول بعض المؤرخين . وهلك في هذه المذبحة الشاملة آلاف من العلماء والشعراء والأدباء ، ونهبت أو دمرت في أسبوع واحد المكاتب والكنوز التي أنفقت في

جمعها قرون طوال ، وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران . أما الخليفة وأفراد أسرته ، فقد أرغمهم هولاءكو على أن يكشفوا عن مخايب ثرواتهم ، ثم قتلهم .

الجيش المصرى يحطم أسطورة جيوش التار :

ثم توجه هولاءكو إلى سوريا ، واستولى على حماة وحارم بعد استيلائه على حلب التى أسلم فيها عدداً يقرب من خمسين ألفاً من السكان إلى السيف . وعندما بلغه موت أخيه الخان الأعظم اضطر إلى العودة إلى منغوليا ، وبقي جيشه وراءه يتقدم لفتح باقى بلاد الشام تحت إمرة غيره من القواد ، حتى التقى عند عين جالوت سنة (١٢٦٠ م) بجيش مصرى يقوده الملك قطز وقائده بيبرس ، وتمكن الجيش المصرى من تحطيم الجيش المغولى ، وزفت البشرى إلى كل مكان فى بلاد الإسلام بل وفى أوربا ، وابتهجت نفوس الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، فقد حل الطلسم وذهب الزوع .

بعد ذلك استطاع المماليك أن يعيدوا استرداد كل سوريا ، وعندما عاد هولاءكو وحاول أن يعقد محالفة مع الفرنج ليغزو سوريا فشل فى محاولته .

ويعد هولاءكو أول من حصل على لقب « أيلخان » (= سيد القبيلة) باعتباره المؤسس لدولة المغول فى فارس ، تلك الدولة التى امتدت من آمو داريا (جيحون) إلى حدود الشام ، ومن جبال القوقاز إلى المحيط الهندى . وكان هذا اللقب يحمله أخلافه من بعده حتى السابع منهم المسمى غازان محمود (١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) ، وهو الذى أصبح فى عهده الإسلام بما فيه من ميول شيعية دين الدولة الرسمى .

وفى عهد هؤلاء الأيلخانات — أو أخلاف هولاءكو — هبطت مكانة بغداد حتى أصبحت عاصمة لمقاطعة تعرف باسم العراق العربى . وقد شجع الأيلخان العظيم هولاءكو العنصر المسيحى بين رعاياه . وفى أوقات السلم كان

يميل دائماً إلى أن يتخذ مقره في مراغة الواقعة إلى الشرق من بحيرة أرمية الملحة ، حيث أقيمت هناك عدة مبان من بينها المكتبة المشهورة والمرصد . وفي هذه البلدة مات هولاءكو سنة ١٢٦٥م ، ودفن معه — جرياً على العادة المغولية — عدة من الفتيات الجميلات . أما هولاءكو ومن خلفه ، فإنهم كانوا — كما كان السلاجقة من قبلهم — يسرعون إلى تقدير الإدارة الفارسية ويستفيدون منها ، وكثيراً ما كانوا يحيطون أنفسهم بجماعة من العلماء المثقفين أمثال الجويني ورشيد الدين وهما من أشهر مؤرخي العصر . والحق أن الخمسة والسبعين سنة التي حكم فيها الأيلخانات فارس كانت سنوات مزدهرة بالتقدم الأدبي .

لقد بدا الإسلام في الشطر الأول من القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) وكأنه سيزول إلى الأبد ، فلقد انحصر من ناحية الشرق بهؤلاء المغول الهمج رماة النبل والخيالة ، ومن الغرب بالفرسان المدرعين من جنود الصليبيين .

وما أعظم الفرق بين هذا الموقف وموقف الإسلام في الشطر الأخير من نفس هذا القرن : إن آخر جندي صليبي كان قد قذف به إلى البحر ، أما سابع الأيلخانات — الذين عشق كثير منهم المسيحية واحتضنوها — فقد اعتنق الإسلام واتخذ دينا للدولة .

وهكذا انتصر دين الإسلام في الوقت الذي انهزم فيه جنوده . وفي مدة تقل عن نصف قرن من محاولة هولاءكو تدمير الحضارة الإسلامية — نرى واحداً من أبناء أحفاده ، وهو غازان ، من أشد الناس إخلاصاً للإسلام ، فركز كل جهده وتفكيره في محاولة لإحياء تلك الحضارة الإسلامية .



الأصول التاريخية لحركة الحشاشين

- نشوء الفاطميين .
- عبيد الله الحاكم القوى .
- فتح مصر .
- عصر الأساطير والتناقضات .
- أطول حكم في التاريخ الإسلامي .
- الحالة الداخلية لمصر في عهد الفاطميين .
- هل حققت الدعوة الإسماعيلية انتصارات عقائدية مع انتصارات الفاطميين السياسية ؟
- لماذا فشلت الدعوة الإسماعيلية فكراً رغم نجاحها سياسياً ؟

الأصول التاريخية لحركة الحشاشين

ترجع الأصول الأولى لحركة الحشاشين إلى التيار الشيعي في الإسلام — ذلك التيار الذي انقسم إلى فرقتين كبيرتين عند موت الإمام جعفر الصادق الإمام السادس سنة ١٤٨ هـ ، وقد كان الإمام جعفر قد عهد بالإمامة إلى ابنه الأكبر إسماعيل ولكن مات إسماعيل أثناء حياة أبيه جعفر الصادق ، وهنا حدث الخلاف بين الشيعة : هل تنتقل الإمامة إلى محمد بن إسماعيل أم من حق الإمام جعفر الصادق أن ينقلها إلى ابن آخر من أبنائه هو موسى الكاظم ؟ .

سأقت مجموعة بقيادة ميمون القداح الإمامة إلى محمد بن إسماعيل وقالت ليس من حق الإمام جعفر نقل الإمامة إلى ولد آخر من أولاده ، في حين صرف الإمام جعفر الإمامة بالفعل إلى ابنه الآخر موسى الكاظم . فكان ذلك هو عقد ميلاد فرقتي الشيعة الرئيسيتين : الإسماعيلية ، والاثنا عشرية . فالاثني عشرية هي التي أيدت إمامة موسى الكاظم ، أما الإسماعيلية بقيادة ميمون القداح فقد سأقت الإمامة إلى محمد بن إسماعيل^(١) ولما مات ميمون حوالى ١٩٨ هـ ، خلفه ابنه عبد الله في الدعوة إلى أبناء إسماعيل . وكانت الحركة بعد موت إسماعيل قد دخلت في (دور الستر) ، وأخذت تنمو وتتوطد دعائهما الفكرية ، حيث عمل رجالها على تأليف المصنفات التي تنظر لدعوتهم

(١) ينفي معارضو الإسماعيلية تسلسل أى من الإئمة المستورين من الإمام إسماعيل ويقولون : أنه لم يعقب ولداً وأن محمداً لم يكن ابنه وإنما هو (عبد الله) بن ميمون القداح الذى نسبته ميمون إلى إسماعيل وسماه محمداً . وهناك إدعاءات أخرى متعددة غير ذلك . والواقع أن حسم هذه المسألة من الصعوبة بمكان إن لم يكن مستحيلاً لأن دخول الحركة في تلك الفترة الغامضة المعروفة بـ [دور الستر] يجعل كل الاحتمالات ممكنة لاسيما وأن المؤرخين قد اختلفوا اختلافاً واسع النطاق حول هذه المسألة . ولكل منهم أدلتهم وبراهينه .

وتدعو إليها ، وقد ظهرت في هذه الفترة الغامضة التي امتدت من موت إسماعيل حتى ظهور عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية ، مجموعة رسائل إخوان الصفا التي أشرف على تأليفها الإمام أحمد أحد الأئمة المستورين .

وطوال فترة الستر التي تعاقب فيها ثلاثة من الأئمة المستورين ، لم تحقق الدعوة نجاحاً كبيراً إلا بظهور عبيد الله المهدي ، الذي يعتبر ظهوره أقصى ما وصلت إليه الدعوة الإسماعيلية من نجاح لا يقاس به إلا نجاح الدعوة الأولى في تصدع الخلافة الأموية .

ويرجع قسط غير قليل من هذا النجاح إلى الجهود الشخصية التي بذلها كبير الدعاة أبو عبد الله الحسين الشيعي من أهل صنعاء اليمن . وهو الذي أعلن نفسه — في نهاية القرن الثالث الهجري — مبشراً بظهور المهدي ، وتمكن من غرس بذور الثورة بين قبائل البربر في شمالي إفريقية ، وخاصة قبيلة كتامة . وترجع بداية معرفته بأفراد هذه القبيلة إلى موسم الحج في مكة ، وكانت إفريقية في ذلك الوقت تحت حكم الأغالبة .

ثم انتقل أبو عبد الله إلى تَارُزُوت قرب بجاية في المغرب الأوسط في إقليم القبائل الحالي ، واتخذها حصناً ومعسكراً يعد فيه القوة العسكرية اللازمة للقضاء على الدولة الأغلبية في إفريقية وإقامة دولة الفاطمية مكانها .

وعندما سمع سعيد بهذا النجاح الباهر الذي حققه كبير دعائه في تلك المنطقة البعيدة ، عزم على أن يترك المقر الأصلي للإسماعيلية في سلمية ، وأن يسير متكرراً في ثياب تاجر إلى الشمال الغربي من إفريقية .

وعند وصوله أمر زيادة الله الأغلب بالقبض عليه وسجنه في سجن ماسة .
ولكن أبا عبيد الله الشيعي نجى سعيداً ، واستطاع في سنة (٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م)
أن يحطم دولة الأغلبية التي ظلت تحكم زهاء قرن وأن يطرد آخر سلاسلها زيادة
الله من البلاد . وقد كان الأغلبية آخر من يمثل الإسلام السني في شمال
إفريقية . ولقد أعلن سعيد نفسه حاكماً على تلك البلاد واتخذ لقب الإمام عبيد
الله المهدي وقبلة الناس على أساس أنه من سلالة فاطمة عن طريق الحسين ثم
إسماعيل .

نسب الفاطميين :

يشار غالباً إلى الأسرة الحاكمة التي أسسها سعيد باسم العبيدية ، لا سيما
من أولئك الذين لا يؤمنون بصحة نسبه . فمن المعروف أن المؤرخين يختلفون
حول صحة تسلسل الفاطميين من فاطمة ، ويوجد في كتب التاريخ ما لا يقل
عن ثمانى تسلسلات نسب مختلفة يلحقه بها أنصاره ومخوّمه . ومما هو جدير
بالتذكّر أن الخلاف على صحة نسب الفاطميين لم يقيم إلا في سنة (٤٠٢ هـ =
١٠١٢ م) عندما أصدر الخليفة العباسي القادر منشوراً غريباً أمضاه كثير من
علماء أهل السنة وأعلن فيه أن « الحاكم » المناقش المضرى له لم يتسلسل من
فاطمة وإنما تسلسل من ديصان الملحد . ومن بين المؤرخين الذين يتشككون
في صحة نسب الإمام سعيد أو ينكرونها : ابن عذارى ، وابن تغرى بردى ،
وابن خلكان ، والسيوطي . أما الذين يؤيدون صحة نسبه فكثيرون ، منهم :
ابن الأثير ، وابن خلدون ، والمقرئ .

تبعه الله تعالى

عبيد الله كحاكم قوى

ان تيقن حقيقة الله

شأنهم يكن من أمرهم فقال أقام عبيد الله ففعل به نصيبه الأول وهو رفاة مقر الأغلبية
وهي ضياعه من ضلوكه في القبر والنداء وقتاً أثبت أنهم من أقوى الأحكام ، فلم تقو
تحتاله على تفتيحها بالسلطة حتى رقت أكبر دعاته الحسينيين على ما فيها وفيه
حيث أنه لفتحه بمائة بلاد المغروب ، فعلى أهل الخروج من الجبال الضيق الذي يوجد
نفسه فيه ، وقد ساعده على ذلك ما كان يملكه من قبائل بربرية أصبحت

متطلعة إلى الغارات والمغانم وفرض السلطان ، فإلى شرق منازل كتامة — وكانت جذماً ضخماً يضم عدداً كبيراً من القبائل — كانت هناك قبائل صنهاجة المغرب الأوسط ، وكانت أعدادهم أكبر من أعداد كتامة ، فاصطنع عبيد الله المهدي واحداً من أكبر زعمائهم وهو مصالة بن حبوس ، وسلطه على بقية المغرب الأوسط ، وكانت تسكنه قبائل زناتية أكبرها مغراوة وبنو يفرن ، فحمل الصنهاجيون عليها ودفعوها إلى الغرب ، واستعانت القبائل الزناتية في محتها ببني أمية الأندلسيين ، ووصل مصالة بن حبوس تابع الفاطميين بمن معه من الصنهاجيين إلى المغرب الأوسط ، وغلبوا الأدارسة ودخلوا فاس ، وولى مصالة عليها رجلاً من أنصاره وهو موسى بن أبي العافية . وتقدمت أمداد الأمويين الأندلسيين لعون الأدارسة وبني خزر الزناتيين ، واشتعل المغرب كله ناراً نتيجة لتلك التوسعات الفاطمية .

من جهة أخرى ، فإنه في سنة (٣٠٢ هـ = ٩١٤ م) استولت جيوش المهدي على الاسكندرية ، وبعد ذلك بعامين اكتسح كل الدلتا . ثم أرسل من قبيلة كتامة حاكماً جديداً إلى صقلية ، وكون علاقات صداقة مع الثائر ابن حفصون في الأندلس . وقد شعرت جزائر مالطة وسردينية وقروسيقة وجزائر البليار وغيرها من الجزائر بقوة أسطوله الذي ورثه عن الأغلبة . وفي حوالى (٣٠٩ هـ = ٩٢٠ م) اتخذ مقامه في عاصمته الجديدة « المهديّة » التي أسسها على ساحل تونس على بعد ستة عشر ميلاً من الجنوب الشرقى للقيروان وأطلق عليها اسمه .

وخلال تلك الفترة أقامت الدولة الجديدة تنظيماً واسعاً للدعوة الشيعية الإسماعيلية ، فلم تجد دعوتهم صدى إيجابياً ؛ حيث نفر منهم أهل إفريقية نفوراً شديداً بسبب تمسكهم البالغ بالمذهب السني المالكي يتزعمهم في ذلك فقائهم . ومنذ البداية إتضح لعبيد الله المهدي أن إفريقية لن تكون أبداً مهداً وثيراً لدولته الفاطمية الإسماعيلية ، وبدأت في أيامه المعركة الطويلة بين السنة المالكية والشيعية الإسماعيلية على أرض إفريقية ، وهي معركة طويلة وعنيفة ، استمر المغرب يعاني منها طوال الفترة الفاطمية فيه .

خلفاء عبيد الله :

وقد اتبع أخلاف عبيد الله سياسة التوسع التي بدأها هو . فأما ابنه أبو القاسم محمد القائم المتوفى سنة (٣٣٤ هـ = ٩٤٦ م) فإنه أرسل أسطولاً يغزو السواحل الجنوبية لفرنسا ، واستولى على جنوة ، وسار على طول ساحل قلورية يغزو ويحمل معه الأسرى والغنائم ، ولكن هذه الحملات مع ذلك لم تؤد إلى غزو دائم .

وبعد أن تغلب الفاطميون في أواخر خلافة ثالثهم أبي طاهر إسماعيل المنصور الذي حكم من وفاة القائم حتى سنة (٣٤١ هـ = ٩٥٣ م) ، على ثورة الخارجي أبي يزيد مخلد بن كيداد التي كادت تودي بدولتهم ، بعد ذلك اتجهوا بأنظارهم إلى مصر ، وقد شجعهم على ذلك ضعف الدولة الإخشيدية من ناحية ، والمتاعب والأزمات والتوترات التي كانت تواجههم في دول المغرب من ناحية أخرى .

ولكن قبل أن يركزوا جهودهم في السيطرة على مصر ، وفي عهد الخليفة أبي تميم معد المعز ، استطاع الأسطول الفاطمي أن يغزو سواحل الأندلس التي كان خليفته آنثد الناصر العظيم . وبعد ذلك بفترة وجيزة تقدم الجيش الفاطمي ناحية الغرب حتى وصل إلى المحيط الأطلنطي الذي أرسل قائد الجيوش بعض أسماكه الحية في قدور للخليفة .

فتح مصر :

وبعد ذلك ركز الخليفة المعز لدين الله جهوده في محاولة السيطرة على مصر حتى تم له ذلك على يد قائده جوهر الصقلي .

وكان جوهر الصقلي هذا ، ويلقب أيضاً الرومي ، مسيحي النشأة ولد في مقاطعة بيزنطية لعلها صقلية ، وبيع بعد ذلك في القيروان .

وفي الحال بعد أن دخل جوهر العاصمة « الفسطاط » منتصراً في سنة ٣٥٨ هـ ابتداءً بوضع أساس المدينة العظيمة « القاهرة » التي سُميت كذلك

نسبة إلى الكوكب السيار « قاهر الفلك » أى المريح الذى كان إذا كان ذلك فى صعود . وقد أصبحت القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية سنة (٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م) ، وبعد تأسيس القاهرة أسس جوهر الصقل الجامع « الأزهر » نسبة إلى الزهراء أحد ألقاب السيدة فاطمة بنت النبى ﷺ . وبذلك أصبح جوهر الصقل — بعد أبى عبد الله الحسين الشيعى — المؤسس الثانى للإمبراطورية الفاطمية التى صارت الآن تضم كل شمالى إفريقيا .

وعندما رأى الخليفة المعز لدين الله أقدام جيوشه بقيادة جوهر تتوطد فى مصر عزم على نقل مقر خلافته إلى القاهرة . وقبل أن يغادر القيروان استخلف مكانه على المغرب بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى أكبر زعماء صنهاجة المغرب الأوسط .

وقد بادر جوهر منذ دخوله مصر بإرسال أحد كبار قواده واسمع جعفر بن فلاح ، إلى بلاد الشام ، وقد وصل ذلك القائد فى سنة (٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م) إلى دمشق واحتلها اجتلاًلاً مؤقتاً .

أما غربى شبه الجزيرة العربية فقد ورثه الفاطميون عن الأنجاشدة الذين كانوا يتولون أمر حراسة مكة والمدينة .

وفى تلك الأثناء برز أمام الفاطميين عدوهم القرامطة الذين كانوا يسيطرون على إقليم الأحساء وجزيرة البحرين ، وقد كانت علاقاتهم مع الفاطميين فى أول أمرهم علاقات صداقة ، فلما أصبح الفاطميون خلفاء مصر انقلب عليهم القرامطة بسبب التصارع على مناطق النفوذ وتعارض المطامح .

عهد أبى منصور نزار العزيز بالله :

ولم يطل عمر المعز لدين الله فى مصر فقد توفى فى سنة (٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م) ، وكانت فترة حكمه لمصر سنتين وتسعة شهور هجرية ، أثبت فيها أنه من أقدر الخلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر إن لم يكن أقدرهم على الإطلاق .

وتولى الحكم بعده أبوه منصور نزار العزيز الذى وصلت الدولة الفاطمية فى

عهدته إلى أوتجها فكان اسم الخليفة يذكر في خطب الجمعة في جميع المساجد من المحيط الأطلنطي إلى البحر الأحمر واليمن ومكة ودمشق، بل في الموصل فإحدى مرقته ويمكن القول بأن حكمه بالاسم على الأقل كان يمتد فوق هذه المساحة. ووقته وصلت الخلافة المصرية في عهده إلى أوتجها أصبحت المنافس على التطوير الأول تلك الخلافة العباسية في بغداد، وذهب به التفكير إلى حد أنه أنشأ مبنى للضخمة في القاهرة أكلقه ألفى ألف دينار ليأوى فيه مناقسيه العباسيين الذين كان يظنهم في القبط يعلمهم بعد الاستيلاء على بغداد، ولقد أخذوا يلقونه بالملك في نظره. طوع وعزل ثلاثاً إلى أن دلتش بالعبادة ولكنه لم يستطع ضمها. وفي عهده أعيدت العزيزة إلى الأهمام الشاذلي ببناء كثير من المساجد والقصور والشرع والجسور مشتملاً على المشايخ في ظل حكمه قسطاً من التسامح لم يظفروا بمثله من قبله وذلك بتأثير وزيره المشيخي يحيى بن سطور وزوجته أم ولده فقام يحيى الذي كانت له اليد الطولى بغير يقين لمكانين بينه وبين حاكمه في عهده. ورغم ازدهار الخلافة الفاطمية في عصره إلا أن أحد أسباب تدهورها فيما بعده كان هو المسئول في ذلك لأنه كان يأول خليفة فاطمية ابتداءً بتبع العادة العباسية التحف كانت في خطر فقد على سياسة الدولة، تلك العادة الجميلة في استيراد الجنود الملتزمة من أمم التركة واليهود والفرس، كان يحرم ما يخصهم من أولئك الجنود ومما يجربهم إلى المستعربين بعضهم معاً بعضهم معاً مع الجنود من البربر من أولئك الجنود الأسياب التي أدت إلى سقوط الدولة النهائي فتملأ بعد ذلك كان الجنود الملتزمة والذين كان يتركون من بينهم معين العبيد هم الذين غصبوا فيهم أممهم الأمراء السلطانية العامة وأسسوا لهم دولة مستقلة.

عصر الأساطير والتناقضات : الحاكم بأمر الله :

تمت بعد وفاة العزيز سنة (٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م) خلفه ابنه الحاكم بأمر الله وعمره إحدى عشرة سنة وتضمنت فترة حكمه على تناقضات عجيبة : يأمر بالشيء ثم يعاقب عليه، ويعلن مرقية الوزير ثم يقتله، ويسمي المدارس وينصب فيها الفقهاء ثم يهدمها ويقتل فقهاءها.

وتتباين أقوال المقيمين له تبايناً عظيماً ، فمنهم من يتحدث عنه كعبقري ، بل وكإله ! ومنهم من يعتبره مختل العقل مستهتراً سفاكاً للدماء .

وخلاصة الانطباع الذى يستطيع المرء أن يكونه بعد استقراء فترة حكمه والتأمل فى أحداثها تتمثل فى أن الحاكم كان لغز عصره ، وتعد شخصيته مثلاً نموذجياً للخفاء والغموض والتناقض ، ولم تكن مظاهر الغموض والتناقض التى تتاب هذه الشخصية الغريبة فى كثير من المواطن ، لتحجب مظاهر القوة المادية والمعنوية التى تتمتع بها فى أحيان كثيرة . بيد أن الخفاء والغموض يغمر هذه المظاهر جميعاً ، سواء فى فترات قوتها أو ضعفها . وكان هذا الخفاء والغموض المروع يصحب الحاكم فى حياته الخاصة وفى تصرفاته العامة ، فى أقواله وفى أفعاله . وأي خفاء وغموض أشد من ذلك الذى تنفثه حولها ، شخصية ترتفع فى سماء التفكير حتى لترعم السمو فوق البشر وتهيم فى دعوى الألوهية ، ومع ذلك تنحط فى كثير من نزعاتها وتصرفاتها إلى نوع من البشذوذ بل الجنون الغامض ١٩

وقد انتهت فترة حكمه باختفائه فى إحدى الليالى سنة (٤١١ هـ = ١٠٢١ م) ، وتذكر بعض الروايات أنه وجد مقتولاً فوق سفح المقطم ، ويقال : إن رجلاً اغتاله غيرة لله وللإسلام بعد ادعائه للإلوهية وتنكيله بمصر وأهلها . لكن بعض المؤرخين يذكرون أنه اختفى نتيجة لمؤامرة دبرتها أخته ست الملوك التى اتهمها الحاكم فى عرضها ، فдست له رجلين اغتالاه وأخفيا أثره . وأعلن أحد دعائه ويدعى حمزة أنه « احتجب وسيعود لنشر الإيمان بعد الغيبة » ١١

الظاهر لإعزاز دين الله :

بعد رحيل الحاكم بأمر الله تولى الخلافة ابنه الظاهر لإعزاز دين الله سنة (٤١١ هـ) بعهد من أبيه الحاكم ، وكان فى السادسة عشرة من عمره ، وكانت عمته « ست النصر » أخت الحاكم هى القائمة بأمر الدولة لصغر سنه ، واستمرت إلى أن توفيت سنة (٤١٥ هـ) . وقد اضطربت أحوال الديار

المصرية والبلاد الشامية في عصره ، وتغلب حسان بن مفرح الطائي شيخ عربان جبل نابلس على أكثر الشام . ودامت دولة الظاهر قرابة ستة عشر عاماً . وكان محباً للعدل ، فيه لين وسكون مع ميل إلى اللهو ؛ مما أعطى الفرصة لوزرائه أن تكون السلطة الحقيقية بأيديهم . وقد تمكن من إنشاء علاقات ودية مع قسطنطين الثامن ، واتفق معه على أن يذكر اسمه في المساجد الواقعة في ممتلكات الامبراطور وأن يصلح مسجد القسطنطينية في نظير أن يسمح الظاهر بإعادة بناء كنيسة القيامة أو القبر المقدس .

عهد المستنصر :

وبوفاة الظاهر سنة (٤٢٧ هـ = ١٠٣٦ م) اعتلى ابنه المستنصر العرش ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، ويعتبر حكمه البالغ زهاء ستين سنة أطول حكم حكمه خليفة في التاريخ الإسلامي ، وهو الخليفة الفاطمي الذي قابل فيما بعد الحسن الصباح مؤسس حركة الحشاشين عند زيارته لمصر وأخذ عليه العهد والولاء له وكلفه بالدعاية الإسماعيلية في بلاد فارس ، وعندما سأله الحسن : من إمامي بعدك ؟ قال له المستنصر : ابني نزار .. إلى آخر تلك التفاصيل التي سنذكرها في حينها عند الحديث عن نشأة حركة الحشاشين وتطورها .

وفي الشطر الأول من حكم المستنصر كان يقوم بأمره وزير أبيه أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني . ثم تغلبت أمه على الدولة ، وهي أمة سودانية اشترت من يهودي ، فكانت تتمتع هي ومن باعها بأعظم النفوذ ، وكانت تصطنع الوزراء وتوليهم ، ومن استوحشت منه أوعزت بقتله ، فيقتل .

وفي عهده بدأت الممتلكات الفاطمية تتقلص ، وبعد سنة ١٠٤٣ م ابتدأت الممتلكات الفاطمية التي كانت دائماً ضعيفة الارتباط بمصر تنفصل عن الدولة بسرعة ، وكانت فلسطين دائمة الثورات .

ثم ظهرت قوة كبيرة في الشرق ، تلك هي قوة التركمان السلاجقة الذين أخذوا يتطلعون إلى آسيا الغربية وقتئذ . وفي نفس الوقت كانت المقاطعات

الإفريقية التابعة للفاطميين تنفصل وتجتنب عن دفع الجزية . وتعلن استقلالها
 تعترف بطاعتها القلبية للعباسيين . ولما كان ذلك قد حصل في سنة ١٠٧٠
 سنة أما القبائل المغربية المشايخ من بني سحيلان بنو سليم ، التي كانت في الأصل من
 نجد وأصبحت آنذاك في الصعيد ، فقد بقوا على استقلالهم . ثم سألوا أن تخرجهم
 إلى المغرب ، فخرجوا بعدة سنين من مصر إلى المغرب ، ووصلوا إلى بلادهم .
 أما الفاطميين ، فقد كانت خاصة للأغالبة ثم اعترفت بعد القضاء عليهم بنفوذ
 الفاطميين وخضعت لهم ، فأنها في سنة ١٠٧١ م قد أخضعها النعمانيون الذين
 لم يكتفوا بالاستيلاء عليها بل اكتسحوا بعض الأجزاء من إفريقية نفسها .
 وبعد هذا التقلص السريع لنفوذ الفاطميين في مصر ، انما يتلخص
 لقضية الشيعة إلا بلاد العرب وحرمة الموت . وحرمة الحياة . في بلاد
 بقيادة جبريل الصالح تقي الدين . و كان له في ذلك نفوذ كبير .
 ميلد ولم يلبس حتى ذلك الأذن المظلم للإشيعاء . وسأجد من الضمير ما ذلك لهم
 للملاحمة المؤقتة الذي أصابهم في قبليخدا . والقلعة . والخصم .
 الفاتسيون . إلى الذي أنجزه بالخليفة . والقائم على العنان . لمحققة مسعى
 الخلافة المأقودة . الفاطميين . وكان لوفد كبريهم . المستنصر . في
 الواقعة في منطقة نفوذه في بغداد مدة أربعين جمعة متتابعة . ولنا وقفه .
 مع هذه الحادثة لنين . كيش . إسعاف . القائد . طغرل . إلى
 نصيبها . قباء . مع . د . قام . له . ما . تبليغ . د .
 والحال الداخلي . المظلم . في عهد الفاطميين . و تمت .
 انتفى . د . هتفت . د . أنه . تشبه . د . د . د .
 هذا عن الحالة الخارجية للدولة الفاطمية ، أما الحالة الداخلية في مصر
 نفسها ؛ فقد كانت المتاعب . والحلاف . مستمرة بسبب النزاع بين فرق الأتراك
 والمغاربة . والسودانيين . مما أدى إلى مثل سلطة الحكومة .
 ثم كانت سبع سنوات عجاف ، فأرقت الموارد الاقتصادية في البلاد .
 وفي سنة ١٠٧٣ م ارتحل الخليفة المستنصر المتروك القلق يستدعي بذر الجمالي
 الأرميني لبلد الذي كان من الموالين السابقين ، وكان في ذلك الوقت الحاكم

العسكري على أعكاسه ليكون وزيراً وقائداً أعلى . وتولى أمير الجيوش الجديد
الإمرة بما أوتي من قوة حتى أنه حول تلك الفوضى الظاهرة إلى نظام ، ومنح
الدولة الفاطمية أمداً جديداً للحياة . ولكن أصبح الخليفة الفاطمي نفسه
كأنه مجبور عليه بسبب ما كان يفتتح به بدر من قوة وتفوذ وسيطرة ، حتى أنه
لم يستطع أن يفعل شيئاً عندما اضطهد الوزير الداعية حسن الصباح عند
تنبؤه في مصر .

ولكن هذا التجديد والإحياء لم يدم طويلاً ، ولم تفلح جهود بدر
ولا جهود ابنه وخلفه الملك الأفضل في إيقاف تيار التدهور الآخذ في
الازدياد ، وكان الأفضل يمارس سلطة كاملة بعد وفاة أبيه .

ولما مات المستنصر سنة (٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) وضع الملك الأفضل على
العرش أصغر أبناء الخليفة وسماه المستعلي بدلاً من نزار الأكبر الذي كان
له الحق الشرعي في الخلافة . ومن هنا انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمان :
الإسماعيلية المستعلية ، والإسماعيلية النزارية التي تنتمي إليها حركة الموت .

وعند موت المستعلي نادى الأفضل بطفل للخليفة لا يتجاوز الخامسة من
عمره ، ومنحه — كخليفة — ذلك اللقب الضخم « الأمر بأحكام الله »

الذي تمكن فدائي الموت من اغتياله .
ثم تولى الجافظ بعد الحكم من سنة ١١٣٠ م إلى ١١٤٩ م . وكان سلطانه
ليعد قصير الخلافة .

أما ابنه وخلفه الظافر الذي حكم من ١١٤٩ إلى ١١٥٤ م فإنه كان في
ذلك الوقت شاباً مرحاً ، وانتقلت كل السلطة إلى يد الوزير الكردي ابن
السلار الذي كان يلقب بالملك العادل . وتدل المذكرات التي تركها المؤرخ
أسامة الذي عاش فيما بين سنتي ١١٤٤ و ١١٥٤ م في البلاط الفاطمي —
على أن المؤامرات والخصومات والشائعات التي كان قائماً لم يكن له نظير في
أي بلاط آخر .

وليس من شك أن مقتل ابن السلار سنة (٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) على يد

حفيد زوجته نصر بن عباس الذى شجعه الخليفة فيما عبد على أن يقتل أباه .
عباس بن السلار الذى خلفه فى الوزارة ، وكذلك مقتل الظافر المصحوب
بالتعموض على يد ذلك المتآمر الصغير — كل ذلك يعرض أمامنا صفحة سوداء
فى تاريخ مصر السياسى . وفى اليوم التالى لمقتل الخليفة الفاطمى الظافر نادى
العباس بابنه الذى كان لا يتجاوز الرابعة من عمره خليفة وأعطاه لقب الفائز ،
وقد مات هذا الخليفة الطفل وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وتلاه سنة
(٥٥٦ هـ = ١١٦٠ م) ابن عم له عمره تسع سنوات وهو الخليفة العاضد
الرابع عشر من خلفاء هذه الدولة التى حكمت أكثر من قرنين ونصف قرن
من الزمان .

وكان مما يزيد فى تعاسة الشعب المصرى الذى كان يعتمد فى حياته وإقامة
أوده على فيضان النيل — تلك المجاعات والأوبئة المتكررة التى كانت تصيب
البلاد الفترة بعد الأخرى ، وكان نتيجة ذلك ازدياد الضرائب على الشعب
وتعرضه للاغتصاب حتى يشبع جشع الخلفاء وجنودهم .

وقد زاد الأمور تعقيداً مجيء الصليبيين ومجمعات أملىك ملك بيت المقدس
الذى وصل إلى داخل البلاد حتى وقف سنة (٥٦٢ هـ = ١١٦٧ م) بجوار
أبواب القاهرة نفسها .

إن كل تلك الأمور قد وضع لها صلاح الدين حداً نهائياً بعزله لآخر خليفة
فاطمى فى (المحرم سنة ٥٦٧ هـ = سبتمبر ١١٧١ م) ، وأسقط الخطبة على
المنابر للخليفة الفاطمى وأقام الخطبة للخليفة العباسى على منبر الأزهر ثم بقية
منابر مصر .

وبذلك انتهت الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وبمجرد سقوطها زال كل أثر
شيعى من الساحة المصرية على المستوى الفكرى والاجتماعى والدينى .

هل حققت الدعوة الإسماعيلية انتصارات عقائدية فى عهد الفاطميين ؟

كان ذلك فى افريقية ومصر حيث نجحت الحركة فى تشييد دولتها ،

وأخفقت في نشر فلسفتها وتعميم عقيدتها . ولاشك أن هذه مفارقة تلفت النظر وتدعو للتساؤل :

لماذا فشلت الدعوة الإسماعيلية في تدعيم عقيدتها في تلك البلاد رغم نجاحها السياسي الذي لم تستطع أن تحققه من قبل ، لدرجة أن كل أثر فكري من آثارها زال معها عند زوالها السياسي ؟

لماذا كانت العقيدة الإسماعيلية غائبة ، وفي لحظات الحضور كان حضورها حضوراً مغترباً ؟

لقد نجحت الحركة الإسماعيلية في تأسيس دولتها سنة ٢٩٦ هـ بافريقية (= تونس) في مجتمع قبلي صحراوي وشبه صحراوي (سجلماسة — القيروان) سبق للإسلام أن « مسح الطاولة » فيه مسحاً ، مجتمع تبني الإسلام السني كما نشره « السلف » الفاتحون .

إذن كان من الطبيعي أن يقتصر الدعاة الإسماعيليون في نشاطهم الفكري الديني بافريقية والمغرب على « الظاهر » وأن يركزوا على الجانب السياسي التنظيمي باستثمار سخط السكان على الولاة والاعتماد على التحالفات القبلية . وإذا وضع المرء في اعتباره أن السلطة العباسية لم تكن مباشرة على هذه المنطقة ، إذ قامت هناك دولة الأغالبة ، وهي دولة صغيرة ضعيفة — تبين له أن نجاح الدعاة الإسماعيليين كان نجاحاً سياسياً بالدرجة الأولى ، وأن الدولة الإسماعيلية التي ستجسم هذا النجاح لم تختلف في وضعيتها الاجتماعية والسياسية والقانونية عن وضعيتها الدول الأخرى التي شهدت المنطقة من قبل ؛ وبالتالي فإن الأيديولوجية الإسماعيلية بدت غائبة ، وفي لحظات الحضور كان حضورها حضوراً مغترباً .

وهذا لم يحدث فقط في افريقية (= تونس) مهد الدولة الإسماعيلية ، بل انه نفس ما حدث أيضاً في مصر قاعدة حكمها ومركز حضارتها لمدة تزيد على قرنين من الزمان ..

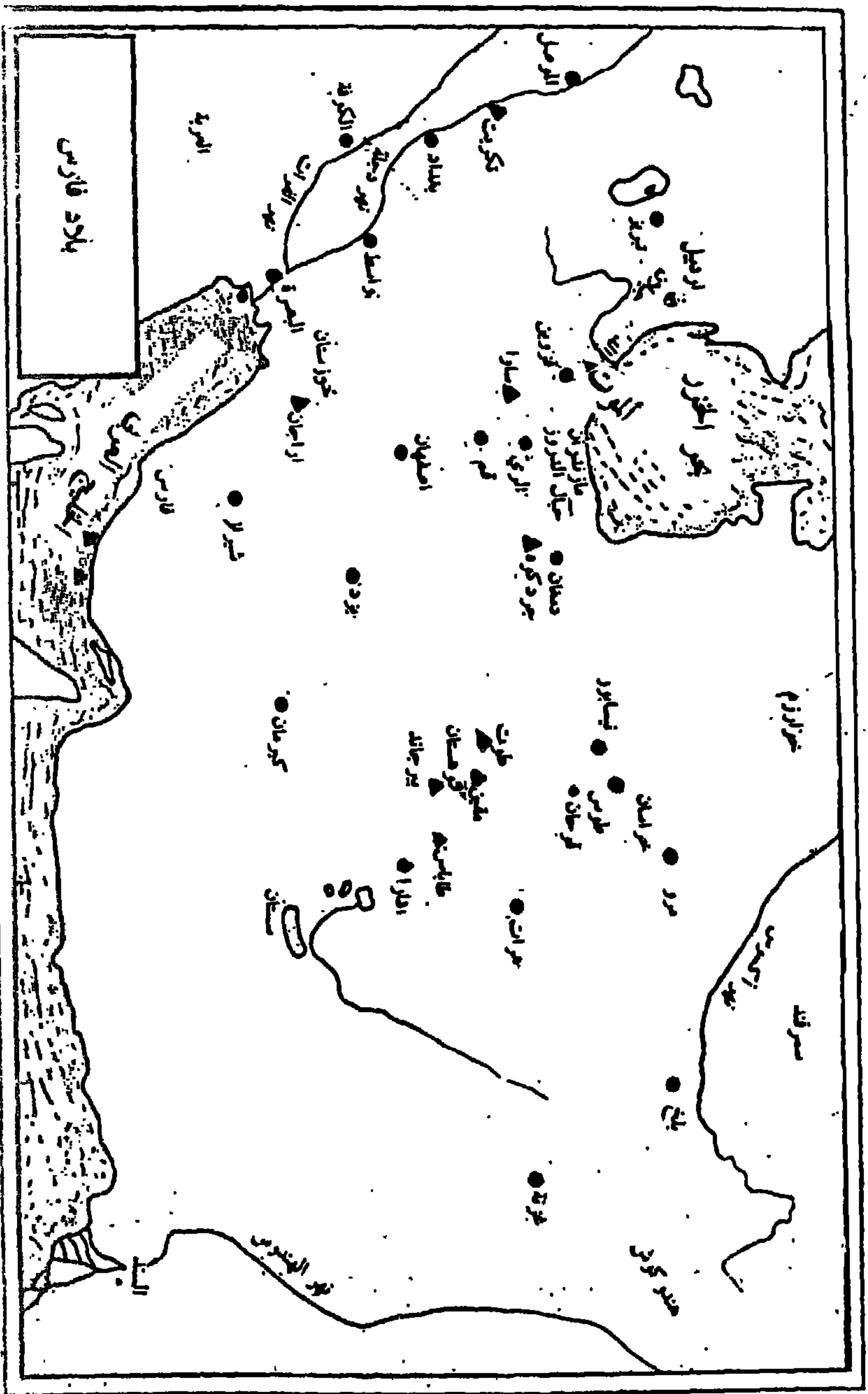
منها لم تستطع أن تحول انتصارها الفيلسوف إلى انحصار بحقائقه في القاهرة ولا في القروان ولا في القاهرة .

ذلك رغم انتشار المدارس والدعوة التي أنشأتها كنيسته في القاهرة في القرنين التاسع والعاشر للهجرة ، والتي انتقلت من هناك إلى المنصورة وبطونس أيضاً ، ورغم انتشار مدارس الحكمة التي أنشأها الخلفاء الفاطميون في مصر وكلاهما في القاهرة قاعدة خلافتهم منذ الخليفة المعز لدين الله ، أي منذ سنة ٣٦٢ هـ ، إلى أن سقطت دولتهم على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ وعودة الخلافة العباسية إليها — رغم انتشار هذه المدارس التي تكيّف تراثها للدولة لوتحوص على جعلها مدرسة كبرى في الفقه والفكر وتكوين أئمة لوجدي — فإن العقيدة الإسماعيلية في أفريقيا لم تنحصر في مصر بل انتشرت في خلقايتنا كبار الملك الحاق بالتدين وكانت مناقشتهم في العقائد والمذاهب على المستوى الفلسفي تكاد لا تعدى جذران مدارس الحكمة و « آثار العالم » المخطوطة التي داخل قصر الخلافة .

وهكذا ظلت الساحة الثقافية في مصر والمغرب العربي تحت النفوذ السني ، وبمجرد سقوط الدولة الفاطمية زال كل أثر شعبي من الساحة المصرية ، الاجتماعية والفكرية . أما في بلدان المغرب العربي فلقد كان الولاء للدولة الفاطمية ، بعد رحيلها إلى مصر سنة ٣٥٩ هـ ، ولا سيما في ليبيا — فبقية ليبيا — كان ولائاً سياسياً فقط ، وهو معلوم أن الخوض في ليبيا في المغرب العربي قد انتهى ، حتى في صورتها الاسمية تلك ، في العقود الأولى من القرن الخامس الهجري — أي قبل سقوط الدولة الفاطمية بما يقرب من قرن ونصف قرن — فبقية ليبيا لم تكن ولا يمكن أن تكون من قبلها .

حركة الحشاشين النشأة والتطور

- الظروف الممهدة لظهور حركة الحشاشين .
- مع الحسن الصباح من الصفر .
- الرفاق الثلاثة : حقيقة أم خرافة ؟
- الحسن الصباح في مصر .
- الاستيلاء على قلعة الموت .
- الوضع الطبوغرافي لقلعة الموت .
- تنفيذ خرافة ماركو بولو .
- انتصارات الحسن الصباح .
- اغتيال نظام الملك .
- انشقاق داخلي في التيار الإسماعيلي .
- الاستيلاء على قلعة كردكوه الشهيرة .
- ثورة الجماهير في أصفهان .
- انتكاسة مفاجئة للحركة .
- وما زالت الاغتيالات مستمرة .
- هجوم واسع النطاق على معظم قلاع الحركة .
- انتقام الحسن من قائد الهجوم .



النشأة والتطور

الظروف التي مهدت لنشوء حركة الحشاشين

رأينا في الفصل السابق كيف نجحت الحركة الإسماعيلية (وهي التي تنسب منها حركة الحشاشين) في تشييد دولتها في المغرب الإسلامي، ولكن مع هذا النجاح السياسي الكبير فإنها أخفقت في نشر فلسفتها وتعميم عقائدها إلى الدرجة أن كل أثر فكري لها زال بزوال نفوذها السياسي. على النقيض من ذلك تماماً بنجد الحال في المشرق الإسلامي، ولا سيما في إيران؛ فلقد أخفقت الحركة الإسماعيلية هناك فعلاً في تسلم السلطة السياسية، بل لقد هادنت السلطة القائمة في كثير من الأحيان قبل مجيء الحسن الصباح، ولكنها نجحت بالمقابل في فرض حضورها الفكري على الساحة الثقافية؛ فهيمنت على عقول دينية وفلسفية مرموقة، وسيطرت على عدة مراكز علمية في الري وأصبهان وخراسان. وهكذا، فإن الحركة نجحت فكرياً حيث فشلت سياسياً، بينما حققت نجاحاً سياسياً حيث توالى فشلها الفكري.

وليس من ريب في أن تلك المحصلة التي تدعو في بادئ الأمر للدهشة، كانت نتيجة للشكل الذي كانت تتفاعل به الحركة مع المعطيات الثقافية والسياسية والاجتماعية والتاريخية السائدة في المناطق التي كانت تسعى للسيطرة عليها.

فكما أن متطلبات الحفاظ على السيطرة السياسية في مصر وأفريقية قد جعلت الدعاة الإسماعيليين يركزون نشاطهم هناك في الميدان السياسي وفي حدود «الظاهر» مهتمين أكثر بضمان ولاء الناس للدولة لا للعقيدة؛ فإن

متطلبات الهيمنة الثقافية والحفاظ عليها قد جعلت الدعاة في إيران ينصرفون عن العمل السياسي المباشر إلى العمل الفكري ويركزون بالتالي على نشر الفلسفة التي تؤسس أيديولوجيتهم السياسية الدينية ، مما كانت نتيجته قيام مدرسة فلسفية حرانية هرمسية ، في خراسان خاصة ، تخدم الحركة الإسماعيلية فكرياً ولكن دون أن تتبنى أيديولوجيتها السياسية .

وتمثل الدوافع التي فرضت على الحركة الإسماعيلية في إيران ، هذا الاتجاه في المعطيات المحلية : التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، التي كانت تتحدد بها الوضعية العامة هناك . فقد كانت إيران مسرحاً للعديد من الحركات الدينية والفلسفية مما جعل الولاء السياسي فيها مشروطاً إلى حد كبير بوجود ولاء فكري سابق . كما كانت إيران تحت رقابة الدولة العباسية التي كانت تخشى على نفسها من أية حركة معارضة تتجذر هناك ولاسيما الحركة الإسماعيلية . من أجل هذا وذاك اضطر الدعاة الإسماعيليون إلى التركيز على العمل الفكري ، بدل المغامرة بتنظيمات سياسية ستعرض للمتابعة والملاحقة لا محالة : فالتجهوا إلى الأوساط العلمية ولم يترددوا في الانخراط في حاشية الأمراء المحليين لئ يتمكنوا من تسخير السلطة ورجالها — السنيين أو الشيعة المعتدلين — في نشر الفلسفة التي تؤسس عقيدتهم ، وهي الفلسفة الدينية الهرمسية كما كانوا يعرضونها ويوظفونها . وهكذا تم الترويج — على نطاق واسع — لفلسفة تضم أمشاجاً من الفيثاغورية الجديدة والأفلاطونية المحدثة في صيغتها المشرقية الحرالية والعلوم السرية الهرمسية بالاضافة إلى عناصر من الفكر الإيراني الزرادشتي القديم .

وقد كان هذا الترويج على يد ثلاثة فلاسفة إسماعيليين كبار عاشوا أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين ، بالإضافة إلى تأثير رسائل إخوان الصفا التي كانت المرجع الفلسفي الأول للحركة الإسماعيلية .

وكان الفيلسوف الأول من هؤلاء الفلاسفة الثلاثة : أبو عبد الله بن أحمد النيسبي تلميذاً لأحد كبار الدعاة الإسماعيليين الأوائل في خراسان هو الأمير الحسين بن علي المروزي الذي كان له نفوذ كبير في المنطقة فاستمال إلى المذهب الإسماعيلي كثيراً من الشخصيات السياسية والعلمية ، مما جعل نصر بن

أحمد رابع أمراء الدولة السامانية (حكم ما بين ٣٠١ — ٣٣١ هـ) يحبسونه إلى أن مات في سجنه . وقد تولى الدعوة من بعده تلميذه النسفي الفيلسوف الذي استطاع أن يستميل الأمير الساماني نصر بن أحمد نفسه الذي اعترف بإمامة الخليفة الفاطمي أبي عبيد الله الشيعي وبعث له دية الحسين المروزي المذكور بضغط من النسفي الذي أصبح له سلطة تسيير الأمور في الدولة ؛ مما أثار على الأمير الساماني غضب قواده ورجال دولته فاضطر إلى التنازل لابنه نوح بن نصر الذي جمع الفقهاء السنيين لمحاكمة النسفي ، فناظروه وتغلبوا عليه ، ثم قُتل هو وكبار رجال الدعوة ومعتنقيها من قواد نصر ؛ فكانت محنة كبيرة نزلت بالحركة الإسماعيلية وأدت إلى وقف نشاطها في بلاد ما وراء النهر منذ ذنب الوقت (حوالى سنة ٣٢١ هـ) حتى مجيء ناصر خسرو الذي أحيا نشاطها ثم تبعه الحسن الصباح . ولكن رغم هذه الانتكاسة التي لحقت بالحركة الإسماعيلية على المستوى السياسي ، إلا أنها تمكنت بالمقابل من فرض حضورها على الصعيد الفكري وضمان استمرار هذا الحضور ، من خلال مؤلفات النسفي ولاسيما كتابه « المحصول » الذي كان أول كتاب عقائدي وضع للتداول والمناقشة في الوسط الإسماعيلي . وإذا كان المرء لا يعرف من آراء النسفي الفلسفية إلا ما ذكره البغدادى من أنه « قال في كتابه المعروف بالمحصول بأن المبدع الأول أبدع النفس ، ثم ان الأول والثاني مدبرا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع » ، فإن ما نشر من كتب معاصره وتلميذه الفيلسوف الإسماعيلي الشهير أبي يعقوب إسحاق بن أحمد السجستاني أو السجزي — والذي قتل هو الآخر بتركستان سنة ٣٣١ هـ بسبب آرائه — يعطينا صورة واضحة عن التقدم الذي حققته الحركة الإسماعيلية على صعيد البناء الفلسفي لعقيدها ، وهو التقدم الذي مكن تلميذه الداعي الكرمانى (المتوفى سنة ٤١١ هـ) والمعاصر لابن سينا ، من صياغة الايديولوجيا الإسماعيلية صياغة فلسفية منظومة .

يبقى أبو حاتم الرازي الفيلسوف الإسماعيلي الثالث (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ) والمعاصر للفيلسوفين الأولين النسفي والسجستاني . وهو من الأوائل الذين وضعوا الأسس النظرية للعقيدة الإسماعيلية ، وكان معظم نشاطه متمركزاً في

الرى وأصهبان ، وقد تمكن من استمالة بعض الشخصيات الكبيرة إلى المذهب الإسماعيلي مثل « مرداويج » القائد الذى تمرد واستولى على أصهبان والرى وأعلن ولاءه للمهدى الخليفة الفاطمى فى إفريقية .

ولأبى حاتم الرازى مؤلفات شهيرة ، منها « أعلام النبوة » الذى عرض فيه لعقائد الإسماعيلية فى الإلهية والرسول والنفس والزمان والمكان ، ورد فيه على سمية أبى بكر بن زكريا الرازى الطبيب (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) فى موضوع النبوة . ويرى بعض المحللين أن إنكار الرازى الطبيب للنبوة هو الموضوع الوحيد الذى كان يفصله عن الفلاسفة الإسماعيليين الذين سبق الإشارة إليهم ، أما فيما عدا هذه المسألة فلقد كان يصدر فى فلسفته الروحانية عن نفس الفلسفة الهرمسية الخرائية التى كانوا يصدرون عنها .

ولقد بلغ من نفوذ الحركة الإسماعيلية فى إيران آنئذ على المستوى الفكرى أنها خرجت من حيز السرية إلى حيز العلانية ؛ ولا أدل على ذلك من الحوار الجدلى الذى دار بين فلاسفتها بشأن بعض المسائل العقائدية ؛ حيث اعترض أبو حاتم الرازى فى كتابه « الإصلاح » على بعض ما جاء فى كتاب النسفى المسمى « المحصول » ؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ فقام السجستانى بتأليف كتاب « النصرة » رداً على آراء أبى حاتم الرازى وتأيداً لآراء النسفى .

وهكذا نرى أن الحركة الإسماعيلية فى إيران قد استهدفت فى أول أمرها السيطرة الفكرية وصولاً إلى السيطرة السياسية ، ولكن رغم النجاح الذى كان يحققه دعائها من آن إلى آخر على المستوى الفكرى ؛ فإن الحركة قد عانت فشلاً ذريعاً فى المجال السياسى ؛ فلقد فشلت محاولات دعائها الرامية إلى ضم المدن الإيرانية إلى الخلافة الفاطمية بواسطة استمالة القواد والأمراء المحليين عقائدياً . وعندما تسلم البويهيون — وهم من الشيعة المعتدلة — زمام السلطة فى بغداد ، فإنهم فضلوا ممارسة السلطة الفعلية باسم الخليفة العباسى بدل التنازل عنها للخليفة الفاطمى . وإذا كان بعض الأمراء البويهيين قد سمحوا أحياناً للدعاة الإسماعيليين بممارسة نشاطهم علناً فى إيران والعراق ، فإن الأمراء الغزوينين والسلجوقيين المعتنقين للإسلام السنى ، قد اضطهدوا الدعاة



صورة الحسن الصباح كما تخيلها أحد الرسامين

الإسماعيليين اضطهاداً واسع النطاق ، ففسجنوا البعض ، ونفوا البعض الآخر ، أما الأكثرية منهم فقد تعرضوا للقتل والتمثيل بجثثهم .

في ضوء هذه الانتكاسات المتوالية ، وبعد أن استفدت الدعوة الإسماعيلية في إيران محتواها ، أصبح من الضروري البحث عن أسلوب عمل جديد . لقد فشلت سياسة التفتح والعمل من أجل الهيمنة الفكرية ، فلم يبق إذن إلا العمل السري المنظم . وهذا ما فعله الحسن الصباح مؤسس « الدعوة الإسماعيلية الجديدة » أو « حركة الحشاشين » .

مع الحسن الصباح من الصفر :

يختلف المؤرخون حول تحديد العام الذي وُلد فيه الحسن الصباح ، فقال بعضهم سنة ٤٣٢ هـ ، بينما يؤكد آخرون إن مولده سنة ٤٣٨ هـ ، ويؤكد فريق ثالث على أن مولده سنة ٤٤٥ هـ .

والأرجح أن عام مولده هو ٤٢٨ هـ الموافق ١٠٣٧ م ، وفق ما تشير أوثق المراجع .

وقد وُلد في مدينة « قم » التي كانت آنذاك — ومازالت — مركزاً أساسياً للشيعنة الاثنى عشرية .

غير أن بعض المظان التاريخية تشير إلى أنه وُلد في بلدة « معصوم » من مقاطعة الري بالقرب من طهران ، وقيل مولده في « مرو » .

ويرجع أصله إلى ملوك اليمن الحميريين ، وكان أبوه يقطن الكوفة بالعراق ، ثم انتقل إلى « قم » ، حيث مولد الحسن على الأرجح . وكما يشير الحسن في شذرة من الشذرات التي ترجم فيها لقصة حياته وتطوره الروحي ، فإن أباه كان من الشيعة الاثنى عشرية . ومن هنا يتبين خطأ من ظن أنه كان إسماعيلياً .

وقد سافرت أسرته إلى مدينة « الري » التي كانت من محاور اهتمام الدعوة الإسماعيليين ، حيث كان لهم نشاط بارز بها .

ومنذ فترة مبكرة من حياة الحسن كان أبوه يهتم بتعليمه عقائد الشيعة الاثنى

عشرية بالإضافة إلى تشجيعه له على الاطلاع على مختلف العلوم في عصره ؛
لاسيما تلك العلوم ذات الصبغة الفلسفية . وظل على هذا الحال وهذه العقيدة
حتى بلغ سن السابعة عشرة . يقول الحسن في شذرة ذكرها المؤرخ الفارسي
علاء الدين الجويني في كتابه (جهان كشای) : « منذ طفولتي ، بل منذ
السابعة من عمري ، كان جل اهتمامي تلقى العلوم والمعارف والتزود بكل
ما أستطيعه منها في سبيل توسيع مداركي ، وكنت كأبائي قد نشأت على
المذهب الاثنى عشرى في التشيع ، ولم أكن أرى في غيره طريقاً للخلاص من
آفات العالم » .

صداقة الحسن في طفولته لعمر الخيام ونظام الملك : حقيقة أم خرافة ؟

ويشير بعض المؤرخين إلى أن الحسن قد كان زميل دراسة للشاعر عمر
الخيام والوزير نظام الملك ، وقد درس ثلاثهم على الموفق لدين الله النيسابوري
في مدينة نيسابور . وبلغت صداقتهم مبلغاً عظيماً من الترابط والود ، حتى
تعاهدوا على أنه إذا حقق أحدهم نجاحاً قبل صديقيه فإن عليه أن يأخذ بيد
الآخرين حتى يحققوا مثلما حقق من النجاح . ومرت السنوات وتمكن نظام الملك
من الوصول إلى رتبة وزير الدولة السلجوقية ، ومن ثم فقد طالبه زميلاه
بالوفاء بما سبق أن تعاهدوا عليه إبان طلبهم للعلم ، وبالفعل وفى نظام الملك ،
فعرض على كل منهما أن يتولى إحدى الإمارات ، ولكن كلاهما رفض لسبب
مختلف عن الآخر ، أما عمر الخيام فكان يريد الحصول على راتب سنوي يمكنه
من حياة الفكر والتأمل والتمتع بعيداً عن مسؤوليات الحكم وهمومه ، وأما
الحسن فكان يتطلع إلى منصب في بلاط الملك ، حتى يستطيع أن يثبت جدارته
للملك فيكون قاب قوسين أو أدنى من الوزارة .

وعند إخضاع هذه القصة للتحليل التاريخي نجد دلائل كثيرة على بطلانها ،
فمن الممتنع أن يكون الحسن صديق دراسة لنظام الملك حيث أن مولد الحسن
على الأرجح سنة ٤٢٨ هـ بينما مولد نظام الملك سنة ٤٠٨ هـ ففرق العشرين
سنة بينهما يجعل من غير المحتمل أن يكون أحدهما زميل دراسة للآخر . فضلاً

عن أن المصادر التاريخية الأكثر حجة تنص على أن الحسن قد تلقى تعليمه بمدينة « الرى » لا مدينة « نيسابور » . وبالنسبة لعمر الخيام فإن تاريخ مولده مجهول مما يجعل من الصعب أن نصدر حكماً إيجابياً أو سلبياً بشأن زمالته للحسن إبان طلب العلم ، غير أنه ليس من الممتنع أن يكون ذلك حدث ؛ لأن وفاة عمر سنة ٥١٥ هـ ، ووفاة الحسن سنة ٥١٨ هـ ؛ مما يدل على أن عمرهما متقارب ، وبالتالي لا يمتنع أن يكون الاثنان زميلاً دراسة ، لاسيما وأن مشربهما العلمى واحد ، فكلاهما درس الرياضيات والفلك وعلوم الدين والفلسفة .

بداية التحول :

مهما يكن من أمر ، فإن الحسن ظل على مذهب الشيعة الاثنى عشرية حتى بلغ سن السابعة عشرة ، وفي تلك الأثناء تعرف على أحد دعاة الإسماعيلية الفاطمية ، ودار بينهما جدلاً متواصلاً محاولاً كل منهما أن يقنع الآخر بصحة مذهبه . وكان هذا التقليد الجدلى منتشراً في أرجاء فارس ، حيث كانت مرتعاً خصباً لمختلف التيارات الدينية والعقائدية ، وكان أنشط تلك التيارات : تيار الدعوة الإسماعيلية .

وكان الحسن حتى هذه اللحظة — كما سبق القول — يؤمن بالله والإسلام كما يفهمه الاثنى عشرية بوجه خاص ، وكان تصوره عن الإسماعيلية أنها من قبيل المذاهب الفلسفية . ولكن لقاءه مع الداعية الإسماعيلية الكبير كان له أبلغ الأثر في تطوره الروحى ، حيث جعله على مفترق طرق محورى في حياته ، ثم وجهه وجهة نظرية وعملية لم تكن تخطر بباله يوماً من الأيام .

يروى الحسن فى شذرة متبقية تفاصيل ذلك المنعطف الجوهرى فى أيدىولوجيته فىقول ما تعريبه :

« حدث أن تعرفت فى شبانى إلى أحد دعاة الإسماعيلية الفاطميين ، فكنت أجادله جدالاً عنيفاً ، وأخذ كل واحد منا يشيد بما هو عليه من عقائد مذهبية وآراء دينية .. ولم يكن لدى أى شك أو رزعة فى إيمانى بالإسلام ، وفى

اعتقادی بوجود إله حى ، باق ، قدير ، سمیع ، بصیر ، وفى وجود نبى وإمام ، وفى وجود مباحات ومحظورات ، وجنة ونار ، وأوامر ونواهى ، وكنت أفترض أن الدين والشريعة هما ما يؤمن به الناس بوجه عام والشیعة بوجه خاص ، ولم یدر بخلدى أن الحقيقة یمكن البحث عنها خارج الإسلام ، وكنت أعتقد أن آراء الإسماعيلية من قبیل الفلسفة وأن حاكم مصر فیلسوف . وكان عميرة زاراب [يقصد الداعى الإسماعيلى] ذا شخصية قوية ، وعندما ناقشنى لأول مرة قال :

إن الإسماعيلية يقولون كذا وكذا .

فقلت له : لا ، يا صديقى لا تردد كلماتهم لأنهم كفره وما يقولونه ضد الدين .

وكانت هناك خصومات ومناقشات بيننا تمكن خلالها من تدمير عقيدتى وإثبات بطلانها . ولم أشأ أن أعترف له بذلك ، ولكن فى أعماق كانت لكلماته أكبر الأثر ..

وكان عميرة يقول لى : عندما تخلو إلى التأمل فى سريرك أثناء الليل سوف تعرف أن ما أقوله لك مقنع .

ثم افترقت عن الداعى قبل أن أعتقد مذهبه ؛ وبعد قليل أصابنى مرض الزمنى الفراش ، فخشيت أن تختطفنى يد المنون قبل أن أتطهر باعتناق المذهب الإسماعيلى ؛ إذ اعتزمت اعتناقه بعد مناقشاتى مع الداعى « .

اعتناق الحسن لعقيدة الشيعة الإسماعيلية :

ولما قام الحسن من مرضه قرر البحث عن داع من دعاة الإسماعيلية ، فتعرف إلى أبى نجم السراج ، وطلب منه أن يقدم له المزيد من المعلومات عن عقائد الإسماعيلية ، وبالفعل حدثه الداعى عما أراد ، ثم أخذ الحسن يتأمل تلك العقائد ويقارنها بسائر العقائد والایدیولوجیات الأخرى ؛ مما تمخض عن اعتناقه الفعلى للمذهب الإسماعيلى .

يقول الحسن : « ولما عوفيت ، وتعرفت إلى أبى نجم السراج ، رغبت إليه

أن يزيدنى حديثاً عن مذهبه ، وأخذت أفكر تفكيراً عميقاً فى تعاليم هذا المذهب .

مع نظام الملك فى بلاط السلاجقة :

وعندما وصل الحسن سن الشباب ونضجت قدراته العلمية ، التحق بالعمل فى بلاط السلاجقة كموظف ومستشار إدارى عند السلطان ملكشاه ، فقد كان الرجل ذا علم بالحساب والهندسة ومطلعاً على مختلف علوم عصره النظرية والعملية . وقد استطاع الحسن بقدراته الفريدة ومثابرته فى العمل أن يلفت نظر ملكشاه . ويبدو أنه كانت تظهر عليه سمات المنافسة للوزير الشهير نظام الملك ؛ مما أوغر صدر الوزير عليه ، لاسيما وأن نظام الملك كان سنياً فى حين أن الحسن الصباح كان شيعياً . ومن هنا بدأ الصدام بين نظام الملك وابن الصباح الذى استمر بعد ذلك أمداً طويلاً وكانت له عواقب بالغة الأثر . وقد قال بعض مؤرخى الشيعة أن الوزير تأمر على الحسن وأخرجه من العمل فى بلاط السلاجقة ، ويروون فى هذا الصدد أن ملكشاه رغب فى عمل سجل متكامل لكل ما يتعلق بأمور الدولة المالية ، وعندما طلب ذلك من وزيره نظام الملك ، قال له الوزير بأن ذلك يتطلب حوالى سنتين ، فاعتبر ملكشاه هذا الوقت أكثر مما ينبغى ، ولذا فقد استدعى ابن الصباح وعرض عليه رغبته ، فأجابه إليها وقال له أن هذا العمل يكفيه أربعين يوماً حتى يتم ، فتعجب الملك من الفرق الشاسع بين المدتين ، وظن أن الحسن يبالغ فى الأمر ، ولكن الحسن أكد له أنه قادر على إنجائه فى هذه المدة . فعهد الملك إليه بالمهمة وكلف موظفى ديوانه أن يقدموا للحسن كل ما يحتاج إليه من معلومات . وبالفعل شرع فى تنفيذ المهمة المنوطة به ؛ مما جعل الدوائر تدور برأس نظام الملك ، خشية أن يستطيع الحسن النجاح فى مهمته ؛ فتظهر كفاءة الحسن ، وتزعزع ثقة ملكشاه فى قدرة الوزير . وبناء عليه فإن الوزير شرع فى التآمر على الحسن بغية أن يجهض محاولته ، فكلف غلاماً من غلماناه أن يتقرب من غلام الحسن ويصادقه حتى يثق فيه الثقة اللازمة ، وعندما ينجح فى ذلك يخبر الوزير . فاستطاع الغلام أن يكسب ثقة غلام الحسن وأصبح ملازماً له معظم الوقت ، حتى علم أن الحسن

على وشك الانتهاء من عمل السجل المالى للدولة ، فأخبر الغلام نظام الملك .
وعندما جاء وقت تقديم السجل للملكشاه ، أمر الوزير غلامه أن يعث
بمحتويات السجل فى غفلة من الحسن وغلامه . وتمكن الغلام من تنفيذ
ما طُلب منه . ولما انتهت المدة المقررة طلب الملك من الحسن أن يأتى إليه بالسجل ،
فأتى إليه به ولم يكن يعلم ما آلت إليه محتوياته . وعندما اطلع الملك عليه
وجد ما لم يكن يخطر بباله ، فقد ضاع نظام السجل واختلطت محتوياته بشكل
يصعب معه تمييز الأمور . فاستاء الملك استياء بالغاً وخاب رجأؤه ، وهنا انتهر
الفرصة الوزير نظام الملك ، فوبخ الحسن توبيخاً شديداً ، وانتقده انتقاداً لاذعاً
أمام ملكشاه ؛ مما جعل الأخير يتخذ منه موقفاً حاداً ؛ ولكنه استطاع الهرب .

فهذه رواية يذكرها بعض مؤرخى الشيعة مفسرين بها أسباب الصدام بين
نظام الملك والحسن بن الصباح ، ويعللون بها دوافع هروب الحسن . ولكن
ابن الأثير يذكر فى « الكامل » ما يفيد أنه لم يكن يوجد مثل هذا الصدام فى
تلك الفترة بين نظام الملك والحسن ، بل كان نظام الملك يكرم الحسن . ويعلل
ابن الأثير هروب الحسن بأنه جاء نتيجة انزعاج رئيس الرى « أبى مسلم » من
نشاط الحسن ، حيث حاول أبو مسلم معاقبته ففر منه ، يقول ابن الأثير :
« كان الحسن بن الصباح رجلاً شهماً كافياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم
والسحر وغير ذلك ، وكان رئيس الرى إنسان يقال له أبو مسلم ، وهو صهر
نظام الملك ، فاتهم الحسن بن الصباح بدخول جماعة من دعاة المصريين عليه ،
فخافه ابن الصباح ، وكان نظام الملك يكرمه ، وقال له يوماً من طريق
الفراسة : عن قريب يضل هذا الرجل ضعفاء العوام ! فلما هرب الحسن من
أبى مسلم طلبه فلم يدركه ... » [الكامل ٨ : ٢٠١] .

ومعظم المؤرخين يؤيدون ابن الأثير فى هذا التعليل ، حيث يرجحون أن
سبب خروج الحسن وفراره من الرى هو نشاطه الذى كان يمارسه فى الدعوة
وإيوائه لمجموعة من الدعاة الفاطميين المصريين .

خروج الحسن إلى مصر :

وتقدم لنا الشذرات المتبقية من قصة حياته التى كتبها بنفسه تفسيراً يفيد أن

سبب خروجه إلى مصر هو تنفيذ التوجيه الذي وجهه إليه الداعي الكبير « عبد الملك بن عطاءش » ، بضرورة الوفود على القاهرة . وكما هو واضح فإن هذا التفسير لا ينفي أن السبب الرئيسي لخروج الحسن من الرى هو تضيق السلطات عليه نظراً لنشاطه الملموس في الدعوة إلى الإسماعيلية ، وعندما رأى الداعي المحنك ذلك نصّح تلميذه — خوفاً عليه من بطش السلطات — بالتوجه إلى مصر حتى يحضر دروس العلوم الباطنية التي كان يلقيها أكبر الدعاة في مصر ، ويقابل الإمام المستنصر معلناً له ولاءه بشكل مباشر .

يقول الحسن في إحدى الشذرات : « ثم قدر لي أن أتعرف بالداعي مؤمن ، وكان موفداً إلى مدينة الرى من قبل عبد الملك بن عطاءش داعي الدعاة في العراقيين (أى في العراق العجمي والعراق العربي) ، فتوسلت إليه أن يقبل مني البيعة للخليفة الفاطمي بمصر ، وأن يأخذ عليّ العهد والميثاق ، فتردد الداعي ، ثم أجابني إلى طلبى . وبذلك دخلت الدعوة الإسماعيلية وصرت واحداً من أتباع الإمام الفاطمي بمصر . ولما وفد عبد الملك بن عطاءش داعي الدعاة إلى الرى مثلت بين يديه ، ولما وقف على آرائى واختبر استعدادى عهد إليّ بيث الدعوة ، وبذلك أصبحت داعياً إسماعيلياً . ثم وجهنى بقوله : (عليك بالوفود على القاهرة لتنعم بخدمة مولانا الإمام المستنصر) . ولما غادر عبد الملك بن عطاءش الرى في طريقه إلى أصفهان ، كنت أنا أيضاً في طريقى إلى القاهرة » .

وبعد أن خرج الحسن من الرى سنة (٤٦٧ هـ = ١٠٧٦ م) توجه إلى أصفهان حيث قضى بها فترة يدعو إلى المذهب الإسماعيلي الفاطمي ، ثم توجه إلى أذربيجان ، ومنها إلى ميافارقين التي طرده منها قاضيها السني لأنه ينفي سلطة علماء أهل السنة والجماعة في تفسير نصوص الإسلام ، ويقول بأن صاحب السلطة الوحيد في التفسير هو الإمام الشيعي . فتوجه الحسن إثر ذلك إلى الموصل ، ثم إلى سنجار ، ثم الرجبة ، فدمشق ، فصيدا ، فصور ، فعكا .. ونظراً لأن الطريق البرى كان حينئذ غير مأمون لما فيه من مناوشات حربية ، فإنه سلك طريق البحر من عكا حتى شاطئ مصر ، ثم توجه إلى القاهرة

فوصلها في سنة (٤٧١ هـ = ١٠٧٨ م) وعلى وجه التحديد كان يوم وصوله ٣٠ أغسطس ، وكان في استقباله أبو داؤود داعي الدعاة وجمع من كبار رجال الدولة ، ثم استقبله بحفاوة الإمام المستنصر في قصره ، وتحدثا في شئون الدعوة وكيفية إقامتها ببلاد العجم ، وقال الحسن للمستنصر : من إمامي بعدك ؟ فقال : ابني نزار . وقد أكرمه المستنصر ، وأعطاه مالا ، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته .

وقبل قدوم الحسن إلى مصر كان يتطلع أشد التطلع لأخذ العلوم الباطنية عن هبة الله الشيرازي^(١) حجة الإمام وداعي الدعاة ، وعندما وصل الحسن مصر كان هبة الله قد مات ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين التلمذة عليه بشكل غير مباشر ، عن طريق الاطلاع على مصنفاته التي خلفها ، والنقاش المتواصل مع تلاميذه ، وقد أظهر الحسن أثناء تلك المناقشات علماً واسعاً بالمذهب ، فلفت الأنظار إليه .

الصدام مع بدر الجمالي :

وكان شيئاً محتملاً جداً أن يحدث صدام بين الحسن الايديولوجي الثوري وبين بدر الجمالي^(٢) القابض على شئون الحكم والمدير لأمر الدولة . وكما سبق

(١) هبة الله بن موسى الشيرازي ، المؤيد في الدين : (... - ٤٧٠ هـ = ... - ١٠٧٨ م) صار إليه أمر لدعوة الفاطمية سنة (٤٥٠ هـ) ولقب بداعي الدعاة وباب الأبواب . ثم نحى وأبعد إلى الشام . وعاد إلى مصر فتوفي بها عن نحو ثمانين عاماً . وله تصانيف منها « المجالس المؤيدية » و « المرشد إلى أدب الإسماعيلية » . الأعلام ٨ : ٧٥ - ٧٦ ، و Brock S.I: 326 .

(٢) بدر بن عبد الله الجمالي ، أبو النجم : (٤٠٥ - ٤٨٧ هـ = ١٠١٤ - ١٠٩٤ م) أمير الجيوش المصرية ، ووالد الملك الأفضل شاهنشاه . أصله من أرمينية اشتراه جمال الدولة بن عمار غلاماً ، فترقى عنده ، ونسب إليه ، وتقدم في الخدمة حتى ولى إمارة دمشق للمستنصر صاحب مصر (سنة ٤٥٥ هـ) ثم استدعاه إلى مصر واستعان به على إطفاء فتنة نشبت ، فوطد له أركان الدولة ، فقلده « وزارة السيف والقلم » ، وأصبح الحاكم في دولة المستنصر والمرجوع إليه . وكان حازماً شديداً على المتمردين ، وافر الحرمة . توفي بالقاهرة . الأعلام ٢ : ٤٥ ، وابن الأثير ١٠ : ٨١ ، والنجوم الزاهرة ٥ : ١٤١ وماقبلها ، وفي شذرات الذهب وفاته سنة ٤٨٨ هـ ، وجعله « العظيمي » في : « توفوا سنة ٤٧٧ هـ خطأ . وانظر رفع الإصر ١ : ١٣٠ - ١٣٧ وفيه : « كان له ولد كبير ، فعصى عليه واستولى على الإسكندرية ، فحاصره حتى أخذه ، فلما قبض عليه قتله بيده » .

أن أشرنا فإن الحسن سأل المستنصر : من إمامي بعدك ؟ فقال : ابني نزار .. فكان الحسن لذلك من مؤيدي نزار .. في حين أن بدر الجمالي كان مناهضاً له ومؤيداً لأخيه الأصغر أحمد المستعلي كخليفة للمستنصر . وكان سبب مناهضة الجمالي لنزار : أنه ركب مرة فرسه أيام المستنصر ، ودخل دهليز القصر من باب الذهب راكباً ، ونزار خارج ، والمجاز مظلم ، فلم يره الجمالي ، فصاح نزار : أنزل يا أرمني كلب عن الفرس ، ما أقل أدبك ! فحقدها عليه الجمالي . ومن هنا توترت العلاقة بينهما ، وخشى الجمالي أن يعزله نزار عندما يتولى الحكم ، فكان يجذ ولاية المستعلي بدلاً من نزار ، في حين كان الحسن ابن الصباح يجذ ولاية نزار ؛ فكان هذا هو السبب المباشر في عدم الوفاق بين الحسن والجمالي ، فضلاً عن أن الأخير كان يضيق ذرعاً بما يظهره المستنصر من احترام وتقدير للحسن . وقد ذكر هذا أكثر من مؤرخ ، منهم التنوخي في كتابه : (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) ، حيث قال : « .. حدث في ذلك الوقت تعيين ولي العهد في مصر ، فاختر المستنصر ابنه نزار ، وكان بدر الجمالي يجذ تعيين المستعلي ، وناصر الحسن بن الصباح التعيين الأول ، فغضب بدر الجمالي ، ولم يرض بما كان يديه المستنصر للحسن من احترام ، فعمل على سجنه ، ثم طرده من مصر » .

وكانت الفترة التي قضاها الحسن في مصر ثلاث سنوات تقريباً ، ولكن بعض المؤرخين يذكر أن مدة بقاءه بمصر حوالي ثمانية عشر شهراً .

طرد الحسن من مصر وعودته إلى إيران :

وقد أمر الجمالي بنفيه من مصر إلى المغرب العربي عن طريق البحر ، وقد تعرضت السفينة التي كان يركبها إلى الخطر أثناء إبحارها ، حتى كادت تغرق أكثر من مرة ، وفي الوقت الذي كان يظهر معظم الركاب أنزعاجاً وخوفاً شديدين لما يحدث للسفينة فإن الحسن أظهر قوة وجلداً وتماسكاً عجيبيين ؛ وقد ساقط الرياح والأمواج السفينة إلى عكا ، ومنها اتجه إلى حلب ، ثم بغداد ، وبطبيعة الحال كان يمارس نشاطه في الدعوة إلى الإسماعيلية الفاطمية أثناء تنقلاته من مدينة إلى أخرى بشكل سري ، وقد حقق بعض النجاح في

هذا الصدد . وواصل رحلته إلى بلاد فارس ، فبلغ أصفهان في سنة (٤٧٣ هـ = ١٠٨١ م) في العاشر من يونيو . وبعد أن مكث بأصفهان بعض الوقت سافر إلى كرمان ويزد ، يقول الحسن في شذرة : « ومن تلك المنطقة — من أصفهان — سافرت إلى كرمان ويزد ، ومكثت فيها أدعو فترة من الزمن » . وبعد ذلك رجع الحسن مرة أخرى إلى أصفهان ، ثم إلى خوزستان في الجنوب .

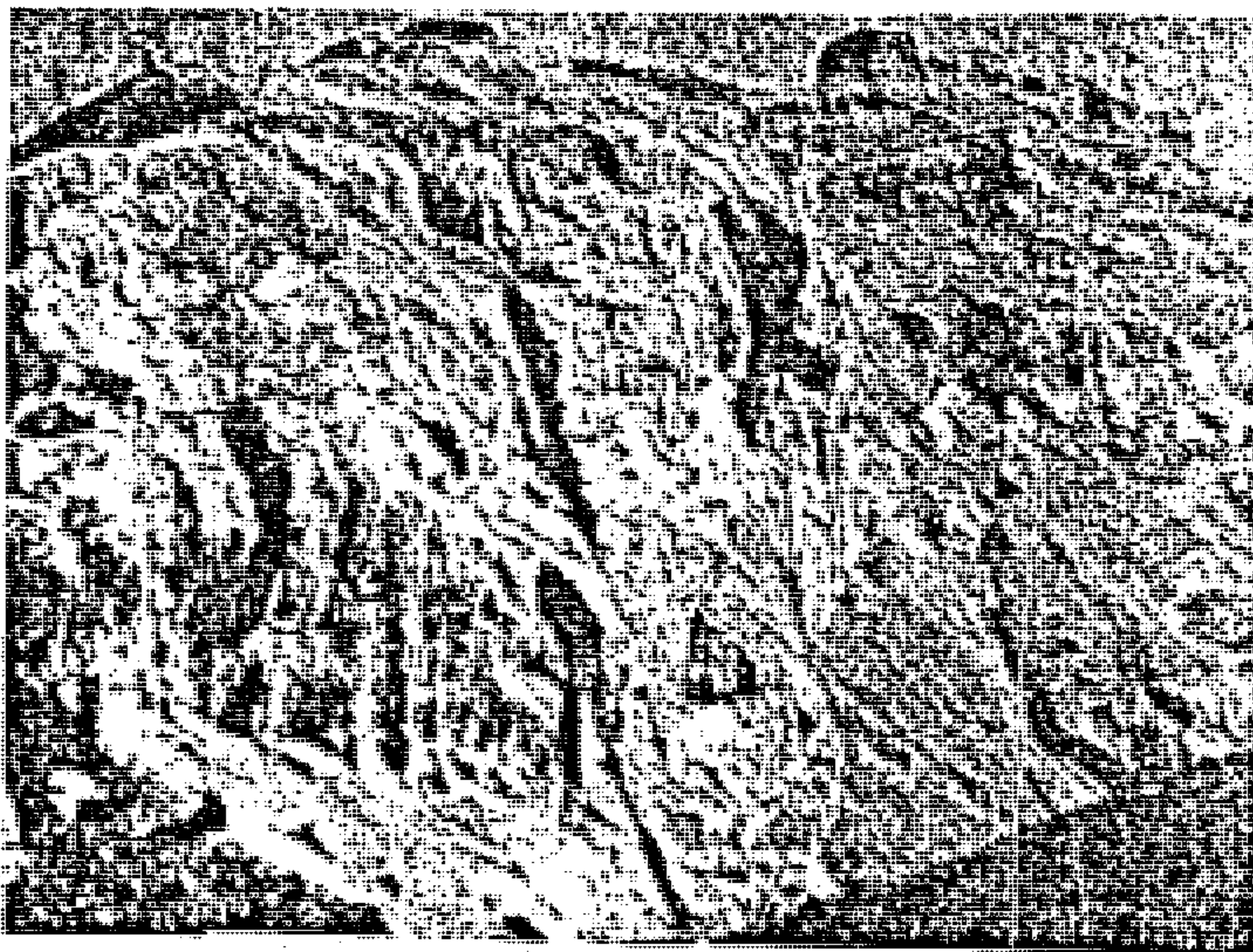
أول عمليات الاغتيال :

وقد ظل الحسن حوالي تسع سنوات متواصلة بعد رحيله من مصر يمارس الدعوة ، ويكتسب أنصاراً جدداً ، وينتقل من مكان إلى مكان ، طبعاً بشكل سرى جداً وأسلوب حذر إلى أبعد الحدود ، وكان هو وأنصاره لديهم الاستعداد لفعل أى شيء في سبيل تأمين أنفسهم ، وكانت أول عمليات الاغتيال التي قاموا بها ، قتل مؤذن من أهل ساوة كان مقيماً بأصفهان ، ذلك أنهم دعوه إلى مذهبهم ، فلم يستجب لهم ، فخشوا أن يكشف أمرهم ، فقتلوه . فلما بلغ خبره إلى نظام الملك الوزير السلجوقي أصدر أوامره بالقبض على من تدل القرائن على أنه هو القاتل ، فحاتم الشبهات حول نجار اسمه « طاهر » ، فحكم عليه بالإعدام ، ومثلوا به وجروه من رجله سائرين به في الأسواق .

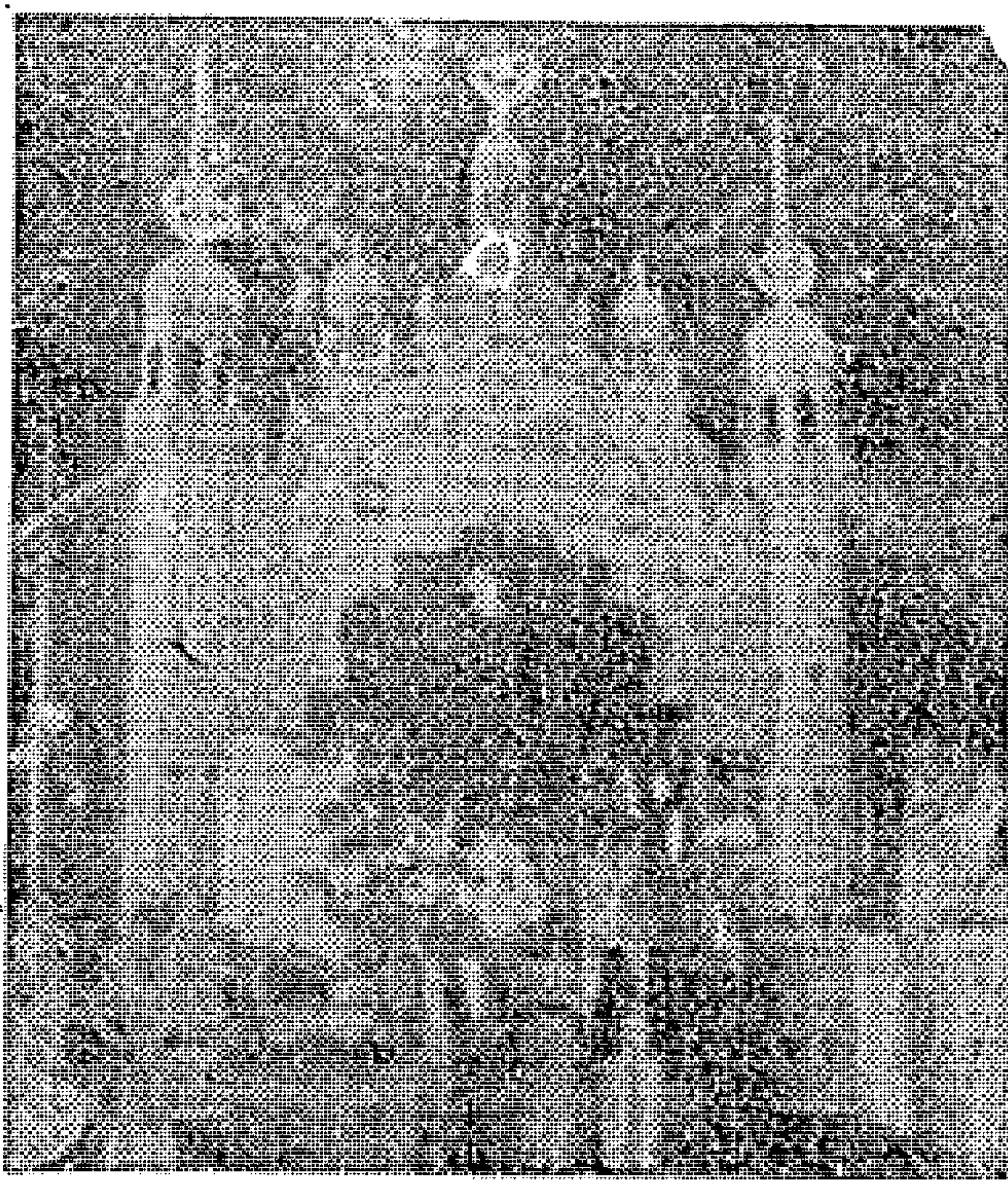
أعين الحسن تتوجه نحو الشمال :

وكان شيئاً منطقياً بعد ذلك أن تتنبه السلطات السلجوقية إلى خطرهم ، وتوقن أنهم ليسوا مجرد جماعة عقائدية فقط ، وإنما لهم توجهات توسيعية ذات خطر على استقرار وأمن السلطة . وبناء عليه صدرت الأوامر بتعقبهم ؛ مما دفع الحسن بن الصباح للتفكير الجدى في ضرورة الحصول على حصن منيع يحميه هو وأتباعه ، ويعطى لهم الفرصة في نشر الدعوة . وهنا اتجهت أعين الحسن نحو الشمال ، حيث هضبة الديلم ، ويرجع اختياره لهذه المنطقة إلى سببين ، هما :

أولاً : أن سكان تلك المنطقة التي يغلب عليها الطابع الجبلى ، كانوا يميلون إلى التشيع ؛ بل أكثرهم شيعة . ولذا فإنهم أكثر استعداداً من غيرهم لاعتناق



صخرة الموت



قلعة الموت

المذهب الإسماعيلي . وفضلاً عن ذلك فهم ذو بأس شديد ، ولديهم نفرة من السلطات السنية التي كانت في صدام مستمر معهم .

ثانياً : طبيعة تلك المنطقة الجغرافية تختلف تماماً عن سائر المناطق الفارسية ، فهي تقع في الناحية الشمالية من الجبال المحيطة بهضبة فارس الرئيسية . وتشتمل تلك المنطقة على هضاب وعرة وطرق عسيرة المسالك ؛ ويوجد بها كثير من القلاع والحصون التي يصعب على الأعداء والمهاجمين اقتحامها .

لهذين السببين عقد الحسن بن الصباح العزم على التوجه نحو الشمال : نحو مازندران ، والديلم ، وجيلان ، وقزوين . فخرج من خوزستان الجنوبية متجهاً إل مازندران عبر الصحارى والجبال متلاشياً المدن وأماكن تجمع السكان خشية أن يقبض عليه ، وبعد ذلك سافر إلى دمغان التي مكث بها ما يقرب من ثلاث سنوات واتخذها كمركز للدعوة ، حيث كان يبعث رجاله المدرين إلى الجبال لمحاولة جذب سكانها . وعندما ضيق نظام الملك الخناق عليه ذهب ناحية الغرب إلى قزوين التي كانت قريبة من هضبة الديلم التي تمثل بدورها — كما قلنا — الهدف الأساسي الذي كان يتطلع إلى السيطرة عليه .

الاستيلاء على قلعة ألموت :

بعد دراسة متأنية للمنطقة وحصونها وقلاعها ووديانها وجبالها ، قرر الحسن ضرورة الحصول على قلعة « ألموت » التي تعتبر أحصن القلاع في المنطقة وأقدرها على تحقيق الحماية لحسن وأتباعه . ويروى المؤرخون أن الذي بناها ملك من ملوك الديلم ، إذ كان مغرمًا بالصيد ، فأرسل ذات يوم عقاباً ، وتبعه فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة ، فوجده موضعاً استراتيجياً حصيناً ، فأمر ببناء قلعة عليه ، سماها « أله موت » ومعناه باللغة الديلمية « تعليم العقاب » ، وتسمى هذه المنطقة وما يجاورها « طالقان » ، وفيها عدة قلاع حصينة أخرى ، غير أن أشهرها « ألموت » ، وكانت تلك النواحي تحت رعاية وضمان « شرفشاه الجعفرى » ، وقد استناب فيها رجلاً علوياً حسن النية ويتميز بسلامة الصدر .

وكان الأسلوب الذى اتبعه الحسن فى الاستيلاء على القلعة هو بث رجاله فى المنطقة المحيطة بالقلعة ، بل فى داخل القلعة ذاتها ، واستطاع هو ورجاله جذب مزيد من الأنصار ، بل استطاعوا التأثير على صاحب القلعة نفسه . يؤكد ذلك ما يرويه الحسن فى إحدى الشذرات قائلاً : « وقد أرسلت من قزوين مرة أخرى الدعاة إلى قلعة ألموت ، واستطاع الدعاة ضم بعض رجال القلعة إلى العقيدة الإسماعيلية ، وقد حاول أولئك تحويل صاحب القلعة العلوى إلى الإسماعيلية ، الذى تظاهر بالانضمام إليهم . ولكنه عمل على إخراج جميع المنضمين إل خارج القلعة ، ثم أغلق أبوابها ، ورفض دخولهم قائلاً أنها ملك السلطان ، ولكنهم استطاعوا التأثير عليه بعد مناقشات طويلة ، فسمح لهم بالدخول » .

وعندما قدم الحسن بن الصباح إلى المنطقة تمكن من استمالة أهلها إليه بقدرته الكبيرة على الإقناع وإظهاره الزهد والتقوى ، حتى أن العلوى صاحب القلعة أعجب به وأحسن الظن فيه ، لدرجة أنه كان يجلس إليه يتبرك به . ولما أحكم الحسن أمره دخل يوماً على العلوى بالقلعة ، فقال له ابن الصباح : أخرج من هذه القلعة . فتبسم العلوى وظنه يمزح ، فأمر ابن الصباح بعض أصحابه بإخراج العلوى ، فأخرجوه إلى دماغان ، بعد أن أعطاه ثمن القلعة وسمح له بأخذ متعلقاته منها .

وقد كان الاستيلاء على هذا الحصن أول عمل تاريخى فى حياة هذا الحزب الجديد .

الوضع الطبوغرافى لقلعة ألموت :

هنا نجد من الضروري أن نوقف القارئ على الوضع الجغرافى والطبوغرافى لقلعة ألموت ؛ لأن معرفة ذلك سيساعدنا بلا شك على التحقق من بطلان أوصحة ما يقوله بعض المؤرخين عن الحداثق الغناء التى تحيط بالعرائش الرشيقة والقصور المنيفة التى يزعمون أن الحسن بن الصباح قد بناها للتأثير على رجاله والتحكم فيهم .

تقع قلعة ألموت على صخرة مرتفعة من صخور سلسلة جبال البرز التي ترتفع ١٠٢٠٠ قدم عن سطح البحر في أقصر وأوعر طريق بين شواطئ بحر قزوين ومرتفعات فارس . ومناخ هذه المنطقة شديد البرودة ويتساقط عليه الجليد أكثر من ستة أشهر في السنة .

تفنيد خرافة ماركو بولو :

بهذا يتضح لنا بشكل حاسم بطلان ما يزعمه بعض المؤرخين الذين وصفوا هذه القلعة كفردوس أرضية في عبارات خلافة ؛ إذ كيف يُعقل أن توجد مثل تلك الفردوس المزعومة في إقليم وعر شديد البرودة أكثر من نصف العام ، لدرجة أن مؤرخين آخرين يذكرون أن السكان كان يعزلون الحيوانات في مناطق جنوبية خوفاً عليها من البرد الشديد الذي لا يمكن أن تتحملة . مما يدل دلالة قاطعة على عدم صحة الوصف الذي ذكره « ماركو بولو » الرحالة الشهير ، والذي تبعه فيه كثير من المؤرخين دون تحقق أو تثبت . فلقد جاء في نص صريح من عصر متأخر منقول عن نص أصلي كتبه « ماركو بولو » وصف فيه — كاذباً — قلعة ألموت وأسلوب الحياة فيها ، وكان ماركو قد مر في هذه الناحية في سنة ١٢٧١ أو ١٢٧٢ م ، يقول في وصفه :

« إن شيخ الجبل — الذين يطلقون عليه في لغتهم (علاء الدين) قد عزل وادى بين جبلين ثم حوله إلى حديقة غناء ، وهذه الحديقة أجمل وأكبر ما يمكن أن تراه العين من حدائق ، وقد زرع فيها كل ألوان الفواكه ، وبنى فيها أبداع ما يمكن تخيله من مقصورات وقصور مرسوم عليها بالذهب رسوماً رائعة ، وتوجد بها أنهار من خمر ولبن وعسل مصفى ، فضلاً عن أنهار الماء ، وقد جعل شيخ الجبل نساء فائنات يقمن بخدمة مَنْ بالحديقة والتسرية عنهم ؛ حيث يتقن العزف الموسيقى ، ويغنين بأصوات رائعة ، ويرقصن رقصات تذهب العقول ؛ فقد كان يريد شيخ الجبل من وراء ذلك أن يقنع أنصاره بأن هذه هي الفردوس الحقيقية ، حيث حاول تصميمها وفقاً للوصف الذي ذكره محمد للفردوس بوصفها حديقة جميلة تجرى فيها أنهار من خمر ولبن وعسل وماء ومكتظة بالخور العين . وبالتأكيد فإن المسلمين في تلك النواحي يظنون أنها

الفردوس الحقيقية . والآن ، فإنه لا يسمح لأى إنسان أن يدخل الحديقة إلا أولئك الذين قصد بهم أن يكونوا من (الحشاشين) . وكان على مدخل الحديقة حصن من القوة بحيث لا يمكن أن يقتحمه إنسان فى الدنيا . ولم يكن هناك سبيل إلى الدخول إلى القصر إلا من طريق هذا الحصن . وكان لدى داعى الدعاة فى بلاطه عدد من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين ممن كان لهم ميل إلى العسكرية ، وقد اعتاد أن يروى لهم روايات عن الجنة مثلما كان يفعل محمد ، ويعتقد هؤلاء الشبان فيه مثلما كان يعتقد المسلمون فى النبى . وكان يدخلهم إلى حديقته على مرات فى كل مرة أربعة أو ستة أو عشرة ، بعد أن يأمر بتجريعهم نوعاً من الشراب يقعون بعده فى نوم عميق ، ثم يرفعون بعد ذلك وينقلون إلى الداخل ، فإذا استيقظوا وجدوا أنفسهم فى الجنة . وعلى ذلك فإنهم كانوا إذا استيقظوا وجدوا أنفسهم فى مكان مملوء بالبهجة والملذات حتى ليخيل إليهم أنهم فى الفردوس حقاً . وكانت النساء والكواعب يدللنهم ويرضين شهوات قلوبهم ، ولذا فإنهم كانوا يتمنون أن لا يتركوا هذا المكان بأى حال من الأحوال . والآن ، فإن هذا الأمير الذى يسمونه « الشيخ » كان قد أعد لنفسه بلاطاً بالغ الروعة والجمال ، وقد استطاع أن يجعل أهل الجبال البسطاء يؤمنون إيماناً قوياً بأنه نبى عظيم ، وإذا أراد أن يكلف أحد أولئك الحشاشين بمهمة ، فإنه يأمر بإعطائه المخدر الذى سبق الحديث عنه ، ثم يحمله إلى القصر ، حتى إذا أفاق فإنه يجد نفسه فى القلعة وليس فى الفردوس ، ثم يحضرونه إلى مقام « شيخ الجبل » فينحني أمامه فى احترام شديد معتقداً أنه فى حضرة رسول حقيقى . ثم يسأله الأمير من أين جاء ، فيرد عليه الشاب مجيباً أنه أتى من الفردوس ، التى هى مثل الفردوس التى وصفها محمد فى القرآن . وعندما يسمع ذلك الحاضرون الذين لم يؤذن لهم بعد فى الدخول ، فإنهم يرغبون رغبة شديدة فى دخولها . فإذا ما أراد شيخ الجبل أن يقتل أى أمير فإنه يقول لأحد الشبان : اذهب واقتل الأمير الفلانى . فإذا ما عدت فإن ملائكتى سينقلونك إلى الفردوس ، وإذا مت فلا تكثر فإني سأرسل ملائكتى ليعودوا بك إلى الفردوس . وقد كانوا يؤمنون بما يقول ، ولذلك فإنهم كانوا ينفذون جميع أوامره مهما كانت مهلكة أو مليئة

بالمخاطر ، حتى يمكنهم الرجوع إلى الفردوس . وبهذا الأسلوب استطاع الشيخ أن يث الفزع في نفوس الأمراء ، وأجبرهم على دفع الجزية له حتى يمكنهم الحياة . في سلام ووثام » . (The Book of Ser Marco Polo, the Venetian, Tr, .

Henery Yule, 2nd ed. Vol. I. P. 146-9, London, 1875).

هكذا يحدثنا ماركو بولو عن قلعة « ألموت » ، فهل يتسق هذا الحديث أدنى اتساق مع الطبيعة الطبوغرافية للقلعة ؟

في الحقيقة إن أبسط تحليل لوصف ماركو بولو في ضوء الطبيعة الطبوغرافية لقلعة ألموت يوقفنا منذ الوهلة الأولى على أن حديثه أدخل في الأساطير منه في الواقع الفعلي ، فهو لا يعدو أن يكون حديث خرافة .

ملكشاه يفاوض الحسن الصباح :

مهما يكن من أمر ، فإن خبر استيلاء الحسن بن الصباح وأتباعه على قلعة « ألموت » عندما وصل إلى مسمع السلطان السلجوقي ملكشاه ووزيره ذائع الصيت نظام الملك ، فإنهما أدركا مدى الخطورة التي سيتعرض لها النظام السلجوقي من جراء ذلك ؛ إذ أن تلك القلعة بلا شك تتمتع بقيمة استراتيجية تؤهل من يستولى عليها لأن يكون ذراعاً قوياً طويلاً في قلب الدولة السلجوقية .

فقرر ملكشاه أولاً أن يجري مفاوضات سلمية مع الحسن حتى يتخلى عن القلعة ، فإن لم يجد هذا الأسلوب ، فإنها الحرب بلا هوادة .

فبعث رسالة إلى الحسن في نفس العام الذي استولى فيه على القلعة سنة (٤٨٣هـ = ١٠٩٠م) نصها :

« أنت يا حسن بن الصباح قد أظهرت ديناً جديداً ، تخدع به الناس ، وتغريهم على الخروج على والي الزمان ، وجمعت نفراً من جُهاال الجبال تكلمهم على مقتضى طبعهم ، فيذهبون ويغتالون الأبرياء ، وتطعن في الخلفاء العباسيين الذين هم خلفاء الإسلام ، وقوام الملك والملة ، وبهم يوثق نظام الدين والدولة ، فهلا خرجت عن هذه الضلالة وتركت هذه الغواية ، وانضويت

تحت راية الإسلام . إن جيوشى متوقفة على مجيئك ، أو مجيء جوابك . وعليك أن ترحم نفسك ونفوس أتباعك ، ولا تلق نفسك ونفوسهم إلى التهلكة ، ولا يغررك منعة قلاعك ، وعليك أن تعلم أنه لو كانت قلعتك ألموت برجاً من بروج السماء لهدمنا أركانها بعون الله سبحانه وتعالى .

فلما قرأ الحسن بن الصباح الرسالة ردّ عليه ردّاً مستفيضاً محاولاً إقناع ملكشاه بموقفه السياسى ، بل وبعقيدته الدينية ، فقال الحسن :

« عندما وصل الصدر الكبير ضياء الدين خاقان إلى زاويتنا ، وبلغ مقالة السلطان إلّى ، وضعتها على الرأس والعين ، ورفعت رأسى زهواً من الفخر والشرف ، لقد فسح لى المجال لإظهار اعتقادى ، وإنى لأرجو من السلطان أن يصغى إلى كلامى ، ولا يشاور فى أمرى الذين يعلم أنهم من أعدائى ، سيما نظام الملك ، وعليه أن يتحقق ما أنا عليه من الصدق الذى ليس عليه مزيد ، وإن رجعت أنا عن ذلك كنت كمن رجع عن الإسلام وعصى الله ورسوله ، وإن خشيت من شئ فهو خشيتى من أن يكون السلطان قد سمع كلام الأعداء ، وكيف لى بمقاومة خصم عنيد يستطيع أن يضع الحق مكان الباطل والباطل مكان الحق ١٩

ولابدّ لى الآن من وصف حالى :

كان أبى رجلاً مسلماً على مذهب الشيعة الاثنى عشرية . ولما بلغت أربع سنين أرسلنى إلى المدرسة لتحصيل العلوم والمعارف ، وحين مضى أربع عشرة سنة من عمرى حذقت فى علمى القرآن والحديث . ثم لاح لى مرض الدين ، فوجدت فى كتب الشافعى روايات عديدة فى فضائل آل النبى صلوات الله عليه وعليهم ، فوجهت خاطرى نحوهم ، وعنيت فى طلب إمام الوقت ، حتى جرتنى تكاليف حكام الزمن إلى أمور الدنيا التى يعظمونها الناس . ومن أجل هذا نسيت جدى الأول وشوقى الأمثل وجعلت جُلّ همى فى أمر الدنيا وخدمة الناس ، وألقيت وراء ظهرى أمر الخالق .

ولما كانت هذه الحالة لا ترضى الله سلّط علىّ الأعداء ، فأخرجونى مضطراً

من ذلك الأمر ؛ فكنت أفر من مدينة إلى مدينة ومن مهمة إلى مهمة ، حتى تعبت كثيراً كما لا يخفى على السلطان ونظام الملك .

ولما نجاني الله تعالى من هذه الورطة سالماً ، وعلمت أن التوجه إلى الخلق والتكيب عن الحق لا يثمر غير هذا ، قمت في أمر الدين وطلب الآخرة ، وسافرت من الرى إلى بغداد ، حيث أقمت مدة فيها درست خلالها أحوالها ، وتفحصت عن حال الخلفاء وأئمة الإسلام ، فوجدت الخلفاء العباسيين عارين من كل مروعة وخالين من مرتبة الفتوة ، وعلمت أن الإسلام والدين لو كانوا مبنيين على إمامتهم وخلافتهم ، إذن فالزندقة والكفر أولى .

ثم ذهبت من بغداد إلى مصر ، وفيها خليفة الحق الإمام المستنصر ، فدرست حاله ، وقابلت بين خلافته وخلافة العباسيين ، وإمامته وإمامتهم ، فوجدته أحق بالخلافة منهم ؛ فأقررت به وبرئت بكل الوجوه منهم ومن خلافتهم . ولما علم الخلفاء العباسيون بما أنا عليه ، أرسلوا نفرأ ليأخذوني في الطريق ، ثم نجاني الله منهم ، ووصلت سالماً إلى مصر .

ثم أرسلوا مقدار حمل ثلاثة بغال ذهباً إلى أمير الجيوش بمصر ، ووعدوه بأموال كثيرة أخرى إذا تمكن من الحسن أو من رأسه . ولما كانت عناية خليفة الحق والإمام المستنصر بالله شاملة بي ، نجوت من هذه المكيدة أيضاً .

ولما ألب العباسيون أمير الجيوش على رشحوني للذهاب إلى الروم ودعوة كفار الإفرنج ، وبلغ هذا الخبر إلى سمع الإمام ، فجعلني في كنفه ووكل إلي أمر دعوة الناس إلى الصراط المستقيم ، وإعلامهم بإمامة خلفاء مصر وحقيقتهم .. فما هو رأى السلطان بالآية : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ؟ [النساء : ٥٩] .

وهل يحمل على سماع كلامي وقام على دفع شرهم عن المسلمين كما قام السلطان محمود غازي سبكتكين على دفع شرهم وأذاهم ؟ وأما ما قلتم من أنني أظهرت ديناً جديداً .. فنعوذ بالله من أن أظهر ديناً

جديداً ، أنا أدين بدين أصحاب رسول الله ، ذلك هو الدين القيم إلى يوم القيامة ، ديني دين الإسلام والمسلمين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأن أولاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أحق بخلافة أبيهم من أولاد العباس .

إنك بعد أن أرسلت جيوشك من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ومن محاذة قطب الشمال إلى الهند ، سلمت لك كل هذه الممالك ؛ فهل تجوز بعدها أن تخرج من يد أبنائك لغيرهم ؟

إذا كنت تقبل بهذا فخلافتهم أيضاً جائزة .. على أن أبناء العباس عاشوا في الأرض فساداً ، ولئن كان بعض الناس يعتقدون فيهم ويعتمدون عليهم لجهلهم بفسادهم ، فكيف يعتمد عليهم من يعلم بفسادهم ؟!

وإننى لا أدري كيف يجب السلطان الله يوم القيامة ؟ وكيف تكون نجاته من النار إذا لم يدفع شرهم وينجى المسلمين منهم ؟

إننى لا أنكر الخلفاء الأربعة ومحبتهم في قلبي ، وإننى لم أظهر ديناً ، ولا ابتدعت مذهباً ، مذهبي مذهب الصحابة في زمن الرسول صلى الله عليه وآله ، وهذا صراطى المستقيم إلى يوم القيامة .

وأما ما قلتم من أننى أطعن في بنى العباس .. فأقول : كيف لا يطعن ولا يشنع بقوم كانت بدايتهم ونهايتهم على التزوير ، والتلبيس ، والفسق ، والفجور ، والفساد ؟

وها أنا أشير إلى نبذة من أحوالهم وأفعالهم لتكون لى على السلطان حجة :
أولاً : أبو مسلم الذى جد واجتهد ، واختار التعب ؛ حتى قصر أيدي ظالمى بنى مروان عن إراقة دماء المسلمين ، وأخذ أموالهم ، وأزال الظلم ، وزين الدنيا بالعدل — غدروا به ، وأراقوا دمه !

ثم قتلوا آلافاً من أولاد الرسول في أطراف العالم ، حتى انزوى جمع غفير منهم في زوايا الخفاء ، وخلعوا شعار السيادة لينجوا بأنفسهم من جور الظالمين .
ومازال أولئك الخلفاء يشتغلون بشرب الخمر ، وارتكاب الزنا ، وقد بلغ

الفساد فى زمانهم لدرجة أن هارون — الذى كان أعلمهم وأفضلهم — كان يحضر إحدى شقيقاته فى مجلس شرابه ومدامه . ومن أعماله التى لا يقرها وجدان ولا ضمير : أنه أمر بجلد أبى حنيفة الكوفى مائة سوط ، مع أنه كان ركناً من أركان الإسلام ، وأيضاً صلب منصور الحلاج الذى كان قدوة الأنام .

هؤلاء هم خلفاء العباسيين الذين تسميهم « أركان الإسلام وقوام الملك والملة » ، وتقول « إن بهم يوثق نظام الدين والدولة » ، فإن طعنت بهم أنا أو غيرى بعد هذا ، فهل أكون على حق أم على باطل ؟

وأما ما قلتم من « أننى أخدع الجُهل ، وأدفعهم لضرب الناس وقتلهم » .. فأقول : إن انحراف موظفى السلطان ، ووكلاء نظام الملك ، وأرباب المعاملات فى حدود خراسان — عن جادة الصواب ، وتجاوزهم على عورات الناس وحرَم العباد ، وقتلهم النساء أمام أزواجهن وارتكاب الفحشاء معهن ، فضلاً عن عدم الاهتمام بالمعاملات الديوانية ، وكلما استغاث الناس بأركان الدولة لا يلتفت أحد إليهم ، بل ينزل البلاء والجور على المستغيث .

هذا نظام الملك الذى هو اليوم وزير ورئيس للملك ، اتهم أبا نصر الكندرى بالتصرف فى مال السلطان وملكه ثم قتله ، مع أن أبا نصر كان فى حياته وأثناء وزارته يأخذ من الناس عشرة دراهم فيرسلها إلى خزانة الملك ، واليوم يأخذ نظام الملك خمسين درهماً بالجور والظلم ، ولا يرسل إلى خزانة الملك حتى نصف درهم ، بل يدفع قليلاً منها للصوص والقتلة ، ويصرف الباقي على بناته وأبنائه وأصهاره ، وإن ما أنفقه من أموال الناس على أبنيته ودوره أظهر من الشمس فى رابعة النهار . أين أبو نصر من الابن والبنت ؟ إنه لم يصرف أموال الناس فى أبنيته ودوره .

وليس للمظلومين فى هذا الزمان ملجأ يفرعون إليه ، فإن قام أحد للاضطرار ، وأثار النار على العار ، وهانت عليه المنية تخلصاً من الذل والدنية ، ودفع واحداً أو اثنين من هؤلاء الظلمة — فما ظلم ، وإن قتلهم لمعذور .

ماللحسن الصباح وهذه الأمور ؟ وهل يحتاج إلى أن يخدع الناس بعد هذا ؟

وأى أمر يقع فى الدنيا بلا تقدير سماوى ؟

وأما ما هددتم بحشد جيشكم لتدمير مستقرى ، فمعاذ الله أن أفعل شيئاً يكون فيه خلافاً لرأى السلطان . لقد اخترت زاويتى وجعلتها مأوى لى ؛ لأن أعدائى يحتالون فى طلبى ، ويسعون لسفك دمنى . فإذا فرغ السلطان من أمر الأعداء أنا أقبل إليه ، وأتشف بحضرته ، وانخرط فى سلك سائر عبادته ، وحينئذ أشير إليه ما استطعت لإصلاح أمر دنياه وتدارك أمر آخرته ، ولكن صدر عنى عمل بخلاف هذا ، أو خالفت أمر السلطان ، فأنا جدير بالسب واللعن من القريب والبعيد ، وبأن يقال فى : إنه خالف القول المأثور : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ [النساء : ٥٩] ، وأن تقول فى حقى ما شئت إذا أنا أغمضت عينى عن خصمى نظام الملك الذى ظلمنى ويظلمنى .

وأما قولكم : « لو أن مستقرى برجاً من بروج السماء لهدمته » .

فأقول : إن لمقيمى فى هذا المستقر ثقة بقول ولى الدهر من أن هذه القلعة ستبقى ثابتة فى أيدينا مدة طويلة حتى يحل قضاء الله بها .

ولأننى الآن أعمل بالفرائض والسنن ، وأرجو من الله ورسوله أن يهدى السلطان وأركان دولته إلى الصراط المستقيم ، ويرزقهم دين الحق ؛ ليزهق فساد العباسيين وفسقهم من بين الخلق .

ولو أن السلطان ينفى سعادة الدين والدنيا لعمل كما عمل سلطان الإسلام محمود غازى رحمه الله ؛ حيث جاء بسيد علاء الملك خداوند زاده من ترمذ وجعله خليفة للناس ، وبذلك تخلص من شرهم .

فعلى السلطان واجب دفع شرهم وإنقاذ عباد الله تبارك وتعالى منهم . وسيأتى زمان يظهر فيه سلطان عادل يخلص المسلمين من الظلم والظيم .

والسلام على من اتبع الهدى ..

خادم أعتاب آل محمد وعلى

الحسن بن الصباح

بهذا الردّ الدبلوماسي استطاع الحسن أن يهدأ من روع ملكشاه بعض الوقت ، فهاهو ذا مازال يعلن طاعته له ويطمئنه على أنه لن يخرج من هذه الطاعة .

* * *

الحسن يواصل انتصاراته :

ولكن الحسن أخذ يواصل جهوده لنشر الدعوة في المناطق المجاورة وللسيطرة على أكبر عدد ممكن من القلاع والحصون ، مستخدماً في ذلك مختلف الوسائل المتاحة له بدءاً من استخدام الإقناع العقائدي والتحاور الفكري حتى استخدام أسلوب القوة والصدام المسلحين . وقد استطاع السيطرة على إقليم « رود بار » واكتساب ولاء سكانه إلى الدعوة الإسماعيلية الجديدة .

ولم تتوقف محاولاته عند هذه المنطقة القريبة ، بل كان يتطلع إلى بعض المناطق البعيدة ، مثل « قهستان » التي كانت تقع في جنوب شرق فارس ، وهي عبارة عن مجموعة من الواحات المتباعدة تحيط بها صحارى مالحة . وقد أرسل الحسن إليها سنة (٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م) مجموعة من الدعاة الأكفاء بقيادة « حسين القائي » الذي كان من أهل قهستان . وقد قامت المجموعة بدور كبير في ذلك الإقليم ، وتمكنت ببراعة من استثمار سخط الأهالي على الحاكم السلجوقي « كلسارغ » الذي كان يحكمهم حكماً استبدادياً ويسئ معاملتهم . ويذكر المؤرخون أن قهستان كان قد بقي فيها بقايا من « بنى سيمجور » أمراء خراسان في عصر الدولة « السامانية » وقد بقي من نسل هؤلاء رجل اسمه « المنور » وكان ذا مكانة مرموقة عند الخاصة والعامة ، ولما تولى « كلسارغ » قهستان لم يقف ظلمه وتعديه عند حدود العامة ، بل تجاوز ذلك إلى الخاصة ، وحاول أن ينال أختاً للمنور بدون زواج ؛ فحمل ذلك المنور على الانضمام إلى الدعوة الإسماعيلية الجديدة ، وأصبح واحداً منهم ، مما قوى مركزهم شيئاً فشيئاً ، حتى عظمت مكانتهم في المنطقة واستطاعوا السيطرة عليها .

وقد امتدت جهود دعاة الحسن أيضا إلى جنوب غرب إيران في منطقة جبلية بين فارس وخوزستان ، وقد كان كبير الدعاة بتلك المنطقة هو أبو حمزة الإسكافي ، وهو من أهل « أَرْجان » كان قد سافر إلى مصر حيث أُجيز هناك كداعية إسماعيلي ثم عاد . ومن القلاع التي استولى عليها هناك قلعة « خلادخان » ، وقد كان ملكشاه قد أقطع هذه القلعة للأمير « أنز » ، فجعل بها « دزداراً » ، وعندما قرر الإسماعيليون بأرْجان الاستيلاء عليها بعثوا أولاً إلى « دزدار » يطلبون منه بيعها لهم ، فرفض ، فقالوا له : « نحن نرسل إليك من يناظرك حتى يظهر لك الحق » ، فأجابهم إلى ذلك ، فأرسلوا إليه داعياً ديلمياً يناظره ، وكان للدزدار مملوك قد رباه وسلم إليه مفاتيح القلعة ، فاستماله الداعي الإسماعيلي ، ولما طلب منه القبض على صاحبه وتسليم القلعة إليهم ، استجاب المملوك فقبض عليه وسلم القلعة إليهم ، ثم أطلقه بعد ذلك . وعقب استيلائهم على قلعة « خلادخان » استولوا على عدة قلاع أخرى ، منها قلعة « الناظر » بخوزستان ، وقلعة « الطنبور » التي بينها وبين أَرْجان فرسخان .

بداية الحملات السلجوقية ضد قلاع الحشاشين :

في ضوء هذا الانتشار السريع والانتصارات المتوالية لحركة الحشاشين في أطراف إيران الجبلية والصحراوية ، وجد ملكشاه السلطان السلجوقي — بإيعاز من نظام الملك — أنه مامن بدّ من اللجوء إلى استخدام القوة العسكرية في القضاء على النفوذ الأملوي المتزايد .

فوجه السلطان حملتين في بداية سنة (٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) إلى كل من « ألموت » و « قهستان » ، أما الحملة الأولى فقد كانت بقيادة الأمير « أرسلان تاش » ، الذي توجه بجيشه إلى « ألموت » التي حاصرها ، وكان رجال الحسن الذين معه في القلعة لا يتجاوزون سبعين رجلاً على الأكثر ، وإن كان الحسن قد أعدّ العدة لمواجهة هذا الحصار ، فكان لديه من المؤن ما يكفي رجاله طوال فترة الحصار ، وكان يوزعها عليهم توزيعاً مقنناً حتى يضمن الاستمرار في المواجهة أكبر فترة ممكنة . وفي البداية طلب أرسلان تاش من الحسن ورجاله الاستسلام الفوري وتسليم القلعة ، وإن لم يفعل فستكون عاقبته

هو ورجاله الإبادة ، حيث سيضرب على القلعة حصاراً مستمراً . ولكن رغم هذا التحذير الشديد فإن الحسن لم يرضخ وردّ على « أرسلان تاش » بخطاب شديد اللهجة فقال :

« أيها الغزاة ، مالكم والتدخل في شؤوننا الداخلية ؟ نحن قوم لا هدف لنا إلا العمل على إصلاح المجتمع .. هذا المجتمع الفاسد ، ونشر بذور المحبة والإخاء بين المواطنين ، ورفع الحيف والظلم عن الطبقات الفقيرة العاملة المنتجة . ارجع بجنودك عنا ؛ فلو بقيت إلى الأبد لن تنال منا قيد أنملة ، وحسن ابن الصباح الذى عجمت^(١) عوده لن يخشاك . والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى » .

وبالفعل ، نفذ أرسلان تاش تهديده فحاصر القلعة ، ولم يكتف بذلك ، بل ضيق الخناق أيضاً على القرى والمناطق المجاورة . واستمر هذا الحصار حوالى أربعة أشهر ، كان الحسن فى أثائها قد أرسل يستنجد بالداعى « ديدار أبو على » الذى كان له نفوذه وتأثيره فى قزوين والرى وطلقان وكوهى بارا . فسارع الداعى بإرسال الرجال ومعدات الحرب إلى منطقة الحصار . وفى ليلة حالكة الظلام قامت هذه المجموعة مع فدائى ألموت بمساعدة بعض أهالى رودبار بهجوم سريع ومفاجئ على جيش أرسلان تاش ، فاستطاعوا هزيمته وإجلائه عن المنطقة .

أما الحملة الأخرى التى كان ملكشاه قد وجهها فى نفس الوقت إلى قهستان بقيادة « قزل مارق » ، فإنها قامت بحصار منطقة النفوذ الإسماعيلى . واستمر هذا الحصار دون أى تسليم من حسين القائى ورجاله ، حتى جاء خبر موت السلطان ملكشاه ، فقرر قائد الحملة فك الحصار والعودة من حيث جاء .
اغتيال نظام الملك :

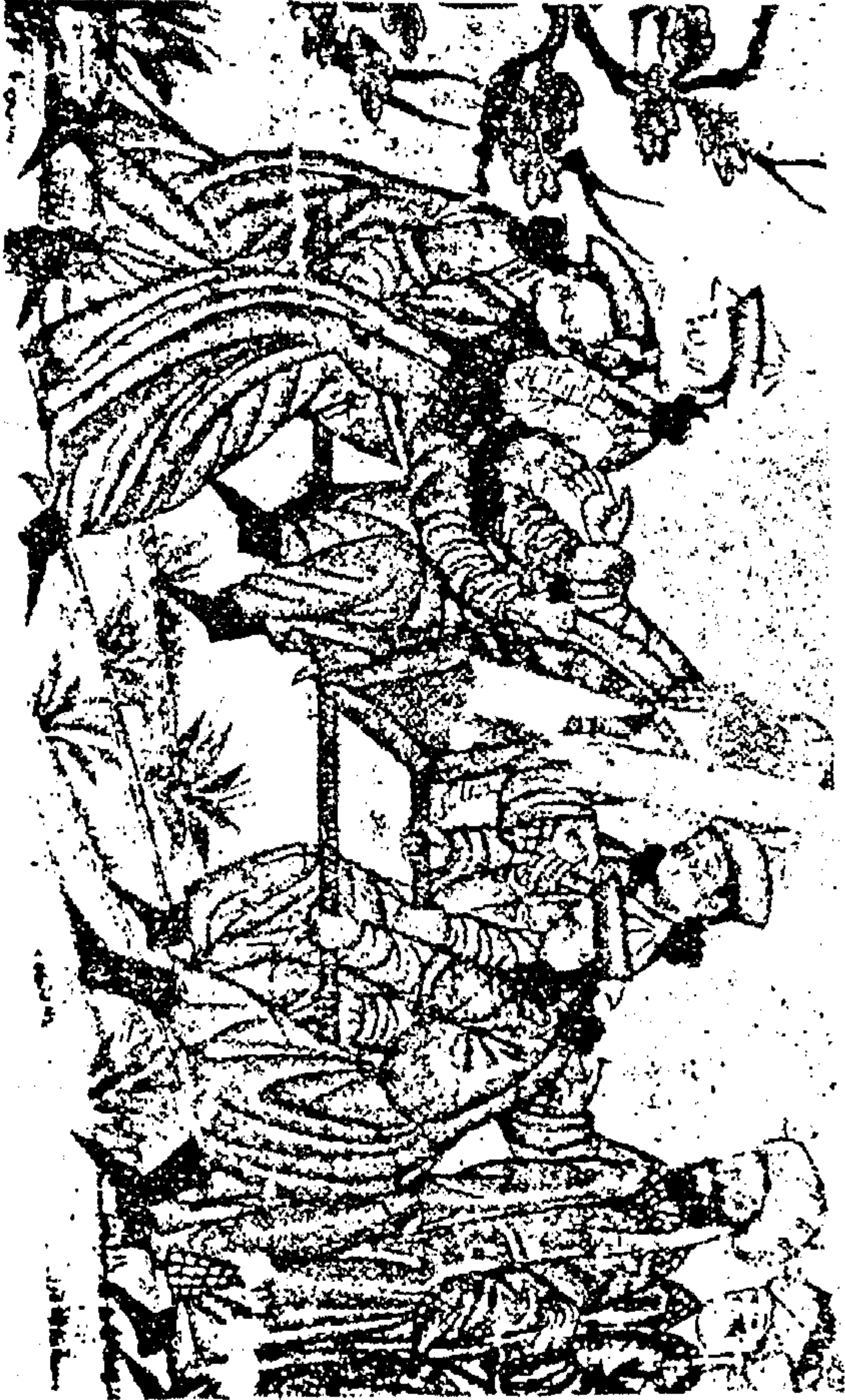
وقبل موت السلطان ملكشاه بقليل استطاع أحد فدائى حسن الصباح أن يقتل نظام الملك الوزير السلجوقى والعدو الأول للحركة الألماتية ، وكان قتل نظام الملك أول عمل اغتيالى للحركة على مستوى كبير ؛ وقد بدأت معه

(١) يقال : عَجَمَ فلاناً ، وعَجَمَ عُدَّةً : امتحنه واختبره .

سلسلة من الاغتيالات المتوالية لكبار الشخصيات التي تعارض دعوتهم ، من وزراء وقواد وأمراء بل وملوك ، وحتى رجال الدين الذين كانوا يتتقدوا الحركة لم يفلتوا من أيديهم .

ففى سنة (٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) ، فى العاشر من رمضان ، كان الوزير والسلطان بالقرب من نهاوند ، وبعد أن فرغ الوزير من طعام إفطاره خرج فى محفته إلى خيمة حرمة ، فأتاه صبى ديلمى من الحشاشين ، فى صورة مستغيث ، فضربه بسكين كانت معه ، فقتله ، ثم هرب ، فتبعه الحراس فأدركوه فقتلوه .

ومع أن مسؤولية الحسن بن الصباح عن مقتل نظام الملك ثابتة فى مراجع الشيعة أنفسهم ، كما أن اسم نظام الملك محفوظ فى « قائمة شرف » للاغتيالات بقلعة الموت ، كانت تسجل بها أسماء القدائين وأسماء من قتلوهم ، مع ذلك إلا أن هناك مَنْ يحاول أن يلصق تهمة قتل نظام الملك بالسلطان ملكشاه ، ويروون فى هذا الصدد الرواية التالية : « كان سبب قتله (= نظام الملك) أن عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك ، كان قد ولاه جده نظام الملك رياسة مرو ، وأرسل السلطان إليها شحنة يقال له قودن ، وهو من أكبر مماليكه ومن أعظم الأمراء فى دولته ، فجرى بينه وبين عثمان منازعة فى شىء ، فحملت عثمان حداثة سنه وتمكنه وطمعه بجده ، على أن قبض عليه ، وأخرق به ، ثم أطلقه ؛ فقصده السلطان مستغيثاً شاكياً ، فأرسل السلطان إلى نظام الملك رسالة مع تاج الدولة ومجد الملك البلاسانى وغيرهما من أرباب دولته يقول له : (إن كنت شريكى فى الملك ، ويدك مع يدى فى السلطنة ؛ فلذلك حكم .. وإن كنت نائبى وبحكمى ؛ فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة . وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة ، وولى ولاية كبيرة ، ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة ، وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا) ، وأطال القول ، وأرسل معهم الأمير « يلبرد » ، وكان من خواصه وثقاته ، وقال له : (تعرفنى ما يقول ، فربما كتم هؤلاء شيئاً) . فحضروا عند نظام الملك ، وأوردوا عليه الرسالة ، فقال لهم : (قولوا للسلطان : إن كنت ما علمت أنى



صورة تخيلية لاغتيال نظام الملك

شريكتك في الملك فاعلم ، فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيرى ورأى ؛ أما يذكر حين قُتل أبوه فقمت بتدبير أمره ، وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم — منهم فلان وفلان وذكر جماعة من خرج عليه — وهو ذلك الوقت يتمسك بى ويلزمنى ولا يخالفنى . فلما قدت الأمور إليه ، وجمعت الكلمة عليه ، وفتحت له الأمصار القرية والبعيدة ، وأطاعه القاصى والدانى ، أقبل ينحنى لى الذنوب ، ويسمع فى السعايات ؟! قولوا له عنى : إن ثبات تلك القانسة معذوق بهذه الدواة ، وإن اتفقاها رباط كل رغبة وسبب كل غنيمة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك . فإن عزم على تغيير فليتزود للاحتياط قبل وقوعه ، وليأخذ الحذر من الحادث أمام طروقه) ، وأطال فيما هذا سبيله ، ثم قال لهم : (قولوا للسلطان عنى مهما أردتم فقد أهمنى ما لحقنى من توبيخه وفت فى عضدى) . فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتمان ما جرى عن السلطان ، وأن يقولوا له ما مضمونه العبودية والتنصل ، ومضوا إلى منازلهم ، وكان الليل قد انتصف ، ومضى « يلبرد » إلى السلطان فأعلمه ما جرى ، وبكر الجماعة إلى السلطان وهو ينتظرهم ، فقالوا له من الاعتذار والعبودية ما كانوا اتفقوا عليه ، فقال لهم السلطان : إنه لم يقل هذا وإنما قال كيت وكيت ، فأشاروا حينئذ بكتمان ذلك رعاية لحق نظام الملك وسابقته ، فوقع التدبير عليه حتى تم عليه من القتل ما تم ، ومات السلطان بعده بخمسة وثلاثين يوماً وانحلت الدولة ووقع السيف وكان قول نظام الملك شبه الكرامة له وأكثر الشعراء مراثيه » [الكامل ٨ : ١٦١ — ١٦٢] .

ويؤكد أكثر من مؤرخ أن نظام الملك قتل بتدبير من ملكشاه ، وكان الذى سعى بنظام الملك عند السلطان هو الوزير تاج الملك الذى تمخضت سعاياته عن الصدام السابق ذكره . غير أن الذى عليه معظم المؤرخين هو أن المسؤول مسؤولية مباشرة عن مقتل نظام الملك هو حسن الصباح . ويبقى هذا الرأى هو الأقوى والأؤكد ، لاسيما وأن مؤرخى الشيعة أنفسهم يعتبرون أن مقتل نظام الملك من مفاخر حركة الموت ، وأن بمقتله أرسى الحسن الصباح أسس الفدائية . غير أن الدليل الحاسم على ذلك يتمثل — كما سبق أن ذكرنا — فى

كون اسم نظام الملك محفوظاً في السجلات التي بقيت في قلعة الموت والتي بها قائمة شرف بكل عمليات الاغتيال .

وبموت الوزير نظام الملك ثم السلطان ملكشاه انتهت فترة المجد التي شملت حكم السلاطين السلاجقة الثلاثة الأولين : طغرل ، وألب أرسلان ، وملكشاه . فبعد موت ملكشاه أخذت الحروب الداخلية يستعر أوارها بين أبنائه ، وتلت ذلك عدة اضطرابات أضعفت السلطة المركزية السلجوقية . كل ذلك أعطى الفرصة للحسن الصباح لكي يكتسب مزيداً من النفوذ والقلاع وينشر الدعوة في أنحاء إيران .

انشقاق داخلي في التيار الإسماعيلي :

غير أنه في سنة (٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) وقعت مشكلة كبرى عندما توفي الإمام المستنصر ؛ إذ أنه كما سبق أن أشرنا كان قد عهد إلى ابنه نزار بولاية العهد ، ولكن استطاع الوزير الفاطمي بدر الجمالي أن يقصى نزاراً الذي كان يناهضه ، وبائع أخاه الأصغر أحمد المستعلي ، وبهذا حدث انشقاق داخلي في التيار الإسماعيلي ، حيث أيدت طائفة إمامة نزار ولذلك سميت بـ « النزارية » ، بينما أيدت طائفة أخرى إمامة أحمد المستعلي ، وهؤلاء سموا بـ « المستعلية » . وقد كانت حركة الحشاشين بزعامة الحسن الصباح أكبر المؤيدين لإمامة نزار ، فالحسن عندما زار مصر وقابل المستنصر سأله : « من إمامي بعدك ؟ فقال : ابني نزار » .

وقد تمكن المستعلي بمساعدة بدر الجمالي من تولي الخلافة الفاطمية ، ولذلك ترك نزار القاهرة متوجهاً إلى الاسكندرية بمصاحبة مجموعة من مؤيديه ؛ حيث رحب به أميرها ناصر الدولة افتكين والقاضي جلال الدين بن عمار ، وقد أخذ البيعة من أهل الاسكندرية ، وجاءه التأييد من إسماعيلية إيران وسوريا . غير أن الوزير بدر الجمالي اتجه إليه بجيوشه واستطاع إلحاق الهزيمة به وبأتباعه ، وهنا تتباين روايات المؤرخين حول مصير الإمام نزار ، فمنهم من يذكر أنه قُتل هو

وأبناءؤه في الاسكندرية ، ومنهم من يقول بأنه أخذ إلى القاهرة هو وأبناءؤه أيضاً حيث قُتلوا فيها ، وهؤلاء وأولئك قالوا بأن الإمامة انتقلت منه إلى حفيد له هُرب سراً بواسطة أتباعه إلى الموت ، ولكنهم أحياناً يذكرون أن ابن نزار كانت له زوجة حاملاً فاستطاع الأتباع تهريبها إلى الموت ، وهناك وضعت الخليفة الشرعى ولكن أكثر دعاة الإسماعيلية النزارية يؤكدون على أن الإمام نزار قد تمكن من الهرب أثناء حصار الاسكندرية ، وتوجه إلى الموت ؛ فيقول أبو المكارم أحد الدعاة الإسماعيليين في كتابه « الأخبار والآثار » : « عندما اشتد الحصار على الاسكندرية من قبل الجاحد المارق الزنديق الأرمنى الأفضل غادرها مولانا الإمام نزار عليه السلام مع أهل بيته متخفياً بزى التجار نحو سجلماسة ، حيث مكث عند عمته هناك بضعة أشهر ، حتى عادت إليه الرسل التى أوفدها لإبلاغ الحسن بن الصباح عن محل إقامته ، فسار إلى جبال الطالقان مع أهل بيته ومن بقى معه من دعائه وخدمه ، حيث استقر بقلعة ألموت بين رجال دعوته المخلصين ، وعمل مع الحسن بن الصباح على تأسيس الدولة النزارية » .

الاستيلاء على قلعة كردكوه الشهيرة :

ورغم حدوث هذا الاضطراب والقلق في تيار الدعوة الإسماعيلية ، التى انشقت إلى إسماعيلية نزارية وإسماعيلية مستعلية ، فإن هذا لم يحل دون استمرار نشاط حركة الحشاشين التوسعى فى أرجاء إيران ، حيث تمكنت من الاستيلاء على قلعة « كردكوه » الشهيرة جنوب دمعان سنة (٤٨٩ هـ = ١٠٩٦ م) ، وقد تم الاستيلاء عليها بمساعدة ضابط سلجوق اسمه « مظفر » كان قد اعتنق سراً عقيدة الإسماعيلية منذ فترة على يد الداعى عبد الملك بن عطاش ، حيث استطاع مظفر أن يقنع رئيسه الأمير السلجوقى أن يعينه قائداً للقلعة ، فطلب الأمير ذلك من السلطان ، فوافق بدوره . وكانت الخطوة التالية التى قام بها مظفر هى تحصين القلعة وإمدادها بقدر كاف من العدة والعتاد بمساعدة الأمير السلجوقى . وفى الوقت الذى انتهى فيه من ذلك صرح بانتماؤه إلى الحركة الألوتية (= حركة الحشاشين) . ولأشك أن الاستيلاء على هذه القلعة واكتساب هذا الضابط فى صفوف الحركة كان يعنى زيادة ذات شأن فى قوة

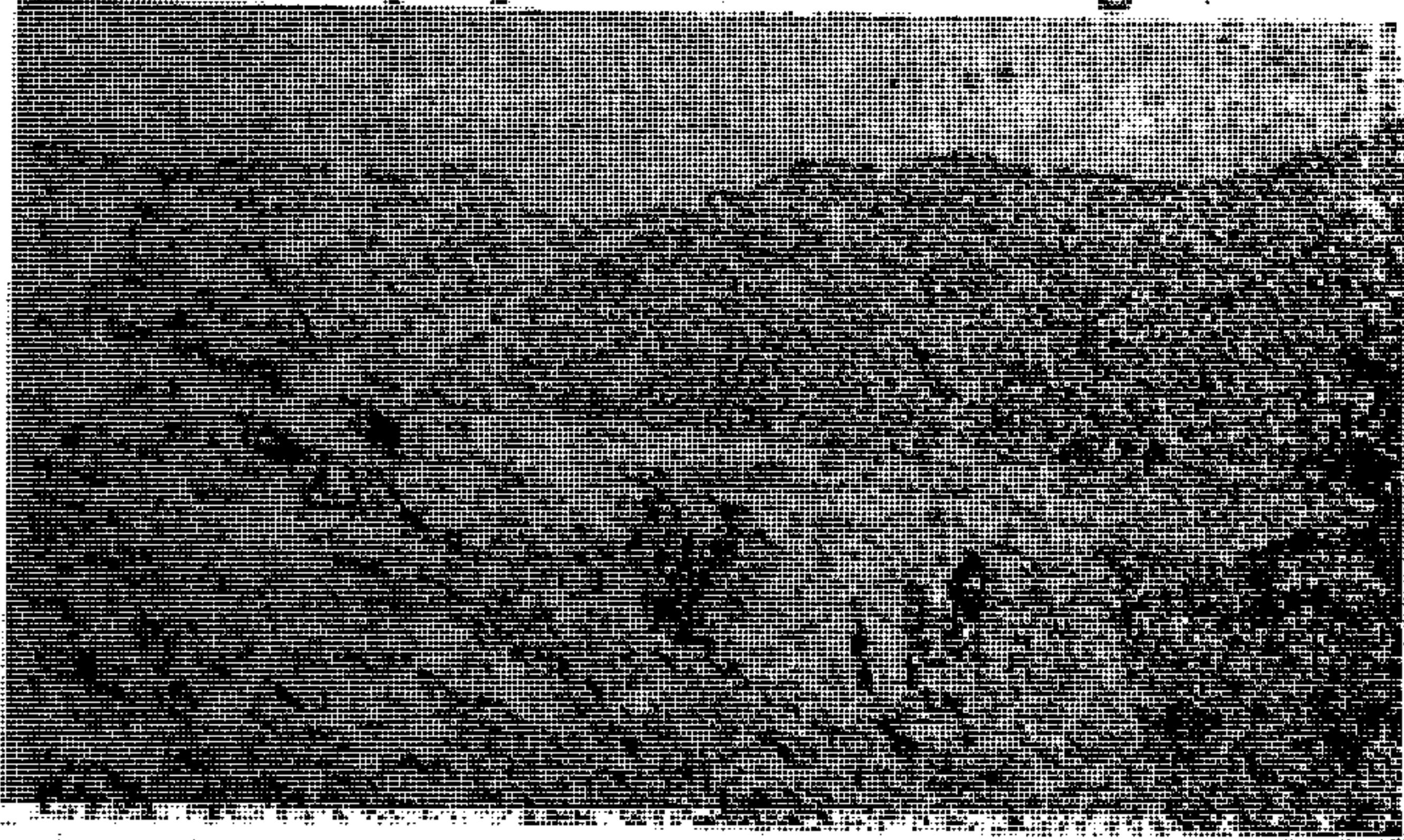
الألموتيين . ولعل أهمية القلعة الاستراتيجية تظهر لنا بوضوح أكثر إذا قرأنا ما يقدمه المستشرق المدقق « ايفانوف » W. Ivanow من وصف لها في دراسته "Some Ismaili Strongholds in Persia"

حيث يشير إلى أن قلعة « كردكوه » بالقرب من دمغان لها قيمة كبيرة بالنسبة لمعاصري الأئمة الإسماعيليين ، وقد نشأت أهمية القلعة من سيطرتها على طريق خراسان ، وكذلك من حمايتها لطريق الهضبات الواصلة بين داخل إيران وبحر قزوين الذى يوازي طريق بسطام بنفس الطريقة التى يوازي فيها لطريق ألموت طريق مينجيل . ومن الصعوبة أن ندرك - كما يقول أيفانوف - مدى اهتمام الإسماعيلية ببهر قزوين . ولقد زار كردكوه كثير من علماء الآثار ، وصورت من الجو بطائرات البعثات الأمريكية . ولقد أطلعنى رئيس مصلحة الآثار الإيرانية على هذه الصور ، وهى لم تنشر حتى الآن . ولم يصل إلى علمى حتى الآن أى وصف لكردكوه قد قام به أى باحث . وفيما يلى بعض التفاصيل : يحدثنا عنها ياقوت الحموى الجغرافى الشهير أثناء وصفه لدمغان ذاكراً أن قلعة كردكوه تبعد مسافة يوم عن مدينة دمغان ، ويمكن أن تُرى من هناك . ولقد ذكر المستوفى القزوينى فى كتابه « نزهة القلوب » ص ١٦١ ، القلعة وسماها "Dizi Gunbadan" أى « ذات القبة » ، وقال بأنها تبعد ثلاثة فراسخ عن دمغان . وكان يوجد بالقرب منها قرى وكثير من الأراضى الزراعية وحاضرتهم « منصور آباد » .

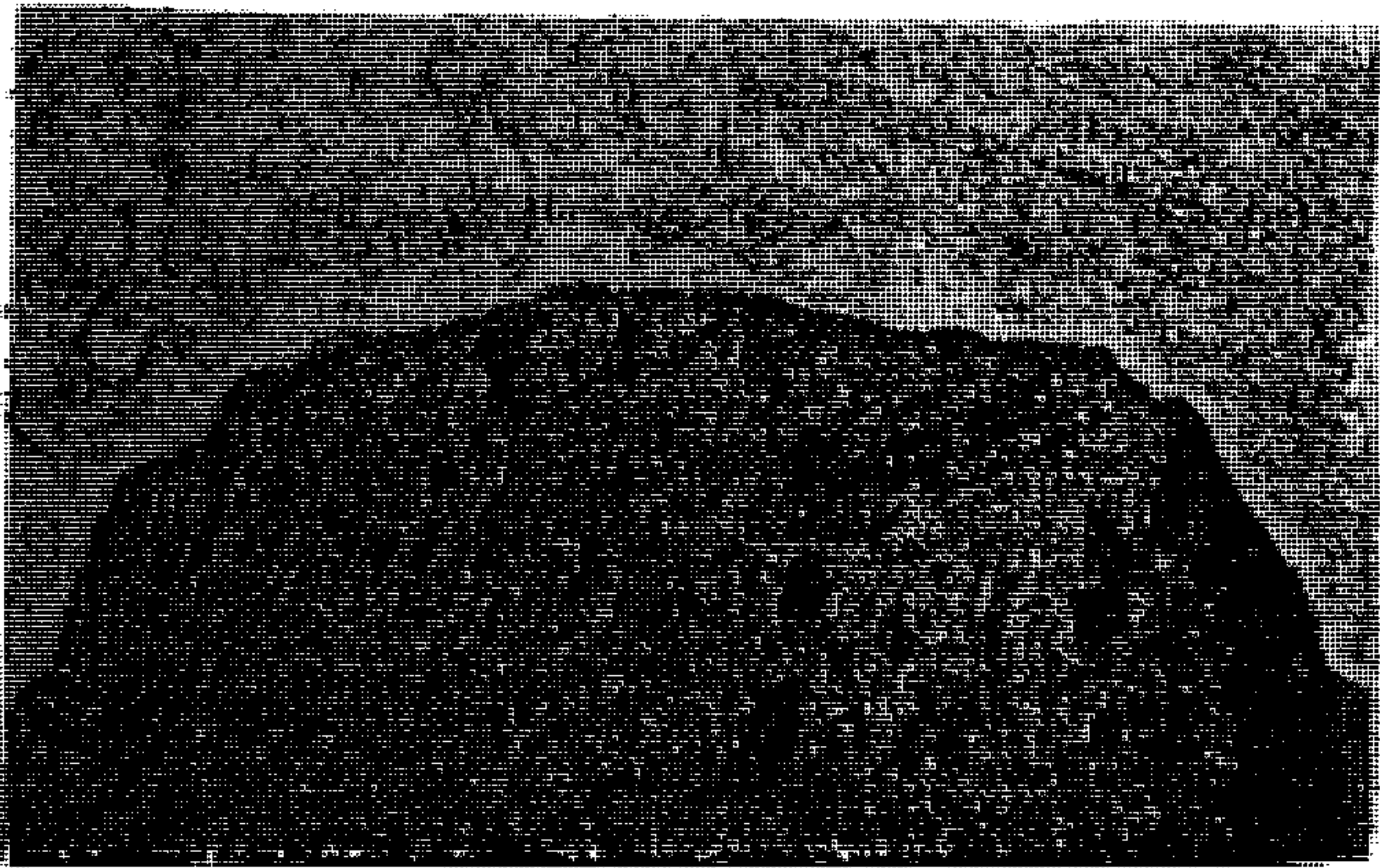
وكما يشاهد الآن فإن القلعة أقيمت على هضبة تشبه الكعكة داخلية فى سهل مائل يخرج عن خط الهضاب المائلة بجانب لقاعدة الهضاب ، وترتفع ألف قدم أو أكثر عن قاعدتها . وعندما ننظر إليها من السهول مثلاً من الجنوب تظهر مستديرة ، ولهذا سميت كردكوه ، أى الهضبة المستديرة ؛ إذ تظهر مثل كعكة عيد عظيمة تقع غرب دمغان ، وتقع فى مكان مميز عما يحيط به . ويشاهد ذو النظر الحاد من قممها لمسافة خمسين ميلاً شرقاً وجنوباً وغرباً ، أما من الشمال فيبرز جدار مانع من السلسلة الرئيسية . ويمكن أن يصل الخيال من دمغان إليها



بعض الأطلال في هضبة « كردكوه »



جدران على الجانب الشمالى الشرقى لكردكوه



هضبة « كردكوه » من الجنوب الشرقى

فى يوم واحد . ولأنه لا يوجد سكان هناك فمن الأسهل أن تأخذ سيارة من طهران حتى دولة آباد التى تبعد عشرين كيلومتر عن دىغان ، وهناك توجد عدة أماكن مسكونة يمكن أن يستعان بأدلة منها . والمسافة من دولة آباد حتى الهضبة عشر كيلومترات . وليس هناك طريق ملائم ، ومع هذا توجد سيارات قوية لاجتياز المكان . وعندما كانت القلعة فى يد الإسماعيلية كان طريق خراسان أعلى منه الآن ، وكانت تنتشر الواحات فى الجنوب والجنوب الشرقى منها عبر الصحراء .

ويوجد عدد من القرى — كما يقول القزوينى — تقع الآن على أرض أخفض منها بالأمس ، وأطلال منصور آباد يبدو أنها كانت عالية وذات أبنية أضخم وحجم أوسع وتحصينات قوية تحتل مكاناً فسيحاً . وتقع الأطلال على مسافة خمسة أو ستة كيلومترات عن كردكوه إلى الجنوب والجنوب الغربى . والمكان الآن قاحل فيه بعض بقاع مزروعة . ويوجد هنا وهناك بعض قرى صغيرة دارة ، ويقال أن سبب خلوها هو جذب البلاد . وتسقى الأراضي الزراعية هنا بواسطة الأقنية التى تجتاز الهضاب وتسقى لمسافات بعيدة .

ومع أنه لم يتح لى — الكلام لإيفانوف — أن أرى شخصياً الطرق ، فقد وصف لى السكان أن كثيراً من الطرق القديمة كانت تجتاز قاعدات الهضبات وتسيطر عليها قلعة كردكوه ، وقد تغيرت الآن هى والقرى المارة بها . وكما ذكرنا فإن القلعة تحرس الممر إلى شاطيء قزوين . ومبدأ هذه الآثار تشكل من وادى نهر دىغان التى تميل إلى الشرق نحو المدينة ولا تبعد كثيراً عن مكان كردكوه .

ولم أشاهد أى سكان على الطريق الذى اتبعته إلى بلدة « آيانو » وفى وادى دىغان . وسمعت أن ثمة طريقاً آخر تحف به القرى الأثرية التى يظهر أنها كانت تخص الإسماعيلية سابقاً كما يستدل من تحصيناتها . ويقود هذا الممر من كردكوه إلى ميرنيجار التى كانت صورة طبق الأصل عن كردكوه نفسها .

وقد تركزت أكثر جهات الهضبة المقام عليها كردكوه بدون تحصين ؛ لأن

جوانب الهضبة قائمة على قاعدتها . أما الحصون والجدران فقد بنيت على ظهر التاج فوق الهضبة وخاصة في الشرق والشرق الجنوبي .

وينتشر على الهضبة كثير من الآثار المبعثرة هنا وهناك ، ومن الصعب أن نعرف سبب بنائها اليوم ، ومن المحتمل أنها كانت مغلقة ومتصلة ببعضها البعض بممرات سرية في أيام الإسماعيلية . واليوم وبعد سبعمائة سنة زالت الآثار تحت أكوام الحجارة حيث تظهر كميات كبيرة من الملاط . وعند اقتراب الهضبة من دولة آباد يمر المرء بين حقول فيها عدة قرى صغيرة تقع بقرب تلال طينية واطئة .

وعندما تبدأ المنحدرات تظهر الأمكنة المجدبة المغطاة بحجارة جرفتها السيول من علي . وقبل الكل يشاهد المرء عند منحدر الهضاب آثار البناء كباين مفتوحين ، ويسمى أهل تلك البلاد « السجن » ، ويصعب اكتشاف ما إذا كان هذا نوعاً من التحصينات أو بوابة لمدخل يقود إلى القمة .

ويظهر أن عدداً من الأماكن التي نستطيع أن نصعد منها الهضبة قد اندثرت ولم يبق إلا مصعد وحيد في الجانب الشمالي ، والهضبة لا تزار الآن حتى ولا من الرعاة . وليس هناك أية ممرات عند قاعدتها ، والقاعدة مغطاة بأكوام من الحجارة المزوجة بالملاط قد جرفتها السيول من القلاع المجاورة . ولقد استعملت الحجارة على الأكثر في بناء الجدران والمنازل ، وتدل قطع الملاط والقرميد على درجة من القرميد في بناء البيوت .

ومن الصعب اليوم الارتقاء إلى قمة المدخل نظراً لما أحدثته الطبيعة من مجاري وأخاديد . والمسؤول الوحيد عن اختفاء آثار الممرات أو المصاعد هو اختلاف الطقس وقسوة الطبيعة . ومما لا شك فيه أن الآثار كانت موجودة سابقاً إلا أن السيول جرفتها مع الزمن ، والدليل على ذلك وجود الآثار القريبة من القمة ، وهي في حالة بائسة ..

وتبدو قمة الجبل كحرف ملتوي ضيق وصخري ، وتوجد على كلا الجانبين بقايا أخاديد مختلفة . ومن المحتمل تماماً أن القمة كانت مستوية أكثر منذ

سبعمائة سنة وأن هذه الأخاديد سببتها الأمطار وعاديات الأيام . والقمة مغطاة بأكوام من الحجارة ، وتوجد بقايا جدران كانت قد بنيت بالحجارة والملاط . ومن الواضح أن أهم قسم من القلعة بنى هنا .

ولاتزال كثير من الأواني الفخارية التى ربما صنعت لخزن المياه أو الحبوب . وشاهدت أكثر من حجر مقطوع وبعض الدرجات محفورة فى الصخر ، ولا توجد آثار للنحت .

وقد بنيت الجدران والبروج من القرميد المشوى ، وخاصة بعض المنشآت فى بعض الأماكن . ومن الصعب فحص الأماكن بدقة لوجودها فوق هوة سحيقة . ولا يمكن التسلق بدون حبال وخاصة تخلخل الحجارة تحت الأقدام قد يودى بالمرء إلى أسفل . كذلك من الصعب أن يرى الإنسان التحصينات حيث تغيب الجدران فى أكثر الأماكن . وبمقدورنا أن نعرف شيئاً عن القلعة وخاصة عن زمن بناء المكان إذا قمنا بالتنقيب والحفر .

وتدل كل المظاهر على أن هذه القلعة عبارة عن صورة طبق الأصل عن قلعة الموت وقلعة شيركوه وبعض القلاع الإسماعيلية لاسيما التى فى خرائب خراسان قرب « كائن » وفى وادى « بيرجانند » .

ومن المؤكد أن الجميع شيدوا بنفس الوقت تقريباً ، ولا يمكن بغير التمهيد والتدقيق معرفة ما إذا كانت هذه القلاع بنيت قبل الإسلام . ومن الواضح أن البناء صمم لحماية السكان ، ولا يبدو أن مزيداً من المواطنين سكنوا هناك . وبدون النار لا يمكن احتلال تلك القلاع ، مع العلم أن مخازنها كانت كافية للتموين بالماء والطعام لفترة طويلة .

ومن هنا تتضح أهمية هذه القلاع الواقعة على نقطة التقاء شرق إيران بغربه واهتمام الإسماعيلية بها .

وإذا رجعنا لوصف قلعة كردكوه نجد أن لها من الشمال عنقاً تصل الهضبة بعدة قمم أخرى ، وتحت هذه العنق توجد مساحة خالية من الحجارة الترايبية . ويجد المرء هناك بعض الحجارة الصناعية المنحوتة . ومن الواضح أن سكان

القلاع رموها فوق رؤوس المحاصرين أثناء الحصار ، وأكثرها يزيد قطرها على المترين وثقيلة للغاية ، ومنظرها يوحي بطريقة رميها واجتماعها بهذه البقعة القريبة من القمة . مما يجعلنا نستدل أن المدخل كان في عصر المغول بهذا الجانب .

ويوجد عدد آخر من القذائف الحجرية في جهات أخرى ، إلا أنها ضاعت بين غيرها من أكوام الحجارة . ويستدل من أكوام الحجارة وقطع الملاط الموجودة فوق مكان القذائف على أن قرية كانت مقامة هناك . ومن المحتمل أن لا يكون أهلها من المدافعين عن القلعة ، وإنما من المتصلين بالعالم الخارجي للقلعة بدلالة حوانيتهم ومرافقهم العامة . ويشاهد هذا البناء على قاعدة ألموت ومثله على قاعدة قلعة مصياف في سوريا . وهناك من يقول أن أهل القرية كانوا لا يلجأون إلى القلعة إلى في حالة الحصار والقتال .

وليس بالإمكان معرفة وجود اتصال تام بين كردكوه وقلعة كوهى ميرنيجار الكائنة بوادى دوغان ، كما يصعب التأكد مما إذا كانت من بناء الإسماعيلية ، إلا أن شكل التحصينات ومقارنتها بغيرها يجزم بأن أيد إسماعيلية قد بنتها .

وبالنسبة لكردكوه ، فلقد عمرت بالسكان فور خروج المغول منها ، ومازالت قصص الماضي عالقة بأذهان السكان .

وينهى إيفانوف كلامه عن قلعة كردكوه وغيرها من القلاع مؤكداً على الأهمية الاستراتيجية لموقعها وتصميمها في مواجهة الغزاة ، مما يدل دلالة قاطعة على عظم المكسب الذى اكتسبته الحركة الأملوتية باستيلاءها على هذه القلعة .

الإستيلاء على قلعة شاه ديز :

ومن ضمن القلاع التى كانت تخطط الحركة للسيطرة عليها قلعة شاه ديز المقامة على أحد التلال القريبة من أصفهان ، وكان الذى تولى العمل للسيطرة عليها هو أحمد بن عبد الملك بن عطاش ، الذى تمكن من أن يكتسب ثقة قائد

حامية القلعة حتى جعله ذراعه اليمين ، ومن هنا تولى قيادة القلعة بعد موت القائد .

وقد كان استيلاء الحركة على شاه ديز عملاً جسوراً بكل المقاييس نظراً لقربها من مدينة أصفهان عاصمة الدولة السلجوقية في هذه الفترة .

الحركة تعاود نشاطها في أصفهان :

ولم تكتف الحركة بالاستيلاء على شاه ديز القريبة من أصفهان ، بل عاودت نشاطها في مدينة أصفهان نفسها ، وقد كانت أصفهان مركزاً حيوياً للدعوة قبل ذلك ومن وقت غير قصير ؛ حيث كان داعي الدعاة بالمنطقة عبد الملك بن عطاش يتخذها مقراً ثابتاً له ، ولكن عندما اشتدت السلطات رائحة نشاطه فر منها هارباً . وأصبحت أصفهان منذ هروبه منطقة حظر لا يستطيع التحرك فيها الدعاة الإسماعيليون ، بيد أنهم استطاعوا أن يعودوا لممارسة نشاطهم فيها بعد مقتل نظام الملك وموت السلطان ملكشاه ؛ حيث اشتد الصراع بين خليفة ملكشاه السلطان بركيارق وبين زوجة أبيه خاتون وأتحيه غير الشقيق محمد . فانتهاز دعاة حركة الحشاشين هذه الفرصة وعملوا على توسيع نشاطهم فيها ، وقد نشروا حالة من الرعب والفرع بين مخالفهم في المدينة من جراء الأساليب التي كانوا يلجأون إليها في قمعهم ؛ من قتل وتدمير واستيلاء على ثروات ، وقد بلغت حالة الفرع والرعب بين الأهالي أن الرجل كان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد يبقنوا قتله وقعدوا للعزاء فيه ، ولذا كان لا يسير أحد بمفرده مطلقاً . ويروى المؤرخون أنهم أخذوا ذات مرة أحد المؤذنين ، فلما تأخر عن العودة إلى بيته قام أهله للنياحة عليه ، فصعد الحشاشون به إلى سطح داره ، وأروه منظر أهله وهم يلطمون ويبيكون ، وهو لا يستطيع أن يتكلم خوفاً منهم .

انتقام أهالي أصفهان من أعضاء الحركة :

وقد تمخضت حالة الرعب هذه التي كان يعيش فيها أهل أصفهان عن

ثورتهم ضد أعضاء الحركة ، فقتلوههم ومثلوا بهم أبشع تمثيل ، وكان الذى أدى إلى كشف أمرهم أن رجلاً دخل دار صديق له فرأى فيها ثياباً ومدايات وملابس لم يعهدها ، فخرج من عنده وتحدث بما كان ، فكشف الناس عنها ، فعلموا أنه من المقتولين ، فثارت الجماهير كافة ، وأخذت تبحث عنهم وتستكشف أمرهم ، حتى توصلوا إلى الدروب التى يقطنونها وينفذون فيها عملياتهم ، فإنهم كانوا إذا اجتاز بهم إنسان ممن يعارضونهم أخذوه إلى دار من دورهم وقتلوه ، ثم يلقونه فى بئر فى نفس الدار قد صنعت لهذا الهدف . وكان على باب درب منها رجل ضرير فإذا مر به إنسان يسأله أن يقوده خطوات إلى باب الدرب ، فيفعل ذلك ، فإذا دخل الدرب أخذ وقتل .

وعندما توصلت جماهير أصفهان إلى معاقلم هذه ، تجردوا للانتقام منهم بقيادة أبى القاسم مسعود بن محمد الخجندى الفقيه الشافعى ، فقام بتنظيم ثورة الجماهير ضدهم ، وجمع الأسلحة ، وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران ، وأمر الجماهير بأن يأتوا بأعضاء الحركة أفواجاً ومنفردين ، ثم يلقونهم فى النار ، فاستطاعوا أن يقتلوا منهم عدداً كبيراً .

السبب الحقيقى وراء ازدياد نشاط الحركة :

وكان السبب الأساسى الذى أعطى الفرصة القوية لحركة الحشاشين أن توسع نشاطها — كما سبق أن أشرنا — هو انشغال بركيارق منذ توليه السلطنة بالانقسام الواقع بينه وبين أخوته ، لاسيما أن بركيارق قد سمح للحركة بممارسة نشاطها ؛ إذ كانت تقوم باغتيال كبار الشخصيات المنتمية للجهة المعارضة له بزعامة أخيه محمد ، وتضم قائمة الاغتيالات التى قاموا بها آنئذ شحنة أصفهان « سرمز » و « أرغش » و « كمش » النظاميين وغيرهم . وتوجد بعض القرائن على أنه كانت توجد اتصالات سرية بين بركيارق والحشاشين ، حتى اتهمه أعداؤه بالميل إليهم والتعاون معهم .

وبعد انتصار بركيارق على أخيه محمد سنة (٤٩٣ هـ = ١١٠٠ م) ، وقتل وزيره مؤيد الملك ، زاد نشاط الحركة ، حتى أن أعضاءها كانوا يدعون الجنود

إلى مذهبهم ، وبالفعل استطاعوا اكتساب عدد كبير منهم إلى صفوفهم ، فزادوا قوة إلى قوتهم وامتثلوا ثقة بأنفسهم ، وكانوا يهددون مخالفينهم بالاعتقال ، فكان يخشاهم الناس خشية عظيمة ، حتى لم يكن يتجاسر أحد من الجماهير بل والأمراء على الخروج من منزله حاسراً ، بل كان يلبس تحت ثيابه درعاً ، حتى أن الوزير الأعز أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه ، بل لقد استأذن كبار رجال الدولة وخواص بركيارق منه أن يسمح لهم بالدخول عليه مسلحين خوفاً من هجمات أعضاء الحركة ؛ فأجابهم بركيارق إلى ذلك .

انتكاسة مفاجئة لحركة الحشاشين :

وقد أدى هذا النفوذ المتزايد لحركة الحشاشين إلى شعور بركيارق بالخطر يقترب من سلطته ، سواء منها أو من غيرها ، أما منها فالأمر غير خاف ، وأما من غيرها فقد ازداد السخط على بركيارق من التيارات المعارضة لحركة الحشاشين لما كان يديه من تسامح تجاه نشاط أعضائها .

فعقد بركيارق اتفاقاً مع سنجر حاكم خراسان ، وغيره من حكام الولايات الإيرانية بما فيهم مناوئو السلطان محمد ، على ضرورة القضاء على حركة الحشاشين في جميع أرجاء إيران . فأمر بركيارق بقتل جميع أعضاء الحركة ، وقاد حملة القتل بنفسه ، وقد كان يتعرض للقتل كل من تحوم حوله الشبهات ، حتى قتل كثير من الأبرياء الذين سعى بهم أعداؤهم ظلماً وعدواناً ، وكان ممن اتهم باعتناق العقيدة الإسماعيلية وهي العقيدة الرسمية لحركة الحشاشين : الفقيه الشهير الكيا الهراس الذي كان يدرس بالمدرسة النظامية ، وعندما نقل هذا الاتهام إلى السلطان محمد أمر بالقبض عليه ، ولكن أرسل المستظهر بالله من يستخلصه ، فشهد الرسول له بصحة الاعتقاد وعلو الدرجة في العلم ، فأطلق سراحه .

وقد شملت عملية القضاء على معتنقي العقيدة الإسماعيلية رجال السلطان نفسه ، ومن أمر بقتله منهم أحد رجاله البارزين أبي إبراهيم الأسد اباذى ، وقد كان بركيارق أرسله إلى بغداد ليأخذ مال مؤيد الملك ، فأرسل بركيارق خلفه

أمراً بالقبض عليه وقتله ، وعندما قبضوا عليه وأرادوا قتله قال لهم : « هبوا أنكم قتلتموني أتقدرون على قتل من بالقلاع والمدن ؟ » ، فقتلوه .

ومن شملهم القتل أيضاً الأمير محمد بن دشمنزيار بن علاء الدولة أبى جعفر بن كاكويه صاحب يزد ، وقد كان استطاع الهرب فى بداية حملة القتل فसार يوماً وليلة ، وعندما طلع اليوم الثانى ضل الطريق دون أن يشعر فلم يدر إلا وهو فى وسط عسكر بركيارق ، فقتلوه .

ومن الأمراء الذين نشطوا للقضاء على أعضاء الحركة الأمير جاولى سقاووا الذى كان يحكم المناطق التى بين رامهرمز وأرجان . وكان قد ضاق ذرعاً بعمليات الاغتيال وأخذ الأموال التى كان يقوم بها الحشاشون المستقرون فى القلاع الموجودة بخوزستان وفارس . فدبر لهم تدبيراً خفياً ؛ حيث اتفق مع جماعة من أصحابه أن يتظاهروا بالخروج عن طاعته ، فاختلفوا خلافاً بينهم وبينه وأظهروا الشغب عليه ، ثم فارقوه وقصدوا قلاع الحشاشين ، وتظاهروا باعتناق العقيدة الإسماعيلية ، وأقاموا معهم فترة حتى وثقوا بهم ، ثم تظاهر جاولى بأن أمراء بنى برسق عازمون على خلعه والسيطرة على ولايته ، وأنه غير قادر على مقاومتهم ، ولذلك فإنه عازم على ترك بلاده والتوجه إلى همدان ، فلما أظهر ذلك وتوجه إلى همدان ، اقترح أصحابه المدسوسون على الحشاشين أن يخرجوا إلى طريقه ويأخذوه وما معه من أموال ، فوافقوا فساروا إليه فى ثلاثمائة من كبار رجالهم وزعمائهم ، فلما التقوا صار من معهم من أصحاب جاولى عليهم ، وأخذوا يقتلونهم ، حتى لم يفلت منهم سوى ثلاثة رجال صعدوا إلى الجبل هارين ، وغنم جاولى وأصحابه ما معهم من دواب وسلاح وغير ذلك .

وقد أرسل كذلك السلطان سنجر حاكم خراسان حملة بقيادة الأمير بزغش أكبر أمرائه إلى قهستان وطبس ، فاستطاع تدمير المنطقة والاستيلاء على خيراتها ، ثم ضرب الحصار على مركز الحشاشين الأساسى بالمنطقة ، قلعة طبس ، وضيق عليها الخناق وصدع الكثير من أسوارها ، ولم يبق له إلا

دخولها ، ولكنهم تمكنوا من رشوته برشاو كبيرة ، فرفع الحصار عنهم وعاد من حيث جاء . وما إن رحل عنهم الأمير بجيوشه حتى بذلوا قصارى جهدهم في إصلاح القلعة وتحصينها وتجهيزها بالعدة والعتاد .

وما زالت الاغتيالات مستمرة :

ولكن رغم هذه الانتكاسة التي تعرض لها الحشاشون في أنحاء إيران ، إلا أن معقلهم الأساسي في الشمال : قلعة ألموت ، لم يستطع أحد أن يمسها بسوء في هذه الفترة . ومنها استطاع الحسن الصباح أن يواصل نشاطه فكان يرسل الدعاة إلى مختلف المناطق الإيرانية ، بل أرسل مبعوثيه إلى سوريا ، وكان يكلف فدائييه باغتيال الشخصيات التي كانت تجاهر بمعارضة الحركة . ومن استطاعوا اغتياله في الفترة من ٤٩٤ حتى ٤٩٦ هـ الوزير الأعز أبو المحاسن عبد الجليل ابن محمد الدهستاني وزير السلطان بركيارق على أصفهان ، وقتلوا أيضاً أبا المظفر بن الخجندی بالري وكان واعظاً مجيداً وصديقاً لنظام الملك ، وكان الأخير يتردد إليه ويزوره . كما اغتالوا والي يهق ، ومفتي أصفهان ، وزعيم فرقة الكرامية بنيسابور .

حملة جديدة على قهستان وطبس :

وفي سنة (٤٩٧ هـ = ١١٠٤ م) قاد الأمير بزغش مرة أخرى حملة جديدة إلى قهستان ، وقد التحق بهذه الحملة كثير من المتطوعين بالإضافة إلى الجنود النظاميين ، وتمكن بزغش من هزيمة الحشاشين بتلك المناطق ، واستطاع تدمير قلاعهم ، واستولى على ثرواتهم ، وسبى كثيراً من نسائهم . وقد استطاعوا عقد معاهدة أمان مع سنجر الذي استجاب لهم بناء على مشاورة أصحابه ، على أساس أن لا يحصنوا قلاعهم مرة أخرى ولا يشترون سلاحاً ولا يدعون أحداً إلى عقائدهم . وقد تعرض سنجر لانتقاد عنيف لعقده هذه المعاهدة معهم ؛ حيث كانت تتطلع الجماهير إلى إبادةهم تماماً .

الحركة تعاود نشاطها على نطاق واسع :

وبهذا ظن السلاجقة أنهم قد تمكنوا من ردع حركة الحشاشين ، ولكن في الحقيقة لم يكن هذا الردع ردعاً نهائياً ، وإنما كان مجرد احتواء لنفوذها ونشاطها ، بعض الوقت ؛ حيث عاود أعضاء الحركة تقوية أنفسهم مرة أخرى وممارسة نشاطهم على نطاق واسع ؛ إذ كانوا يقومون بغارات مستمرة (سنة ٤٩٨ هـ) على عديد من المدن الإيرانية ، ولاسيما خراسان ؛ فكانوا يغIRON على أهلها ويقتلون من استطاعوا منهم ويستولون على أموالهم ويسبون نسائهم . وقد بلغ الأمر ذروته عندما أغاروا على تجمع بقرب الرى لقوافل الحج الآتية مما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد ، فهجموا عليهم وقتلواهم تفتيلاً واستولوا على دوابهم وأموالهم ولم يتركوا وراءهم شيئاً .

وفي نفس هذا العام اغتالوا أبا جعفر بن المشاط وهو فقيه شافعى كان تلميذاً للخجندی الذى سبق لهم اغتياله ، حيث جاءه أحد الفدائيين وهو يدرس بالرى ويعظ الناس ، فقتله عند نزوله من كرسیه .

وقد تمكن الحشاشون في بداية سنة (٥٠٠ هـ = ١١٠٧ م) من اغتيال فخر الملك أبى المظفر على بن نظام الملك ، وكان أكبر أولاده ، وقد تولى الوزارة سنة ٤٨٨ هـ عند السلطان برکیارق ، وعندما ترك وزارته توجه إلى نيسابور ، وأقام عند الملك سنجر بن ملكشاه ، فولاه الوزارة . ويذكر المؤرخون أنه أصبح يوم عاشوراء من هذا العام ضائماً ، وقال لأصحابه : « رأيت الليلة في المنام الحسين بن على عليه السلام وهو يقول : عَجِّل إلينا وليكن إفطارك عندنا . وقد اشتغل فكرى به ، ولا محيد عن قضاء الله وقدره » . فقال له أصحابه : يحبك الله ، والصواب أن لا تخرج اليوم والليلة من دارك . فأقام يوم يصلى ، ويقرأ القرآن ، وتصدق بشيء كثير . فلما حان وقت العصر خرج من داره قاصداً دار النساء ، فسمع صياح متظلم شديد الحرارة يقول : « ذهب المسلمون فلم يبق من يكشف مظلمة ولا يأخذ بيد ملهوف » ، فأحضره فخر

الملك عنده رحمة له ، فقال له : « ما حالك ؟ » ، فدفع إليه رقعة ، فبينما فخر الملك يتأملها إذ ضربه بسكين فقتله .

وقد علا في هذه الفترة كعب الجناح الأملوق بأصفهان بقيادة أحمد بن عهد الملك بن عطاش ، إذ كانوا يسيطرون على قلعة شاه ديز — التي سبق الإشارة إليها — فكانوا يقومون بعملياتهم المشهورين بها من قتل واستيلاء على أموال ، وغير ذلك ، وقد بلغوا من القوة مبلغاً جعلهم يفرضون الضرائب على ممتلكات الأهالي في جميع القرى المحيطة بهم ، فكان الناس يؤدون إليهم هذه الضرائب خوفاً من بطشهم . وكان السبب الذي شغل السلطات السلجوقية عنهم آنئذ — كما سبق الإشارة غير مرة — هو الصراع والصدام المستمرين بين السلطان بركيارق والسلطان محمد .

هجوم السلطان محمد على قلعة شاه ديز :

وبعد موت بركيارق وهو في سن مبكرة خلت الساحة أمام السلطان محمد من كل خطر إلا الخطر الإسماعيلي المتمثل في حركة الحشاشين ؛ فقرر القيام بحملة عسكرية للقضاء عليهم أو على الأقل لاحتوائهم والحد من خطرهم . فأول معاقلهم التي رأى البداية بمهاجمتها قلعة شاه ديز القريبة من أصفهان مقر ملكه ، فعزم على الخروج إليها في أول رجب ٥٠٠ هـ ، ولكن تأخرت الحملة بعض الوقت نتيجة لبعض الخدع التي قام بها مؤيدو الحركة المنشئون داخل جيشه ، فزعموا أن قلع أرسلان بن سليمان قد أتى بغداد واستولى عليها ، واختلقوا بعض المراسلات لتأكيد هذا الخبر . كما زعموا حدوث بعض الاضطرابات في خراسان . فأجل السلطان محمد خروج الحملة حتى يتبين حقيقة الأمر ، فلما أدرك أنه لا يعدو أن يكون مناورة من أجل تشييطه عن الخروج إلى شاه ديز ، خرج بجيشه في السادس من شهر شعبان ، فصعد جبلاً يقابل القلعة من غربها ، وقد لحق به جمع كبير من المتطوعين من أهل أصفهان ، فحاصر جبل القلعة ، ونسق بين أمرائه بحيث كان يقاتلهم كل يوم أمير ؛ فطال الحصار وشحت المؤن داخل القلعة حتى ضاق الأمر بأهلها وبلغت القلوب الحناجر ، هنا قام أحمد بن عبد الملك بن عطاش بمناورة ذكية ؛

إذ استطاع أن يشغل خصومه بخلاف عقائدي لفترة من الوقت تمكن خلالها من التقاط أنفاسه ، فأرسل إلى السلطان وفقهائه رسالة نصها : « ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون بالله ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق ، وإنما يخالفون في الإمام — هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم ، وأن يقبل طاعتهم ، ويحرسهم من كل أذى ؟ » ، فاستشار السلطان فقهاء الذين تباينت فتاويهم ، ولكن كان أكثرهم على جواز ذلك ، واتخذت فئة قليلة منهم موقف الرفض ، بينما توقف فريق ثالث ؛ فجمعهم السلطان للتناظر في المسألة ، وكان فيهم فقيه من فقهاء الشافعية يبدو أنه كان رجلاً داهية وهو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن السمنجاني ، فقال : « يجب قتالهم ، ولا يجوز إقرارهم بمكانهم ، ولا ينفعهم التلطف بالشهادتين ؛ فإنهم يقال لهم : أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع ، أو حظر عليكم ما أباحه الشرع ، أتقبلون أمره ؟ فإنهم يقولون : نعم . وحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع » .

ولما لم تنته المناظرة إلى موقف محدد إزاءهم ، استمر الحصار ، ونجح أحمد ابن عطاش مرة أخرى في إطالة أمد المناقشات ، حيث طلب من السلطان أن يرسل إليه في القلعة مجموعة من الفقهاء حددهم بأسمائهم للتناظر ، وكان من هؤلاء الفقهاء القاضي أبو العلاء صاعد بن يحيى شيخ الحنفية بأصفهان وقاضيا ، وبالفعل صعدوا إلى القلعة وتناظروا معهم ، ولكن المناظرة لم تنته إلى شيء وعاد الفقهاء من حيث جاءوا ؛ فاستمر الحصار . وحاول أحمد بن عطاش أن يخوض جولة ثالثة من المفاوضات مع السلطان ، فاقترح تسليم قلعة شاه ديز على أن يأخذوا بدلاً منها قلعة خالنجان التي تبعد سبعة فراسخ من أصفهان ، وعلل أحمد طلبه هذا بقوله : « إنا نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة فلا بد من مكان نحتمي به منهم » ، فاستشار السلطان رجاله فأشاروا عليه بالموافقة ، وقد اشترط ابن عطاش أن لا يستمع السلطان إلى رأى أعدائهم ، وإن قال أحد عنهم شيئاً سلمه إليهم ، وأن من أتاه منهم رده إليهم . وأن يمدهم بالغذاء يوماً بيوم ، فوافق السلطان على كل ذلك .

ولكن ابن عطاش لم يكن يقصد بكل هذه المفاوضات إلا أن يفتح ثغرة يستطيع معها أن يرسل رجاله لكي يشتروا كل ما تحتاج القلعة إليه من طعام ومؤن حتى يمكنهم أن يواصلوا الصمود أمام الحصار أكبر فترة ممكنة. عسى أن تأتيهم الإمدادات من باقى أجنحة الحركة فى إيران أو يحدث من الأمور ما يجعل السلطان يتراجع عن الحصار . وأثناء هذا كلف ابن عطاش أحد فدائييه بقتل أكبر أمراء السلطان عداوة وقتالاً لهم ، فاستطاع الفدائى أن يطعنه ، ولكنه جرح فقط ونجا من موت محقق .

بهذه العملية الفدائية انتهت هذه المرحلة من المفاوضات ، حيث جدد السلطان حصارهم وتضييق الخناق عليهم ، هنا لم يجد ابن عطاش غير المفاوضة على التسليم ، فطلب من السلطان أن تذهب مجموعة منهم فى حماية السلطان إلى قلعة الناظر وهى إحدى قلاعهم ، وتذهب مجموعة أخرى إلى قلعة طبس وهى من قلاعهم أيضاً ، على أن تظل الطائفة المتبقية فى جناح من أجنحة القلعة حتى يصل إليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم إلى قلعتى الناظر وطبس وهنا يرسل السلطان مع الطائفة المتبقية من يحميها حتى تصل قلعة الموت المركز الرئيسى للحركة والذى إليه نسبتها . فوافق السلطان على هذا الاقتراح ، وبالفعل تم التنفيذ ، فوصلت المجموعتان إلى حيث أرادتا ، ووصل خبر ذلك إلى ابن عطاش ، ولم يبق إلا أن ينفذ هو المرحلة الأخيرة من الاتفاق ، ولكنه لم يفعل ؛ وكان قد قام بتحصين الجناح الذى يقطنه هو ورجاله البالغ عددهم ثمانين رجلاً ، وأعد العدة للمقاومة والصمود . فتوجهت إليهم حملة كبيرة للهجوم عليهم فى ثانى ذى القعدة ، وتم الهجوم ولكنهم استبسلوا وصمدوا صموداً عظيماً . بيد أن أحد زعمائهم كان قد انحاز إلى السلطان فخانهم ودل على موطن الضعف فيهم ، حيث أرشدهم إلى سور لم يكن يخطر على بال قواد الهجوم أن يهجموا من جهته ، وقال لهم : « اصعدوا من هنا » ، فقالوا له : « إنهم قد ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال » ، فقال : « إن الذى ترون أسلحة وكزاعنات قد جعلوها كهيئة الرجال لقلتهم عندهم » ، فهجموا من هذا الموضع ، واستطاعوا السيطرة على الموقع ، وقتلوا معظمهم ، أما القلة التى نجت فقد اختلطت مع من دخل ثم خرجوا معهم . وقد ألفت زوجة ابن

عطاش بنفسها من أعلى القلعة وهي متحلية بجواهرها الثمينة فماتت على الفور . أما ابن عطاش فقد أخذه أسيراً ، وسجنوه لمدة أسبوع ، ثم شهروا به في أرجاء المدينة ، وسلخوا جلده ، وحشوه تبناً ، كما قتلوا ابنه أيضاً وحملت رأسا الاثنين إلى بغداد .

هجوم واسع النطاق على معظم قلاع الحركة :

ولم يتوقف الحملات السلجوقية عند هذا الحد ، بل شملت معظم قلاع الحركة في شرق وغرب وشمال إيران ، فتمكن سنجر من احتواء جناح الحركة بقرهستان ، وسقطت قلعة أرجان ومعظم القلاع المتمركزة بين فارس وخوزستان .

كذلك فقد عمل السلطان محمد على تطهير جيشه ودواوينه من الذين تحوم حولهم شبه الانتماء إلى الحركة ، حتي أنه قتل في نفس العام (٥٠٠ هـ) أربعة من كبار الشخصيات العامة ؛ حيث اتهمهم باعتناق العقيدة الإسماعيلية .

فشل الهجوم على قلعة ألموت :

أما الجهد الأكبر فقد ادخره السلطان محمد لمهاجمة المعقل الأساسي ونقطة الانطلاق الأولى للحركة ، أعنى قلعة ألموت التي يستقر فيها مؤسس الحركة وزعيمها حسن بن الصباح . ففي عام ٥٠٣ هـ وفي شهر المحرم وجه إليها السلطان حملة بقيادة وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك ، وأظن أنه ليس بخاف على القاريء حجم الكراهية والرغبة في الانتقام التي كانت تملأ قلب الوزير إزاء حركة ألموت ، فقد سقط أبوه نظام الملك وأخوه فيخر الملك ضحايا لخناجر فدائي الحركة . فشن الوزير على القلعة وما يجاورها من مناطق تابعة لها هجوماً ضارياً ، ودمر المحاصيل ، ومنع عنهم الإمدادات ، حتى ضاق الأمر بهم في القلاع حتي كانوا يعيشون على أكل الحشائش ، ولم تستطع النساء والأطفال الصمود إزاء هذا الحصار فقام الحسن بنقلهم إلى مناطق أخرى ، كما نقل زوجته وبناته إلى قلعة كردكوه ذات الموقع الاستراتيجي الممتاز .

ولكن عندما أتى الشتاء بجليده وزمهريره لم تستطع قوات الوزير أحمد البقاء ، فعادت دون أن تحقق غرضها بشكل نهائى .

انتقام حسن الصباح من قائد الهجوم :

وبطبيعة الحال لم يكن الحسن بن الصباح ليقف مكتوف الأيدى تجاه ما يحدث لأنصار دعوته وقلاعه ، فأمر أحد فدائييه الأكفاء باغتيال الوزير ، وبالفعل قام الفدائى فى شهر شعبان من نفس العام (٥٠٣ هـ) بطعن الوزير بالخنجر أثناء توجهه إلى الجامع ، فجرح الوزير فى رقبته ، وظل فترة طريح الفداش ، ثم قام سالماً ، وقد أخذ الفدائى الذى طعنه فسقاه خمرأ حتى سكر ، ثم سأله عن رفقاته ، فدل على مجموعة منهم بمسجد المأمونية ، فقبضوا عليهم وقتلوه .

اغتيال قاضى أصفهان ونيسابور :

وقبل ذلك بقليل كان قد استطاع أحد الفدائيين قتل الخصم اللدود للحركة عبيد الله الخطيب قاضى أصفهان رغم أنه كان يرتدى درعاً تحت ثيابه ، وكان له حارس خاص ، وكان حذراً أشد الحذر فى كل تحركاته ، بيد أن الفدائى استطاع أن يطعنه طعنة قاتلة أثناء أدائه لصلاة الجمعة بجامع همدان . كما تمكن فدائى آخر فى شهر رمضان من اغتيال قاضى نيسابور . وتضمنت قائمة الاغتيال فى هذه الفترة عدداً آخر من كبار الشخصيات المدنية والدينية .

محاولة إسقاط قلعة ألموت وغيرها :

وقد عاود السلطان إرسال حملاته إلى قلعة ألموت وغيرها من قلاع الحشاشين ، وعمل على إثارة أهل المناطق المجاورة ضد الحشاشين ، وحاول إقناعهم بالاشتراك فى الهجوم على القلعة ، مما أوقع هؤلاء فى حيرة لا مخرج منها ، فقد كانوا بين نارين ، يخشون بطش السلاجقة فى نفس الوقت الذى يرتعون فيه من مؤامرات الحشاشين .

وقد كانت ترجع كل حملة من الحملات التى يرسلها السلطان دون أن

تستطيع الاستيلاء على القلاع ، وكان كل ما يمكنها فعله هو تدمير المحاصيل واستنزاف ما يمكن استنزافه من عدة وعتاد .

فلما وجد السلطان محمد مناعة قلاع الحشاشين ، قرر إرسال جيش حوالى سنة ٥٠٥ هـ بقيادة الأمير أنوشتكين شيركير أمير آية وسادة وغيرهما ، وأمره بمحاصرة القلاع بشكل دائم ، فاستطاع الاستيلاء على عدة قلاع ، منها قلعة كلام فى جمادى الأولى فى نفس العام ٥٠٥ هـ ، وكان زعيمها يعرف بعلى بن موسى ، فأعطاه أنوشتكين الأمان هو ورجاله وسمح لهم بالتوجه إلى الموت . ثم استولى الأمير على قلعة بيرة ، وهى تبعد عن قزوین حوالى سبعة فراسخ ، وقد أعطى الأمير الأمان لسكانها أيضاً وسمح لهم بالتوجه إلى الموت .

وفى سنة ٥١١ هـ توجه أنوشتكين بجيشه إلى المعقل المركزى الموت ، وقد أمده السلطان بعدد من الأمراء ، فقام ببناء مساكن له ولجنوده فى المناطق المجاورة للقلعة ، وناوب بين الأمراء ، فكان يجعل كل مجموعة تقيم فترة ثم ترحل للاستجمام وتعود ، أما هو فكان ملازماً للحصار بنفسه طوال الوقت . وكان السلطان محمد يمدد باستمرار بما يحتاج إليه من جنود وتموين وأسلحة .

واستمر هذا الحصار فترة طويلة ، حتى ضاق الأمر على الحسن الصباح وأتباعه ، وكاد ينعدم عندهم الطعام والشراب ، وكان الحسن يوزع عليهم الطعام توزيعاً مقنناً حتى يضمن الصمود أكبر مدة ممكنة ، فكان يعطى لكل فرد رغيفاً وثلاث جوزات فى اليوم ، فلما اشتد بهم الأمر كانوا يأكلون الحشيش وأنزلوا نساءهم وأبناءهم ليطلبوا الأمان والسماح لهم ولرجالهم بالخروج ، فلم يستجب أنوشتكين لمطلبهم وأعادهم إلى القلعة بهدف أن يموت الجميع جوعاً .

وكان سير الأحداث يدل على دنو استيلائهم على القلعة لولا أن خبر وفاة السلطان محمد وصل إليهم فاستبشر الحسن وأتباعه ، وقرر الأمراء المحاصرون العودة وفك الحصار ، ولكن أنوشتكين كان أبعد نظراً فقال : « إن رحلنا عنهم وشاع الأمر نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددناه من الأقوات والذخائر ،

والرأى أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها ، وإن لم يكن المقام فلا بد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفذ منا ثقلنا وما أعددناه ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو » ، فلما استمع الأمراء إلى رأيه تبين لهم صوابه ، فوافقوا عليه ، ولكن عندما أتى المساء نقضوا ما اتفقوا عليه ، فرحلوا دون استشارة أنوشتكين ، ولم يبق إلا هو وجنوده ، فنزل إليه الحسن وأتباعه فهاجموه ، فصدّهم حتى أمّن جنوده ورحل عن المنطقة ، فاستولى الأملوتيون على ما خلفه الجيش وراءه من مؤن وذخائر .

وتشير بعض القرائن إلى أن هناك دوراً خفياً قام به الوزير قوام الدين نصير ابن علي الدرجازيني في انسحاب جيش أنوشتكين ، فقد كان هذا الرجل يعتنق سراً العقيدة الإسماعيلية ، واستطاع أن يؤثر على السلطان محمود خليفة السلطان محمد ، كما سعى بأنوشتكين عنده ، فسجنه ثم أمر بإعدامه .

الحسن يعيد تنظيم صفوف الحركة :

وبعد هذه الانتكاسات المتعاقبة التي تعرضت لها حركة الحشاشين ، أمكنها أن تلتقط أنفاسها بعد وفاة السلطان محمد ؛ حيث اشتعلت المنافسات وازدادت حدة بين أمراء وحكام السلاجقة ، مما أدى إلى انشغالهم بأنفسهم بعض الوقت الأمر الذي أتاح للحسن الصباح أن يعيد تنظيم صفوفه ، لا في ألمات فقط وإنما في سائر قلاع الحركة في قهستان وطبس وكردكوه وأرجان وغيرها . وأمكن للحسن أن يواصل عملياته التي اشتهر بها في اغتيال الشخصيات المناوئة للحركة على يد فدائييه المدربين .

استمالة السلطان سنجر :

وقد نجح الحسن في استمالة السلطان سنجر الذي كان دائم التعقب للإسماعيليين ، فحاول أولاً أن يستميله بإرسال الرسائل والسفراء ، فلم يستجب ، لأنه كان يشك في صدق رغبة حسن الصباح في طلب السلام ، ولذلك لجأ الحسن إلى عملية بالغة الدهاء اقتنع معها السلطان بمجدية الحسن في

إرساء جسور السلام بينهما ، حيث كلف الحسن أحد غلمان السلطان بعد أن أعطاه مبلغاً كبيراً من المال ، أن يغمد خنجراً في وسادة السلطان ، وبالفعل نفذ الغلام ذلك أثناء نوم السلطان وهو سكران ، ووضع بجانب الخنجر رسالة من الحسن الصباح إلى السلطان نصها كما جاء في كتاب (البستان) للإسماعيلي : « أيها السلطان المغرور ، لا تفكر إذا كان الحسن بن الصباح بعيداً عنك يعيش فوق صخرة ألمات ، غير قادر على الوصول إليك ، ثق أن من تمكن من أن يضع هذا الخنجر في وسادتك ، لقادر على غمسه في فؤادك ، إلا أنني رأيت الرجل الطيب الصالح متجسداً فيك ، فأحببت أن أستبقى عليك لفرصة أخرى ؛ فقد أعذر من أندر ، والسلام على من اتبع الهدى ، وخشى عواقب الردى » .

بعد أن وجد السلطان الحال هكذا وقرأ الرسالة ، تأكدت لديه رغبة الحسن الحقيقية في السلام ، فأوقف حملاته ، وكف عن إيذائهم ؛ مما أعطاهم فرصة ممتازة لتدعيم قلاعهم والأقاليم التي يسيطرون عليها ، وقد ركزوا جل اهتمامهم على هذا الهدف ، وخففوا من عملياتهم الفدائية والتخريبية ضد مخالفهم . ولذا فقد عاشوا في هدوء نسبي في هذه الفترة من الحكم السلجوقي ، حتى استطاعوا تكوين إمارات مستقلة .

مدى مسؤولية الحركة عن مقتل أمير الجيوش بمصر :

وفي سنة (٥١٥ هـ = ١١٢١ م) حدثت بعض الأحداث الخارجية التي كان لها تأثير على حركة الحشاشين في إيران ، إذ قُتل في الثالث والعشرين من رمضان أمير الجيوش بمصر الأفضل بن بدر الجمالي ، وكان مشهوراً بالعدل بين الناس والتسامح إزاء المخالفين في العقائد ، حتى أنه كان يأذن في إجراء المناظرات العقائدية والحوارات الفكرية ، مما شجع كثيراً من أهل البلاد الأخرى أن يأتوا إلى مصر .

وتختلف المصادر التاريخية في تحديد المسؤول عن اغتياله ، فمنها من يشير إلى فدائيي ألمات وعملائهم ، ومنها من يشير إلى الخليفة الفاطمي بمصر الأمر

بأحكام الله ، وهذه الرواية الأخيرة يؤكدتها جمهرة المؤرخين ؛ لأنه كان هناك صدام بينهما ؛ إذ كان أمير الجيوش الأفضل صاحب نفوذ كبير وشخصية قوية حتى أنه كان يفرض وصايته على الخليفة الأمر بأحكام الله ، مما كان ينغص عليه حياته ؛ فقرر التخلص منه بمساعدة أبي عبد الله بن البطائحي كاتم أسرار الأفضل ، الذي تولى بعده الأمر ولقب بـ « المأمون » .

وقد ابتهج الحشاشون الممثلون لجناح الإسماعيلية النزارية ابتهاجاً كبيراً لمقتل الأفضل ، كما لم يستطع الخليفة الفاطمي الأمر الممثل لجناح الإسماعيلية المستعلية أن يخفى سروره تجاه الحدث . وحاول الخليفة ووزيره الجديد المأمون أن ينتهزا الفرصة لاستمالة حركة الحشاشين إليهما وإقناعها بالعدول عن تأييد إمامة نزار ولكن جاءت الأخبار بأن زعامة ألموت قد عقدت العزم على اغتيال الأمر والمأمون ، وأن الحركة شرعت في الإعداد للمؤامرة والعمل على تنفيذها . فاتخذ المأمون إجراءات أمن داخلية وخارجية لم تشهد البلاد لها مثيل ، وبث جواسيسه في كل مكان ، حتى قيل أنه لا يخفى عليه شيء مما يجري في الدولة .

حرق جامع أصفهان الشهير :

هنا نعود مرة أخرى إلى إيران ، حيث عاود الحسن بن الصباح تكليف فدائييه بعمليات الاغتيال والتخريب للانتقام من معارضيهِ وإرهاب من يجرؤ على مهاجمته . ففي سنة (٥١٥ هـ = ١١٢١ م) قامت مجموعة من الفدائيين بحرق جامع أصفهان البالغ العظمة والذي كان مركزاً للتيار السني .

اغتيال الوزير السميرمي :

وفي سنة (٥١٦ هـ = ١١٢٢ م) قامت مجموعة أخرى من الفدائيين باغتيال الوزير الكمال أبي طالب السميرمي وزير السلطان محمود . وكان ذلك عندما خرج مع السلطان إلى همدان ، وفي أثناء سيره في موكب عظيم ، وعندما أتى الموكب عند طريق ضيق فيه حظائر من الشوك ، اضطر مرافقوه للتقدم بسبب ضيق الموضع ، فوثب عليه فدائي فضربه بسكين فوقعت في البغلة التي يركبها ،

وهرب الفدائي فتبعه الحراس ، فخلا المكان فظهر فدائي آخر فطعنه بسكين في خاصرته ، ثم جذبه عن البغلة ، وطعنه عدة طعنات . وعندما عاد رجال الوزير هاجمهم فدائيان فاستطاعا ردهم ، ثم عادوا وقد وجدوا الوزير مذبوحاً . وتمكنت السلطات من القبض على قاتليه الذين قُتلوا بدورهم .

نهاية المطاف :

كان الحسن الصباح أثناء تلك الفترة ، وعلى مدى خمسة وثلاثين عاماً ، ممتنعاً في قلعة « ألموت » معقله الحصين ومركز سلطانه ، وقد استطاع منها أن يدير ببراعة دفة دولة صغيرة منشقة على الحكم السني ، وهي دولة من نوع خاص ، يتمتع فيها زعيمها قبل كل شيء بصفة القائد الروحي ، الذي يستند في سلطانه إلى قوة خفية جبارة قوامها جيش من الدعاة المحنكين والفدائيين المتعصبين ، الذي يتشحون بأثواب من الزهد والورع ، ويهدفون إلى غزو الأذهان والعقول ، ويعتمدون على سلاح المؤامرة والغيلة ، ويفتحون الطرق أمام تعاليمهم الباطنية بالخناجر المستورة .

وقد عاش الحسن في ألموت في عزلة تامة ، ويذكر بعض المؤرخين أنه لم يخرج منها طيلة حكمه سوى مرتين اثنتين . وكان يقضي وقته في التفكير والتأمل والقراءة ، وتدوين ما انتهى إليه فكره في مصنفات عديدة تنظر وتدعم العقيدة الإسماعيلية ، أو ترد وتفنّد آراء الفرق المخالفة له .

وللأسف الشديد كان مصير هذه المؤلفات الدمار عندما اقتحم التتار القلعة فيما بعد . ولكن كان للشهرستاني عالم الأديان والفلسفات القدير ، والذي كان معاصراً للحسن الصباح منذ صعوده إلى ألموت حتى وفاته ، أقول كان له الفضل في حفظ خلاصة لتعاليمه المسماة بـ « الفصول الأربعة » ، كما حفظ لنا مؤرخو أهل السنة شذرات من سيرته الذاتية ، بالإضافة لما ظل محتفظاً به كمقتطفات في الكتب الإسماعيلية التي اقتبست بعضاً من آرائه . ولا شك أن تلك « الفصول الأربعة » التي ترجمها الشهرستاني عن الفارسية ، تدل على قدرة الحسن الجدلية وتعمقه المتميز في فهم أصول مذهبه .

ولقد كان الحسن يحرص جد الحرص على إحاطة زعامته الدينية بجميع مظاهر القداسة والتبجيل ؛ ولذا فإنه كان يبدو زاهداً قانعاً لا يعرف البذخ والترف ، ويشدد في تطبيق أحكام الشريعة ، أما الخمر والموسيقى وسائر ألوان الملاهي والملاذ المحرمة فكان لا يجرؤ أحد من أتباعه على اقتراف شيء منها نتيجة للحظر الشديد الذي فرضه الحسن على تلك الأشياء .

وكانت إدارة الحسن لشؤون حركته إدارة حازمة أشد ما يكون الحزم ، حتى أن أولاده كانوا لا يملكون إلا الأخذ بسيرته ، واقتداء طريقه ، والامتثال لأوامره .

وكان يضع مصلحة الحركة العامة فوق كل شيء وقبل أى شيء ، ولم يكن يتوانى لحظة في تنفيذ تعاليم الدستور التي كانت الحركة تعمل من خلاله ، وفي سبيل هذه التعاليم لم تحمل عاطفة الأبوة بينه وبين قتل ابنه الحسين لاثامه بالاشتراك في قتل أحد دعائه المقربين ؛ ذلك أن الحسين فكر حيناً من الزمن في أن يخلف أباه في مركزه ، وحاول أن يقنع أباه بأن يعلنه كخليفة له ، ولكن الحسن لم يتقبل هذا الأمر ، وزجر ابنه زجراً شديداً .

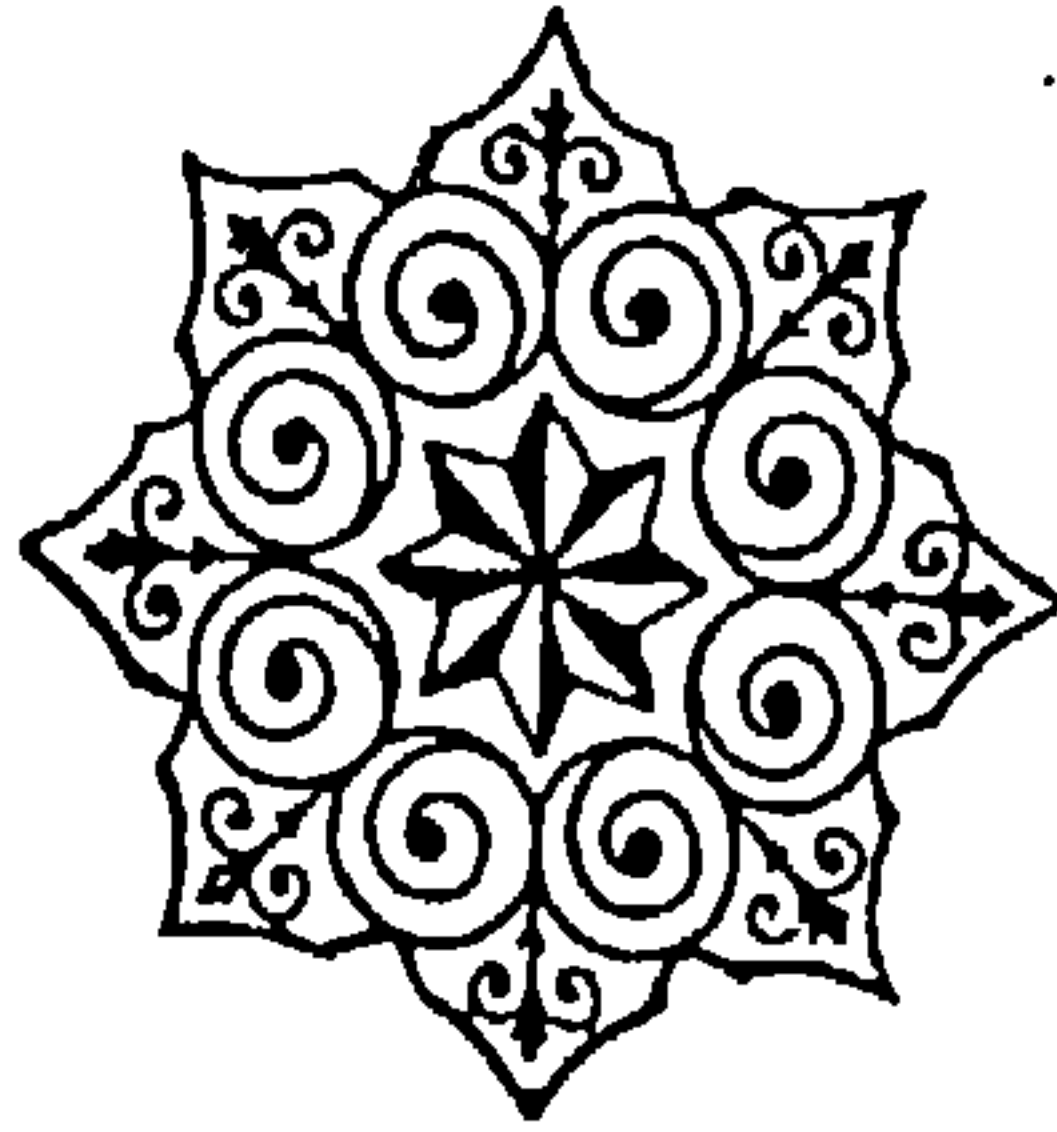
فاهتم ابنه لذلك اهتماماً بالغاً ، حتى أنه تحدث بالأمر إلى أحد الدعاة الذين كان يصادقهم ، وهو زيد الحسيني ، فأخذ هذا الأخير للدعوة له كخليفة بين الفدائيين ، وفي أثناء ذلك قدم أحد الدعاة الكبار إلى القلعة لكي يقدم تقريره السنوي إلى الحسن الصباح ، فقبل إن الحسين وزيداً تأمرا على هذا الداعية لخلافات كانت بينهما وبينه ، فقتلوه . وعندما أجرى الحسن تحقيقاً في الحادث فظهرت له المؤامرة ، فأعدم ابنه الحسين وزيداً في الحال . وكان لهذا العمل الحازم تأثير كبير على أتباعه ؛ حيث زاد إيمانهم بمصدقية الحسن الصباح ؛ فهاهو يعدم ابنه الأكبر في سبيل مبادئ الحركة .

ولم يكن قتله لابنه الأكبر هو الدليل الوحيد على حزمه في تطبيق مبادئ الحركة ؛ فقد أعدم ابنه الثاني ؛ لأنه وجدته يشرب الخمر . وطرده أحد دعائه من القلعة لأنه كان يتسلى بالعزف على الناي .

وفي الأيام الأخيرة لحسن الصباح كان معظم أكابر دعائه صرعى ؛ فقد كان القدر يأخذهم واحداً بعد الآخر ، مما يكن يزيد في عزله ؛ مما زاد في طبعه قسوة وصرامة فوق ما كان عليه من قبل .

وفي ربيع أول سنة ٥١٨ هـ مرض الحسن مرض الموت ، ولما أحس أنه على أعتاب الرحيل اختار لخلافته رجلاً من كبار دعائه كان يثق به ويقدره لإخلاصه في نشر الدعوة وتفانيه في الالتزام بتعاليمها فضلاً عما كان يتمتع به من علم بأصول المذهب الدقيقة تمتعاً يؤهله لخلافة الصباح ، وهذا الرجل كان « برزك آميد » مندوبه في قلعة « لاماسار » ، فاستدعاه وعهد إليه بخلافته في تسيير سياسات الحركة ، وحث جميع أتباعه على طاعته والامثال لأوامره .

وبالفعل صدق حدس الحسن في توقعه لموته ؛ ففي ٦ ربيع ثان سنة ٥١٨ هـ وافته المنية بعد حياة مديدة وعميقة ومؤثرة ، شق خلالها إلى الرئاسة والزعامة طريقاً وعراً محفوفاً بالمخاطر ، وتمكن فيها من إرساء دعائم حركة مثيرة ، مزودة بأسباب البقاء والاستمرارية ، موفرة القدرة على مغالبة الأحداث الجسام ، قادرة على بث الرعب والفرع في القلوب بما تلجأ إليه من أساليب دموية ووسائل مكيافيلية .



حركة الحشاشين في إيران بعد رحيل الحسن الصباح

- تتابع عمليات الاغتيال .
- اغتيال الخليفة العباسي المسترشد .
- اغتيال الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله .
- عهد الإمام محمد المهدي .
- القاهر بقوة الله .
- إعلان القيامة والتحرر من تعاليم الشريعة وسقوط الفرائض !
- الحشاشون في مواجهة التار .

حركة الحشاشين في إيران بعد رحيل الحسن الصباح

واكبت الفترة التي أسس فيها الحسن الصباح حركة الحشاشين « = الدعوة الجديدة » إمامة ثلاثة من أئمة الإسماعيلية ، هم : الإمام المستنصر ، والإمام نزار ، ثم الإمام علي الهادي .

وتذكر الروايات الإسماعيلية أن الإمام الأخير صلى صلاة الجنازة على الحسن الصباح عند دفنه في قلعة الموت الشهيرة .

وقد تولى منصب كبير الدعاة بعد الحسن الصباح الداعية « بزرگ آميد » الذي سار على نفس الخط الذي سار فيه خلفه الكبير الحسن الصباح .

. وبعد رحيل الحسن ، ظن السلطان سنجر أن قوة الحركة قد ضعفت بذهاب زعيمها ومؤسسها ، فنقض معاهدة السلام التي كان قد عقدها مع الحسن من قبل . وبايحاء من وزيره المختص أبي نصر أحمد بن الفضل ، أرسل السلطان حملات متعددة إلى مختلف مناطق تركز الحركة ، وأصدر أوامر صارمة إلى جنوده بقتل أفراد الحركة أينما ثقفوا ، ومصادرة أموالهم ، وسبي نسائهم . فوجه الجيش الأول إلى طريث بقهستان ، « فاستطاع جنوده إلحاق الهزيمة بأهلها ، حيث تمكنوا من قتل الكثير منهم ، وصادروا ما استطاعوا حمله من أموالهم .

أما الجيش الثاني فوجهه إلى بيهق إحدى ولايات إقليم نيسابور ، وكان للحشاشين قرية خاصة بهم في الولاية تدعى طرز ، ويرأسهم فيها الداعي

الحسن بن سمين ، فهجم الجنود على القرية وقتلوا كل من وجدوا بها ، ولكن استطاع رئيسهم الفرار وصعد إلى منارة المسجد ، ثم ألقى بنفسه منها ، فمات على الفور .

أما الجيش الثالث ، فقد وجهه إلى رودبار في الشمال ، حيث لم يحرز نجاحاً وعاد خاسئاً وهو حسير ، إذ انتصر الحشاشون عليه وغنموا منه الشيء الكثير .

ولم تحل هذه الحملات من استمرار نشاط الحركة الأملوتية بمختلف فروعها الإيرانية ، فقد تمكن مجموعة من الفدائيين في نفس العام ٥٢٠ هـ من قتل قسيم الدولة آقسنقر البرسقى صاحب الموصل في يوم الجمعة ثامن ذى القعدة وهو يصلى الجمعة بجامع الموصل . ويذكر المؤرخون أنه كان قد رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضها ، ونال منه الباقي ما أذاه ، فقص رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام ، فقال : « لا أترك الجمعة لشيء أبداً » ، فحاولوا منعه من صلاة الجمعة ، لكنه رفض وأصر على أداء الصلاة ، فأخذ المصحف يقرأ فيه ، فأول ما وقعت عليه عيناه : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : ٣٨] ، وعندما كان يؤدي الصلاة في الصف الأول وثب عليه بضعة عشر من الفدائيين عددهم عدة الكلاب التي رآها في المنام ، فطعنوه بالخناجر ، فقتل بعد أن جرح بيده هو ثلاثة منهم ، وقد كان رجلاً عدلاً عابداً متهجداً يحب العلم والعلماء .

كان هذا في نفس العام — كما سبق أن أشرنا — الذي وجه فيه السلطان سنجر حملاته إلى معاقل الحركة الأملوتية بإيحاء من وزيرة أبي نصر معين الملك . وما إن مر هذا العام ، وجاء العام الذي يليه وهو ٥٢١ هـ ، حتى تمكن فدائيو أملوت من الانتقام من الوزير معين الملك الذي كان يعاديهم عداوة لا هوادة فيها ، فاغتالوه بأسلوبهم المعهود طعنًا بالخناجر .

ولإزاء هذا التحدى الصارخ للحكم السلجوقي الذي بلغ ذروته بمقتل الوزير معين الملك ، قام السلطان سنجر بتوجيه ضربة قاسية إلى معقل الحركة

الأساسى قلعة ألموت ، حيث تمخضت هذه الضربة عن مقتل عشرة آلاف أو يزيدون من أعضاء الحركة .

ولكن رغم هذه الأزمة التى لحقت بهم استطاعوا تدعيم قوتهم فى مناطق أخرى ، مثل قهستان ، وطالقان ، وردوبار التى أنشأوا فيها قلعة ميمون ديز .

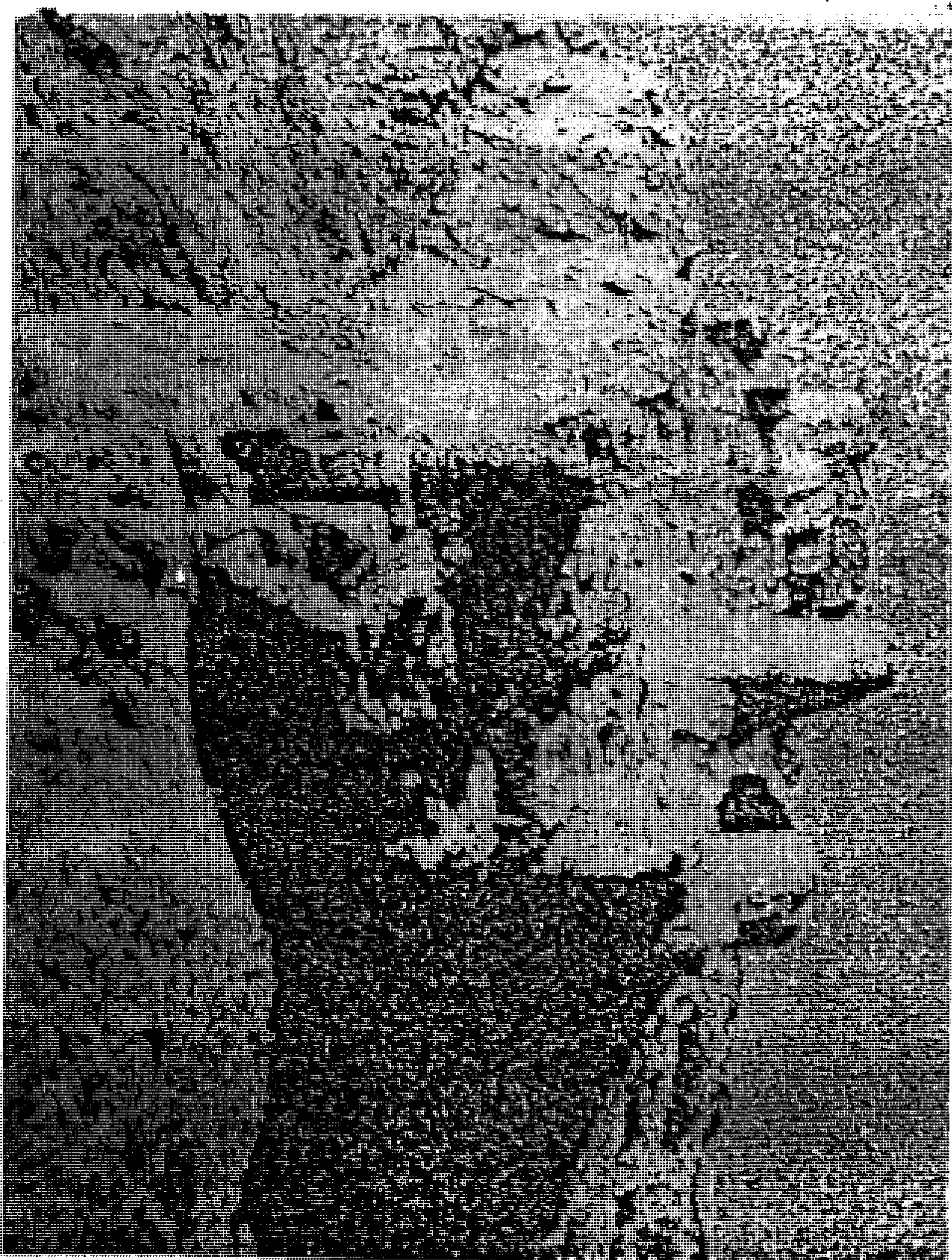
وقد دارت مفاوضات سلام سنة ٥٢٣ هـ بينهم وبين السلطان محمد بأصفهان ، وحضر ممثلان لحركة ألموت للتفاوض مع السلطان ، ولكن عند خروجهما من قصر السلطان هجمت عليهما الجماهير ولم تتركهما إلا وقد فارقا الحياة . وعندما حاول السلطان إظهار أسفه ونفى مسؤوليته عن الحادث طلب منه زعماء ألموت أن يقتصر من القتلة ، فرفض .

ولما لم يقم السلطان بتوقيع أية عقوبة على القتلة ، قام فدائيو الحركة برد سريع ؛ حيث اغتالوا رأساً كبيراً يتمتع بمكانة مرموقة بين الجماهير ، وهو عبد اللطيف بن الخجندى شيخ الشافعية بأصفهان . ولم يكتفوا بهذا الرد ، بل قاموا برد آخر واسع النطاق ، فهاجموا قزوين ، وتمكنوا من قتل أربعمئة فيهم أحد الأمراء السلاجقة ، كما استولوا على كثير من الغنائم .

وقد انتعشت فى هذه الفترة عمليات فدائيى الحركة ، إذ أمكنهم القيام باغتيال عديد من الشخصيات الهامة ليس فى داخل إيران فقط ، وإنما أيضاً خارجها فى سوريا ومصر ، أما سوريا وعملياتهم فيها فسنفرد لها فصلاً خاصاً ولذا فنحن نرجىء الكلام عنها إلى ذلك الفصل . أما فى مصر فقد اغتالوا سنة ٥٢٤ هـ فى الثانى من ذى القعدة الخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله أبا على بن المستعلى أثناء عودته من إحدى منتزهاته . وقد سبق أن ألمحنا إلى أن حركة الحشاشين كانت لا تعترف بشرعية تولى الأمر وأبيه من قبله للخلافة الفاطمية ، وإنما كانت تؤيد إمامة نزار . ولذا فقد خططت منذ وقت مبكر لاغتياله ، وهامى ذى قد نجحت .

وبعد هذه العملية الكبيرة لفدائيى ألموت ، استطاعوا القيام بعملية أكبر توجوا بها كل عملياتهم الاغتيالية السالفة ؛ إذ نجحوا فى اغتيال الخليفة العباسى

قلعة ميمون دير



المسترشد بالله سنة ٥٢٩ هـ ، وقد كان الخليفة في حرب مع السلطان مسعود السلجوقي ، فتمكن الأخير من الانتصار على الخليفة وأسره هو ومجموعة من كبار معاونيه ، ووضعه في خيمة معزلاً مكرماً تحت حراسة مشددة ، ثم انعقد بينهما الصلح ، ولم يبق إلا أن يعود الخليفة إلى بغداد ، ولكنه تأخر بعض الوقت ، وقد انصرف عنه بعض من كان موكلاً بحمايته ، وكانت خيمته بمعزل عن مناطق تركز الجنود ، فهاجم عليه أربعة وعشرون من فدائيي الموت ، فاغتالوه ، ومثلوا به فطعنوه أكثر من عشرين طعنة ، وجدعوا أنفه وأذنيه ، وتركوه عرياناً . كما تمكنوا من قتل مجموعة من مرافقيه .

وقد نجحت الحركة أيضاً في تلك الأثناء من اغتيال مفتي قزوين ، ووالى مراغة ، ووالى تبريز ، ووالى أصفهان .

وهكذا نرى أن الفترة التي قاد فيها بزرگ آميد حركة الحشاشين كانت فترة خصبة بعمليات الاغتيال ، ومقياس الخصوبة هنا ليس مقياساً كمياً ، وإنما مقياس كيفي ؛ إذ أن عدد المقتولين كان قليلاً بالمقياس لفترة حكم الحسن الصباح ، ولكن رغم ذلك فقد شملت قائمة الاغتيالات شخصيات بارزة تتربع على قمة العالم الإسلامي آنئذ ، مثل الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله ، والخليفة العباسي المسترشد بالله ، بالإضافة لعدد من الولاة وكبار مشايخ أهل السنة .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فإن هناك بعض الروايات التي تؤكد على مروءة وشهامة زعماء حركة الحشاشين ، ومما يروى في هذا الصدد أن أميراً من أعدى أعداء الحركة يدعى يارنجوش دخل في صدام مع شاه خوارزم ؛ فأراد الشاه قتله ، فلجأ هو وأتباعه إلى قلعة الموت مقر الحركة طالباً الحماية ؛ فقبله بزرگ آميد ولم يرده ، وعندما طلب الشاه تسليمه رفض الزعيم الألموتي رغم أن الشاه كان صديقاً للحركة بينما كان الأمير الهارب عدواً لدوداً لها ، وقال بزرگ آميد في رده على الشاه : « إن من يطلب حمايتي لا أستطيع أن أعامله كعدو » .

وقد استمر بزرک آمید یتزعّم الدعوة الأملوتیة حوالی أربعة عشر عاماً انتهت بوفاته سنة ٥٣٢ هـ . وقد كانت فترة زعامته تواكب الجزء الثاني من فترة إمامة علی بن نزار بن معد (المستنصر) بن علی بن الحاکم بأمر الله منصور العبیدی الفاطمی ، الذی تولى إمامة الإسماعیلیة بعد أبيه نزار فی عام ٤٩٠ هـ وتوفی سنة ٥٣٠ هـ ؛ حیث خلفه ابنه محمد (المهتدی) . أما بزرک آمید فقد خلفه بعد وفاته ابنه محمد .

عهد الإمام محمد المهتدی :

وفی عهد الإمام محمد المهتدی وكبیر الدعاة محمد بزرک آمید ، تركز الاهتمام علی إعداد الدعاة إعداداً علمياً ؛ فكانوا یدرسون العقائد والفلسفات ومقارنة الأديان والفقه وأصوله . وتم تدريبهم علی التناظر وتكنيك الحوار بما یزید قدرتهم علی مواجهة الخصوم وإقناعهم بالعقيدة الإسماعیلیة .

وقد جعل الإمام المكاتبه بین الدعاة وأعضاء الحركة بنظام الشفرة ، فكانوا یستخدمون الأعداد للدلالة علی الحروف الأبجدیة . وهو ما سنتناوله عند الحديث عن عقائد الحركة وأیدیولوجیة ونظامها ، فی القسم الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى .

كما وجه الإمام عناية إلى الجناح العسکری ، حیث اهتم بتدريب الفدائیین وثقیفهم ، وكان من المقررات الأساسية إتقان عدد من اللغات الشائعة حتی یمكنهم إخفاء شخصیاتهم الحقیقیة والتظاهر بأنهم من جنسیات معينة حسبما یقتضی الأمر ، مما یمكنهم من أداء مهامهم بنجاح . وهذا النظام كان متبعاً منذ نشأة الحركة .

وكانت أول العمليات التي قامت بها المجموعة الفدائیة المدربة علی أعلى مستوى أثناء إمامة محمد المهتدی ، تلك العملية الجسورة لاغتيال الخلیفة العباسی المخلوع الراشد بالله ؛ فبعد أن تم خلعه وتولية المقتفی لأمر الله ، توجه إلى ایران ، واستقر بعض الوقت فی أصفهان ، وهناك قام فدائیو الموت وكانوا من أهل خراسان ویمعملون فی خدمته ، باغتياله فی الخامس والعشرين من :

رمضان سنة ٥٣٢ هـ . وكان هذا في أعقاب شفائه من مرض كان يعاني منه .
وقد استطاع مرافقوه القبض على مغتاليه من الفدائيين ، وقتلوه على الفور .
ولم يكن الإمام المهتدى مهتماً فقط بشؤون الحركة في إيران ، بل كان
يوجه جزءاً كبيراً من جهوده واهتماماته إلى جناح الحركة في سوريا ، وكان دائم
الاتصال بهم ، وقد أمكننا الوقوف على إحدى رسائله إلى أعضاء الحركة
بسوريا ، قد أوردتها الداعي إبراهيم بن أبي الفوارس في إحدى كتبه . ونظراً
لأن هذه الرسالة تعكس بشكل كبير فكر الإمام محمد المهتدى ، فسأورد نصها
للقارئ حتى يتبين كيف كان يفكر ذلك الإمام . يقول موجهاً كلامه إلى
أتباعه :

« أيها الاخوان الكرام وأهل السلام . أخلصوا إلينا بقلوبكم ، وارحلوا إلينا
بنفوسكم ؛ إن عهدنا واصل إليكم ، وقد أمرنا أن يتلى عليكم فتلقوه بقلوب
صادقة ونفوس طائعة غير آبهة .

وقد أرسلنا إليكم باباً من أبوابنا وداعى من دعائنا ، وهذا العهد يتلوه
ويوضحه ولا يخفيه .

إننى أنا المولى محمد بن على بن نزار ، لعن الله من أنكر الحق وأخفاه . وقد
عهدنا إلى الداعي زيد بن أبي الفرج بن أبي الحسن بن على ، أن يوضح الحق
حتى ينجلي .

أنا مولاكم محمد بن على بن نزار من أفاق نورى على النهار .

اخواننا : أطيعوا مولاكم ، وحافظوا على محبة اخوانكم ؛ فقد أشرقت
الأرض بنور ربها ، وقد بان أوان الحق المبين عند انقضاء دور الأربعين وانتهاء
مدة السبعين تنمة هذه الخلائق أجمعين وإشراق الأرض بنور اليقين . وسيظهر
الحق بكلمته على قلوب العارفين الذين هم على عبادتهم عاكفين ولطاعتنا
ملازمين .

وكل ما نريده من مريدنا ومخلصينا أن ينبذوا البغضاء ، ويعيشوا باتحاد
وتضامن . فمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهداً منه ، ومن سميع

ما أمرناه ، وقام بتنفيذ ما فرضناه من عهد قد عهدناه ؛ فوجهنا مصروف إليه ، ونفوسنا مقبلة عليه .

أنا الذى ظهرت بالناسوتية ، واختفيت باللاهوتية ؛ أنا شمس اليقين ، وقبلة العارفين ، ونجاة الطالبين ؛ فمن عرفنى نجا ، وها قد سمعتم منى بواطن جواهر القدرة الإلهية ، وأشرقتم عليكم بأنوار عزتى الجبروتية ، وأمرتكم بأمر فامتثلوه ، وفرضت عليكم عهداً واجباً فاسمعوه ، ولا تكونوا لعهدنا ناكثين . ولأوامرنا غير طائعين ؛ لأن الرفيق رب على التحقيق . فمن خلصت نيته لمولاه ، وصفت سريره لآخوانه بالدين ، تحدثت روحه بالعالم الروحاني ، وتنزهت عما هو فان ، وصارت فى دار الكرامة التى لا تتحول ؛ لأنكم إخوان صدق وإيمان وأصحاب نور وبرهان .

وهذه شرائط عشرة وفرائض عسيرة ؛ فمن لزمها نجا ، ومن تخلف عنها ضل وغوى ، وكانت الجحيم هى المأوى ؛ فما بعد الصبح خفى . ومهما أمركم داعينا فامتثلوه وما أوجب فأطيعوه .

أنا مولاكم محمد بن على بن نزار .. فقد جاء الحق ، وزهق الباطل ؛ إن الباطل كان زهوقاً .

وأزلنا عليكم رحمتنا ، وشملتكم عين عنايتنا ، واصطفيناكم من بين خليقتنا ، وجعلناكم أبناء دعوتنا ، فطاعتنا عليكم فرض ، وهى نجاتكم ليوم الفصل والعرض .

إن الله اصطفى للمؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بالرضا والتسليم والصبر وحسن اليقين ، أعادنا الله وإياكم أيها المؤمنون الموحدون المهتدون ممن كان لعهدنا ناسياً وقلبه عن معرفة مولاه قاسياً .

أيها المؤمنون الموحدون العابدون : اركبوا طريق من كان قبلكم من المريدين الذين كانوا لنا طائعين ، وبواجب ما فرض عليهم قائمين ، فهم فى روح وريحان وجنات النعيم فى مقعد صدق عند ملك مقتدر ، يرقى له الجنات ، ويشاهد بعينه الرحمت ، ويعرض عليه الحور والولدان ، شرابهم السلسبيل ،

ونديمهم الجليل ، وساقيمهم الخليل ، وعن يمينهم إسماعيل ، والبشير لهم
جبرائيل ، وخادمهم عزرائيل ؛ فياله من مقام محمود ، وشاهد ومشهود ،
وحاضر وموجود ، وشقى ومسعود ؛ فعند معانيه الحق المبين ، دعينا له
خاضعين ، وما افترضه علينا سامعين .. والحمد لله رب العالمين . الإمام محمد
ابن علي بن نزار المستنصر .

وهكذا فإن هذه الرسالة تكشف عن تكوين عقل محمد المهتدى وبنية
تفكيره التي يلمسها القارئ دون أى عناء . وإذا كانت الرسالة تؤكد اهتمام
الإمام بأعضاء مذهبه في خارج إيران وأنه لم يكن يحرص نشاطه في نطاق
محدد ، فإن السجلات التي وصلت إلينا عن نشاط حركة ألموت في هذه
الفترة تعكس اهتماماً من زعمائها بالتجارة والزراعة وبعض ألوان الصناعة ،
ولاسيما صناعة سك العملة الخاصة بهم . ويبدو من تلك السجلات ، وأيضاً
من روايات المؤرخين ، أن محور اهتمام حركة ألموت كان متمركزاً في تلك
الفترة على مثل هذه الأمور الدنيوية أكثر من أى شيء آخر ، حتى أن الأمل
العظيم والكفاح الدموي من أجل القضاء على الحكومات القائمة وإنشاء
حكومة باطنية بزعامة الإمام الإسماعيلي ، لم يعد مما يشغل بؤرة اهتمام زعماء
الحركة وأعضائها ، ولا أدل على ذلك — بالإضافة إلى ما سبق — من أن
القلاع الجبارة التي كانت بالأمس نقاط انطلاق للهجوم على مدن وقرى
المعارضين أصبحت أسواقاً تجارياً يؤمها كبار التجار .

ولكن هذا لا يعنى ردة كاملة عن الاستراتيجية التي كان ينفجها الزعيم
الراحل حسن الصباح ، فقد كان زعماء الحركة رغم اهتمامهم المتزايد بالتجارة
يتخذون منها ستاراً لنشر دعوتهم ، حيث كان الدعاة يثبون عقيدتهم ويدعون
إليها سراً أثناء رحلاتهم التجارية في مختلف بلاد العالم الإسلامي .

وأيضاً فقد كان الفدائيون يقومون بين حين وآخر بدورهم في اغتيال
الشخصيات الهامة ، بيد أن قائمة الاغتيالات تعتبر متواضعة جداً بالقياس
لعصر حسن الصباح .

فقد نجحوا سنة ٥٣٤ هـ في قتل المقرب جوهر أحد معاوين السلطان سنجر ، وقد كان يتمتع بمكانة مرموقة حتى كان جميع جنود السلطان يخدمونه ويجلونه . وقد اتبع الفدائيون الذين قاموا باغتياله أسلوباً مبتكراً في عملياتهم ، حيث ارتدوا ملابس النساء ، واستغثن به أثناء إحدى تنقلاته ، فوقف يستمع إليهن ، فقتلوه . وعندئذ ردَّ صاحب له يدعى عباس رداً عنيفاً ؛ حيث جمع أربعة آلاف مملوك تتبعهم جنود كبيرة العدد ، وتوجه إلى مناطق تركزهم ، فانتقم منهم انتقاماً بالغ الشدة ، فقتل عدداً كبيراً منهم ، حتى أن البنداري المؤرخ يذكر أنه قتل ما يزيد على مائة ألف ، ويذكر صدر الدين الحسيني المؤرخ أن عباس قد بنى من رؤوسهم منارة وأذن عليها مؤذن . وقد فعل بهم هذا الرجل ما لم يفعله غيره . وكان يعاود غزوهم بين وقت وآخر ، فيسفك دماءهم ، ويدمر بلادهم ، واستمر على هذا الحال حتى تم اغتياله بتدبير من السلطان مسعود سنة ٥٤١ هـ .

وقد كان من أبرز الشخصيات التي تم اغتيالها على يد فدائيي الحركة في تلك الفترة بعد اغتيال الخليفة العباسي الراشد بالله — داود السلطان السلجوقي في عام ٥٣٨ هـ وذلك في مدينة تبريز بشمال غرب إيران .

وتشمل قائمة الاغتيالات في هذه المرحلة عدداً من القضاة الذين أفتوا بجواز أو وجوب إعدام أعضاء حركة الحشاشين ، وهم قضاة همذان وقهستان وتغليس . كما تشمل القائمة عدداً من الأمراء والولاة والوزراء .

وفي نفس العام الذي اغتالوا فيه السلطان داود السلجوقي ، قاد السلطان محمد حملة عسكرية إلى قلعة ألموت ، ولكن تمكن رجال الحركة من صد الهجوم . مما أعطاهم ثقة متزايدة بالنفس جعلتهم يملكون نشاطهم إلى بلدان جديدة ، كما استولوا على بعض القلاع بقزوين وبنوا بها بعضاً آخر .

وقد حدث ما يشبه الانشقاق الداخلي في الحركة عندما قام الحسن بن داعي دعاة ألموت محمد كيا بزرگ آميد ، بالدعوة إلى نفسه كإمام ، وقد مكنته براعته في الاقناع وتمكنه من فن الحوار أن يجذب إليه عدداً كبيراً من أعضاء

الحركة . مما أدى إلى أن أباه اتخذ إزاءه وإزاء من اتبعوه موقفاً متشدداً ، فأمر بجلده حتى الموت ، وقتل عدداً كبيراً من أتباعه — تذكر بعض الروايات أنه بلغ ٣٠٠ شخصاً . كما أمر بتعذيب وطرده مجموعة أخرى .

عهد القاهر بقوة الله :

وفي سنة ٥٥٢ هـ توفي الإمام محمد المهتدى بن علي بن نزار ، وخلفه ابنه حسن القاهر بقوة الله ، وبايعته كل أفرع طائفة إسماعيلية الموت في إيران وسوريا .

وعندما تولى الإمام حسن أمر الحركة كانت الحروب والمصادمات قد أتت على أكثر ثرواتها ؛ ولذا فقد وجه جل عنايته إلى تحسين المركز المادى للحركة ، ولكن هذه المرة ليس عن طريق الغزو والقتال أساساً ، وإنما بواسطة التجارة ، فوجه دعاته إلى الاشتغال بها ، ولم يكن هدفه فقط تحقيق الربح المادى للطائفة ، وإنما أيضاً اتخاذ التجارة كستار للدعوة .

عهد الإمام حسن وإعلان القيامة :

وعندما توفي الإمام حسن القاهر بقوة الله سنة ٥٥٧ هـ ، تولى الإمامة بعده ابنه الحسن الذى كان يُقرن اسمه دائماً بـ « على ذكره السلام » ، وهذه التحية هى التى تجعل المرء يميزه عن سواه بسهولة . وكان مولده سنة (٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م) .

وأهم ما يميز عهده ما يسمى بإعلان قيامة القيامة أمام كل الأتباع المجتمعين فى قلعة الموت . وكان هذا الإعلان يتضمن مجيء إسلام روحانى خالص متحرر من كل ذهن تشريعى ، ومن كل عبودية للفرائض والقوانين ، فهو دين شخصى للقيامة التى هى ولادة روحانية ؛ لأنها تجعل الإنسان يتكشف ويعيش المعنى الروحانى للإيماءات الإلهية . وبلغة أبسط : فإن هذا الإعلان يعنى التحلل من اتباع تعاليم الدين ، وإسقاط الفرائض ، وإباحية العلاقة مع النساء .

ومنذ هذا الإعلان أمر الإمام حسن بتغيير اتجاه القبلة ، فأصبح جهة الغرب ، ولذا فإن ظهور الحاضرين في قلعة ألموت كانت إلى مكة . وقد أقيمت الاحتفالات في كل مناطق الدعوة الألموتية في إيران وسوريا ابتهاجاً بانتهاء عهد الالتزام بتعاليم الشريعة وفرائضها .

ومع أن الغالبية العظمى قد قبلت هذا الإعلان بقبول حسن ، إلا أن هناك قلة أبدت ارتياباً تجاهه ، وهذه القلة كان نصيبها عقاباً شديداً من الحسن ، الذي استدل على تصرفاته بقول النبي ﷺ : « كلكم راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته » ، فالإمام هو المسؤول الأول عن أتباعه ، وهو الذي يتحمل تبعات أفعالهم ، ولذا فإن عليهم إطاعته فيما يأمر سواء في زمن الشريعة أو في زمن القيامة ، فكما أن الإنسان إذا لم يطع التكليف والعبادات في زمن الشريعة واتبع مبدأ القيامة بأن التكليف والعبادات روية فإنه يعاقب أشد العقوبة ، فكذلك في زمن القيامة إذا لم يطع مبادئها ، واتبع تعاليم الشريعة والتزم بطقوسها ، فإنه يعاقب على عدم التزامه بمبادئ القيامة .

وإزاء هذا التحلل الصارخ من الشريعة ، قام صهر الحسن بمناهضة هذا الإعلان ، وقد انتهت هذه المناهضة بنجاحه في قتل حسن بعد أربع سنوات من حكمه . وعقب مقتله صدر أمر بطرد كل من يصر على الاعتقاد بإمامته

عهد أعلى محمد :

وقد تولى الإمامة بعد الحسن ابنه أعلى محمد في سنة (٥٦١ هـ = ١١٦٦ م) ، وكان مولده سنة ٥٥٣ هـ ، مما يعني أنه تولى الإمامة وعمره ثمانى سنوات ، ولكن بعض الروايات تشير أنه تولى الإمامة وعمره تسعة عشرة عاماً .

ورغم أن أباه مات مقتولاً بسبب إعلان قيام القيامة ، إلا أنه ظل متابعاً لأبيه في هذا الاتجاه ، وأدخل بعض التطوير على النظرية وعمل على تأسيسها عقائدياً وتثبيتها في نفوس أتباعه . وقد نجح في هذا إلى حد بعيد ، نظراً لأنه كان واسع الاطلاع متعمقاً في العقائد والفلسفات . وكان يعقد جلسة

أسبوعية مع الدعاة ، حيث كان يجرى بينهم المناظرات من أجل رفع مستواهم العلمي وقدرتهم على المواجهة والحوار .

ولأن توجهات أعلى محمد كانت أصلاً علمية ، ولأنه نشأ في جو من الترف في ظل عقيدة القيامة ، فإن عهده لم يشهد أحداثاً حربية أو سياسية ذات قيمة بالقياس لعهود سابقه من الأئمة ولا سيما عهد الحسن الصباح مؤسس الحركة . هذا باستثناء عملية فدائية نجحت في اغتيال وزير من الوزراء العباسيين في العاصمة بغداد ، بالإضافة لبعض المناوشات والغارات التي كان يقوم بها أعضاء حركة الحشاشين ضد القرى القريبة منهم .

وإذا كانت هذه الفترة لم تشهد تغيرات وأحداثاً كبيرة في نطاق الحركة ، إلا أن هناك تطورات بالغة الأهمية طرأت على كيان الدولة الإسلامية ، وهو ما قد تناولناه من قبل في فصل خاص عن الأحداث الخارجية المواكبة لتطور الحركة .

بشائر العودة إلى الالتزام بالشرعية :

وقد عهد الإمام أعلى محمد إلى ابنه جلال الدين حسن بولاية العهد منذ طفولته ، مما أشعر جلال الدين منذ وقت مبكر بالمسؤولية ، فكان يقرأ ويطلع ، فظهرت عليه علامات التفوق والنبوغ ، وكان يبدى ميلاً إلى أمه السنية أكثر من أبيه ، وشعر بانحياز أبيه عن جادة الصواب عندما نبذ تعاليم الشريعة ، فأظهر عدم رضائه عن السير في هذا الاتجاه ، مما عكر صفو العلاقة بينه وبين أبيه . وقد بعث في السر عدداً من الرسائل إلى الخليفة العباسي وملوك السلاجقة يعلن فيها استيائه من النهج الذي ينتهجه أبوه ، ويؤكد إسلامه والتزامه بالشرعية ، وأنه سيعمل على إصلاح الحركة ما إن يتولى الإمامة .

عهد الإمام جلال الدين وعودة الشريعة :

وبالفعل عندما مات أبوه أعلى محمد سنة (٦٠٧ هـ = ١٢١٠ م) تولى جلال الدين قيادة حركة الحشاشين ، وأعلن على الفور براءته من مذهب أبيه وجده ،

وصرح على ملاء من أتباعه بأنه مسلم ملتزم بكل تعاليم الشريعة ، ولام أعضاء الحركة على توجهاتهم وسلوكياتهم ، وحثهم على الالتزام بأحكام الشريعة . وقد بعث بسفراء يحملون رسائل إلى الخليفة العباسي وملوك وأمراء السلاجقة يخبرهم بتنفيذه الفعلي لما قد وعدهم به قبلاً من الالتزام بالشريعة والطاعة لهم . ومضى يعمل على توطيد أواصر الصداقة بينه وبين أمراء الإسلام الذين حوله ، ويظهر الولاء للخليفة العباسي الناصر لدين الله .

وقد لاقت محاولات جلال نجاحاً على مختلف الأصعدة ، حيث استجاب له أتباعه في إيران وسوريا ، وصدقه الخليفة العباسي فأصدر مرسوماً يؤكد إسلامه ويقدر ما قام به من إصلاحات . وتقبله معظم الأمراء كصديق ومسلم . ولكن أبدى أهل قزوين ارتياباً تجاهه . ولذا فإن جلال الدين بذل ما في وسعه لكي يهدئ خواطر العلماء في قزوين ويقنعهم بصحة إسلامه ، حتى أنه دعاهم — كدليل على صدق نيته — لفحص مكتبات القلعة ، وإتلاف كل الكتب التي يروا أنها تخالف العقيدة الصحيحة .

وقد كان يتبادل الهدايا والرسائل مع الأمراء ، ودخل في تحالفات عسكرية مع بعضهم في ظل الولاء للخليفة العباسي . وقدم خدمة لذلك الأخير عندما كلف فدائييه باغتيال شريف مكة وأمير تابع لخورزمشاه .

كل ذلك أتاح له أن يقوم برحلة خارج ألمات لمدة عام ونصف زار خلالها بغداد وأذربيجان وسوريا وغيرها من البلاد والمدن الإسلامية . ويذكر المؤرخون أنه كان يلاقى أثناء جولاته هذه الاحترام والتقدير كأمر مسلم محل للثقة .

وقد بعث أمه لكي تؤدي فريضة الحج سنة ٦٠٩ هـ ، وعندما مرت ببغداد لاقت احتراماً وترحيباً من الخليفة العباسي .

وكان يؤكد جلال الدين دائماً صدق إسلامه عن طريق التبرع بالأموال لبناء المساجد والتكايا والحمامات وغيرها من الخدمات العامة .

وبعد أن تمكن الرجل من تحقيق مركز مرموق بين الأمراء والقواد:

والأعيان ، أبدى رغبته في الزواج من أربع أميرات جيلانيات . وفي بدء الأمر تخوف أبائهن منه ، وتقاعسوا في إجابته إلى طلبه ، وعلقوا موافقتهم على موافقة الخليفة العباسي . فأرسل جلال الدين سفيراً إلى الخليفة عارضاً عليه الأمر ، فرد الخليفة في الحال بإعلان مباركته لهذا الزواج مؤكداً من جديد على تقديره لجلال الدين .

ولأن جلال الدين كان دائماً ميالاً إلى السلام ، متطلعاً لحياة الهدوء والاستقرار ، فإنه ما إن علم بعزم جنكيز خان على اكتساح الدول الإسلامية ، حتى سارع بإرسال سفرائه إليه معلناً ولاءه للخان الأكبر ؛ لأنه وجد أن من الحكمة التقرب إليه ومصافته ؛ فالوقوف أمام جيشه الجبار لن يؤدي إلا إلى الفناء .

وقد أظهر كثير من أتباع حركة الحشاشين تذمرهم من موقف جلال الدين الاستسلامي في مواجهة التتار . وبعد ذلك بوقت قصير ، وبالتحديد في سنة (٦١٨ هـ = ١٢٢١ م) مات متأثراً بمرضه ، فقد كان يعاني من الدوسنتاريا . ولكن وزيره المخلص والوصي على ابنه علاء الدين محمد ؛ ظن أنه مات مسموماً بتواطؤ من زوجاته ومجموعة من أقاربه ؛ فأمر على الفور بإعدامهم جميعاً . وبطبيعة الحال قد أدى هذا القرار إلى تصديق العلاقات من جديد مع أمراء جيلان الذين لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً يحول دون إعدام بناتهم الأميرات الأربعة .

عهد الإمام علاء الدين محمد :

وعندما تولى ابنه علاء الدين محمد الإمامة كان في العاشرة من عمره ، إذ كان مولده سنة (٦٠٨ هـ = ١٢١١ م) . ولذا فإن الوزير الوصي عليه كان هو المسؤول مسؤولية مباشرة عن تسيير شؤون الحركة .

وحين شب الإمام علاء الدين وأخذ يباشر الحكم بنفسه ، طرأت بعض التغيرات على طبيعة الحركة ، وفق ما تشير المصادر السنية ؛ حيث تصف علاء

الدين بأنه كان مستهتراً لا يدري شيئاً عما يحدث داخل الحركة أو خارجها ؛
مما انعكس على الأتباع ؛ إذ عاود كثير منهم الحياة وفقاً لمبادئ زمن القيامة التي
أرساها جده ، ومارس البعض عمليات الاغتصاب والاعتداء على جيرانهم ،
أحياناً بعلمه وأحياناً أكثر بدون علمه .

هذا مجمل ما جاء في المراجع السنية ، ولكن المراجع المحايدة والمراجع
الإسماعيلية تنص على عكس ذلك تماماً ؛ فبصرف النظر عن إغداق المديح عليه
الموجود في المراجع الإسماعيلية ، فإن هناك كثيراً من الأحداث الهامة التي
وقعت في عهده ، والتي تدل على أن الرجل كان جاداً واعيأ ، أو على الأقل لم
يكن بالصورة التي صورته بها المراجع المناوئة للحركة .

فقد شهدت الحركة الأملوتية ازدهاراً علمياً وسياسياً في عهد علاء الدين ،
أما الازدهار العلمي فلا أدل عليه من التدعيم الهائل الذي قام به المكتبة قلعة
ألموت ، حيث ضاعف محتوياتها من المراجع والمصادر والكتب في مختلف فروع
المعرفة الإنسانية ؛ مما أدى إلى اجتذاب كثير من الفلاسفة والعلماء إليها . كما
طُور مدارس الدعاة ، وأقام الندوات ، وأجرى المناظرات بين الأتباع .

اهتمام كهذا بالعلم والفلسفة من قِبَل الإمام ، ثم من قِبَل أتباعه ، لاشك أنه
تمخض عن رفع مستوى الدعاة ، مما انعكس بدوره على مدى كفاءتهم في نشر
الدعوة الإسماعيلية الأملوتية . فقد تمكن الدعاة من اكتساب أنصار جدد في
أراضي جديدة بالنسبة لدعوة إسماعيلية ألموت ؛ أعنى الأراضي الهندية ، فمنذ
فترة غير قصيرة كانت الإسماعيلية المستعيلة منتشرة هناك ، وعندما ذهبت
مجموعة من الدعاة إلى هناك استطاعت تحويل أولئك من الإسماعيلية المستعيلة
إلى الإسماعيلية النزارية (= إسماعيلية ألموت = حركة الحشاشين) .

هذا عن الجانب العلمي والدعائي لحركة الحشاشين في عهد علاء الدين ،
أما الجانب السياسي والعسكري فتتمثل أهم معالمه فيما يأتي :

في العام التالي مباشرة لتولى علاء الإمامة ، قامت السلطات الخوارزمية بمذبحة
مروعة لدعاة إسماعيلية ألموت في الري .

ثم شن القائد الخوارزمي أرخان هجوماً عسكرياً على بعض قلاع ومراكز الحركة في قهستان ونيسابور ، وقتل كل من وقع تحت يده من أتباع الحركة ، واستولى على أموالهم ، ودمر ممتلكاتهم وحصونهم .

وسرعان ما ردت حركة الحشاشين رداً عنيفاً على هذا الهجوم ، فنجح ثلاثة من الفدائيين في اغتيال أرخان عقاباً له . ثم تمكن جيش الحركة من السيطرة على مدينة دمغان الواقعة شمال شرق كردكوه .

وقد ساعد الحركة على تحقيق هذا النصر انشغال السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي بإعادة بناء جيشه الذي تصدع أمام هجمات التتار .

ولكن هذا الصدام بين الحركة وخوارزم توقف على أثر عقد اتفاق سلام بينهما ، تقوم الحركة بموجبه بدفع الجزية عن سيطرتها على دمغان .

وقد نجحت حركة الحشاشين في استمالة الوزير الخوارزمي شرف الملك إليها ، ولم تكن هذه الاستمالة من الوزير اختياراً ورغبة منه بل خوفاً على حياته ، ولذا فقد كان دائم الاسترضاء لزعماء الحركة . كما نجحت الحركة كذلك في استمالة المؤرخ محمد بن أحمد النسوي المتوفى (٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م) الذي كان يعمل في خدمة السلطان جلال الدين منكبرتي ، وصاحب كتاب « سيرة السلطان منكبرتي » . ولكن هذه المرة لم تكن استمالة الرجل بالترهيب كما كان الحال مع شرف الملك ، وإنما عن طريق إغداق الهدايا والمنح عليه . ولم تطل فترة المهادنة بين جلال الدين خوارزمشاه وبين علاء الدين محمد ؛ إذ قام خوارزمشاه بخرق الهدنة أكثر من مرة ، فأمر بإعدام خمسة من الفدائيين خرقاً ، ثم قام جنوده بالهجوم على قافلة لأعضاء حركة الحشاشين كان بها أكثر من سبعين رجلاً ، فقتلوه جميعاً .

وقد أدت هاتان العمليتان لمزيد من المشاحنات بين الخوارزميين والحشاشين ؛ مما دفع علاء الدين محمد إلى توطيد التحالف مع الخليفة العباسي في بغداد العدو الأول لخوارزمشاه ، وإقامة علاقات ودية مع التتار العدو الثاني — لكنه الأخطر — لخوارزمشاه .

عهد ركن الدين خورشاه :

وقد كان علاء الدين أنجب وهو في الثامنة عشرة من عمره ابنه الأكبر ركن الدين خورشاه . وعينه ولياً للعهد وهو طفل ، ثم وقعت بينهما وحشة أدت إلى أن خلعه أبوه من ولاية العهد ، ولكن أعضاء الحركة لم يقبلوا منه ذلك جرياً وراء تقاليدهم : « بأن عهد الإمام لا ينقض » . وقد حاول ركن الدين الانشقاق عن أبيه ، واتخذ التدابير لتنفيذ ذلك ، ولكنه مرض مرضاً أقعده عن السير في هذا الطريق . وفي أواخر سنة (٦٥٣ هـ = ١٢٥٥ م) وجد الإمام علاء الدين محمد مقتولاً في قلعة كردكوه .. قتله حسن المازنداريني الذي اعترفت عليه زوجته . فأمر ركن الدين خورشاه بإعدامه حالاً وإحراق جثته . وهناك من المؤرخين من يتهم ركن الدين بقتل أبيه ، ولكن القرائن التي لديهم ضعيفة .

الحشاشون في مواجهة التتار :

سبق لنا بيان معالم التوسع التتاري في بلاد الإسلام في فصل : الأحداث التاريخية المواكبة لنشأة حركة الحشاشين وتطورها . والآن فإننا سنعمل على بيان علاقة الحركة بالتتار سلباً وإيجاباً .

منذ اللحظة الأولى للتوسع التتاري بعث جلال الدين حسن — كما سبق أن ألقينا — برسالة إلى الخان الأكبر معلناً ولاءه له . وعندما جاء علاء الدين محمد لم يبد استعداداً للتعاون مع التتار ، بل حذب مقاومتهم ، وأظهر كثيراً من التعاون مع جيرانه السُّنة في مواجهة العدو المشترك ، وكان من مظاهر ذلك أن قام زعيم الحشاشين في قهستان بإيواء اللاجئين من أهل السُّنة الهاريين من هجوم جنكيز خان على خراسان وشرق إيران ، وأظهر عليهم عطفاً منقطع النظير ، وأغدق عليهم كثيراً من الأموال ، ولكن رأى إمام الموت أن في هذا إسرافاً زائداً عن اللزوم ، فقرر عزل هذا الزعيم .

وبمجيء ركن الدين خورشاه وتوليهِ إمامة الحركة في سنة (٦٥٣ هـ =

١٢٥٥ م) ، عمل على أن يكون السلام أساس علاقاته مع كل الأطراف المحيطة به ، فركز أولاً على حسن الجوار مع سائر طوائف المسلمين ، فأمر أتباعه بالعمل بمقتضى ذلك .

ثم اجتهد ثانياً في محاولة كسب تسامح التتار إزاء حركة الحشاشين ، وهو ما لم ينجح فيه ، إذ كان يعلم التتار مدى الخطر التى تشكله الحركة ، بل اعتبروا الحركة والخليفة العباسى أخطر ما يمكن أن يواجهوه فى طريقهم .

ولا أدل على ذلك من أن الأهداف الأولى التى وضعها هولاء أمام عينيه هى تدمير قلاع حركة الحشاشين فى إيران . وقد باءت الهجمات التتارية الأولى بالفشل ؛ حيث تمكنت الحركة من صد هجومهم على قلعة كردكوه الشهيرة كما صدت هجومهم على قهستان ثم ردتهم نحاسين عندما هاجموا رودبار ، ولكن عندما عاود التتار الهجوم على قهستان أمكنهم انتزاع بعض القلاع .

ومع ذلك فقد حاول ركن الدين خورشاه إثبات حسن نيته للتتار وتأكيدهم . وعندما أرسل رسله طالباً للسلام طلبوا منه الحضور بنفسه ، ولكنه رفض ذلك وبعث بدلاً منه أخاه شاهنشاه ، ولكن أصر هولاء على مجيئه شخصياً بعد أن يدمر كل قلاعه كدليل على صدق رغبته فى التعاون معهم ، وإذا ما فعل ذلك فإن جيوش التتار لن تمسه هو وأتباعه بسوء . وإزاء إصرار هولاء قدم ركن الدين بعض التنازلات الظاهرية . واستمرت المفاوضات بينهما بعد ذلك ، فى نفس الوقت الذى كان يتقدم هولاء بجيوشه نحو رودبار ، وعندما وصلها قام بحصار القلاع ، وأولى عناية خاصة لحصار القلعة التى بها ركن الدين وهى قلعة ميمون ديز ، ثم أرسل إليه هولاء ينصحه بالتسليم وإذا ما استجاب فإنه سيعامل بكل تقدير ، أما إذا أصر على المقاومة فستكون عاقبته الدمار .

وقد تباحث ركن الدين الأمر مع رجاله ، فنصحه البعض بالصمود والمقاومة ، أما البعض الآخر فقد رفضوا الاستسلام ، وكان ركن الدين لديه الاستعداد من قبل لذلك ، فوافق على الاستسلام ، وبالفعل ذهب إلى هولاء

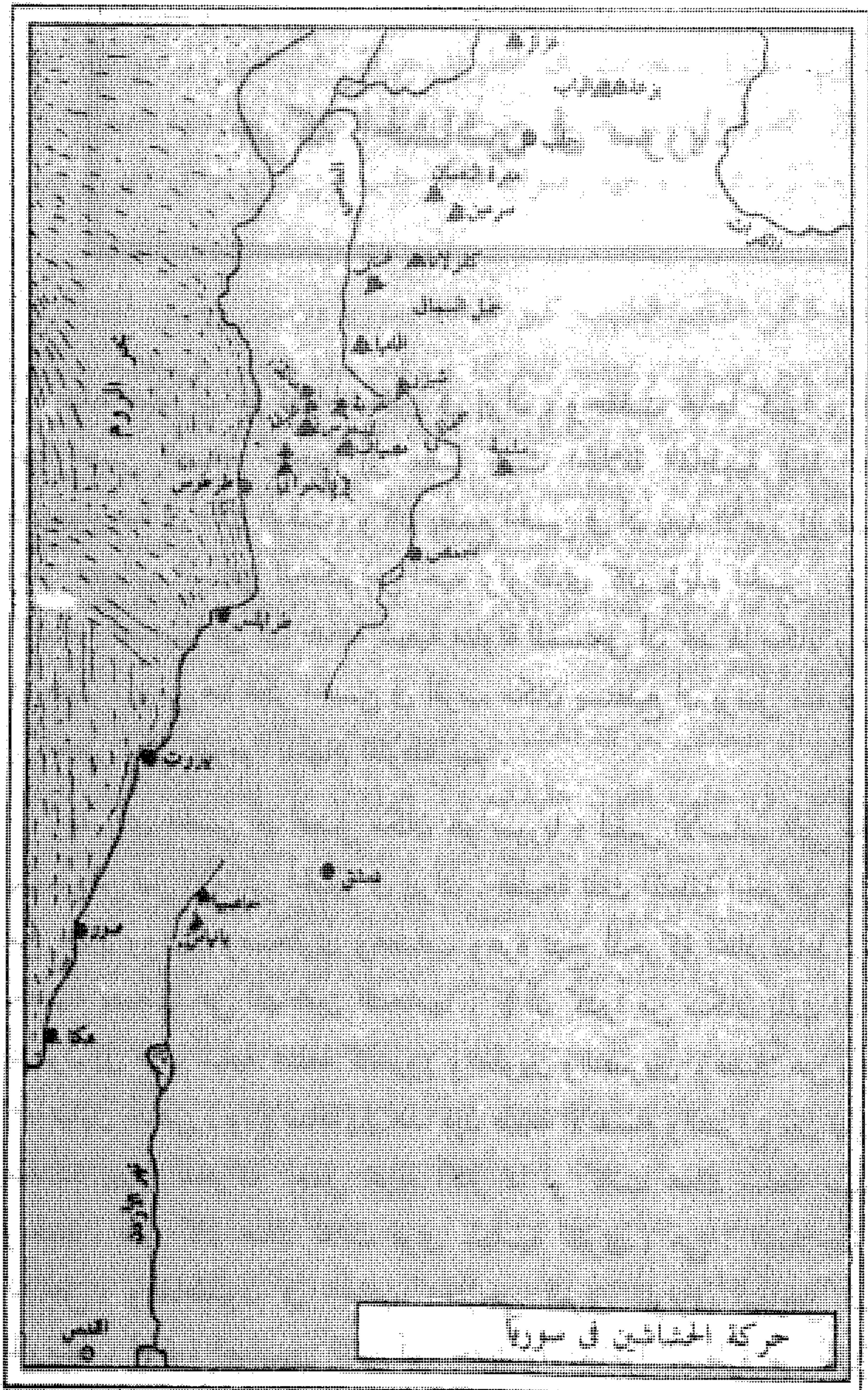
بأهله ورجاله وكنوزه ، فرحب به وأنزله منزلاً حسناً ، حتى يقنعه بأنه سيكون مع التتار في أمان ، وبالتالي يحثه على إصدار أوامره إلى كل قلاع الحركة بالاستسلام في مقابل السلام . ونجح هولاء في خداع ركن الدين ، فأمر كل قلاعه بالتسليم ، فاستجاب له معظم زعماء القلاع ، عدا زعماء الموت ولاماسار وكردكوه ، أما الموت فقد قاومت لعدة أيام ثم استسلمت ، وأما لاماسار فقد صمدت لأكثر من عام ، وتمكنت كردكوه من الصمود لعدة أعوام .

وفي الوقت الذي نفذ فيه ركن الدين ما وعد به ، فإن التتار — كما هي عابدهم — لم يوفوا بعهدهم ، فدمروا كل ما وقع تحت أيديهم من قلاع الحركة ، وقتلوا أعضائها ، حتى أسرة ركن الدين لم تفلت من القتل ، أما هو فكان مصيره الإعدام في النهاية بعد عدة محاولات فاشلة لإنقاذ نفسه .

ولقد تمكن التتار في نهاية الأمر من تدمير كل القلاع التي ظلت صامدة أمامهم ، بما فيها قلعة الموت سنة (٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ م) ، ولكن هذا الحدث لا يعني أبداً نهاية الحركة ؛ إذ أنها تمكنت من الدخول في دور ستر جديد مغرق في السرية والتخفي ، لابسة خرق الصوفية . وكالعادة في التاريخ الإسماعيلي تمكن رجال الحركة من إنقاذ طفل لركن الدين خورشاه اسمه شمس الدين محمد الملقب بـ « اقاشمي » الذي خلف أباه في إمامة الحركة . ومنذ ذلك الوقت انتشروا في الهند وزنبار وشمال فارس . ويعرفون الآن باسم الخوجات أو المولوية أو الأغاخانية ، نسبة إلى أسرة « أغاخان » الأسرة الأخيرة المعاصرة لنا من أئمة الفرقة . ونشاط هذه الأسرة الآن بقيادة أغاخان الرابع كريم بن علي بن محمد ، تنحصر في المجال الخيري والبحث والأعمال العلمية والإنسانية بعيداً عن أي لون من ألوان الصراع الاستراتيجي .

حركة الحشاشين في سوريا

- نشاط الحركة يمتد إلى سوريا .
- الخطوة الأولى للحركة في سوريا .
- أبو طاهر الصائغ .
- بهرام يقود الحركة .
- إعادة تنظيم صفوف الحركة .
- خيانة المرغيناني ونكبة جديدة للحركة بدمشق .
- الحركة تجدد نفسها مرة أخرى .



حركة الحشاشين في سوريا

عندما تبلورت حركة الحشاشين في إيران ، وحقت نجاحاً كبيراً ، كانت عيناً حسن الصباح متجهة إلى مصر حيث الخلافة الفاطمية قبلة الشيعة الايديولوجية في ذلك الوقت ، وكان يطمع الحسن في أن يعيد الأمور إلى نصابها بعد اغتصاب المستعلي للحكم من أخيه نزار الذي كان يؤيده الحسن . ولكن كان من الصعب على أي جماعة شيعية مناوئة للمستعلي أن تجد لها مكاناً ونفوذاً في مصر . ومن هنا فكر الحسن في أقرب مكان يستطيع أن يرسل منه فدائييه إلى مصر لكي يقوموا بالمهام المنوطة بهم .

وقد رأى الحسن أن أفضل مكان هو سوريا ؛ لنفس الأسباب التي جعلته يفضل من قبل الأماكن الجبلية في إيران . فطبيعة تلك المنطقة الجغرافية بما فيها من جبال ووديان وصحارى ومضاب وعرة تتيح للحركة اتخاذ نقاط تركز حصينة يصعب على المهاجمين اقتحامها . كما أن كثيراً من سكان تلك المناطق ينتمون إلى فرق شيعية مختلفة كالدروز والعلويين والنصريين ، فضلاً عن وجود إسماعيليين خُلص . وبالإضافة إلى هذا فإن طبيعة الانقسام والصراع بين تيارات متعددة يهيء للحركة العمل بحرية أكثر مما لو كانت هناك سلطة سياسية واحدة ، فقد كان هناك ثلاث قوى سياسية كبرى ، هي : السلاجقة في الداخل ، والفاطيون في الجانب الخارجي الغربي الموازي لساحل البحر المتوسط ، ثم قوة الصليبيين الذين أتوا حديثاً واستطاعوا السيطرة على أنطاكية والقدس وطرابلس وأديسا وتحويلها إلى مناطق مسيحية .

الخطوة الأولى للحركة في سوريا :

وأول خطوة استطاعت أن تخطوها حركة الحشاشين في سوريا ، هي استغلال الصراع الذي حدث بين أمراء السلاجقة ، ولأسيما الصراع بين دقاق حاكم دمشق ، وأخيه رضوان حاكم حلب ، وجناح حاكم حمص وصهر رضوان .

فقد تمكن المنجم الطيب كبير الدعاة بسوريا ورسول الحسن الصباح أن يتحالف مع رضوان ويجتذبه للحركة ، ونجح هذا الداعي في إفساد ما بين رضوان من جهة وجناح ودقاق من جهة أخرى ؛ حيث أقنعه أنهما يدبران للاستيلاء على إمارته ، فغضب منهما وأظهر لهما العداء رغم ما بينهما من قرابة . وقد ظن رضوان أن انضمامه إلى حركة الحشاشين يكسبه تأييدهم ومعاونتهم ؛ مما يرجع كفته على الأمراء من حوله ، ولم يفطن إلى أنه كان يعمل لمصلحتهم وينفذ أهدافهم .

وقبل أن تتحالف حركة الحشاشين مع رضوان ، كان أعضاؤها لا يزيدون على مائتين في حلب يخفون عقيدتهم ولا يجرؤون على إظهارها ، فلما انضم رضوان إليهم ، وجعل أكثر حاشيته منهم ، جاہروا بعقيدتهم وأخذوا يدعون إليها ، وقد وجدوا أمامهم تربة خصبة ؛ فالمدينة يقطنها عدد كبير من الشيعة الاثني عشرية ، ولاشك أنهم أقرب إلى إسماعيلية الموت من الفرق الأخرى .

ونظراً لأن رضوان كان يوجه جل اهتمامه للصراع مع دقاق وجناح ، فإنه لم يكن يهتم كثيراً بمقاومة الصليبيين ؛ مما دفع صهره جناح حاكم حمص إلى انتقاده . وكان من أثر ذلك أن وقعت حرب بين الأميرين ، انتهت بهزيمة رضوان ، واستولى جناح على ذخائره ، وأسر عدداً من رجاله منهم وزيره . أما الداعي الإسماعيلي المنجم الطيب فقد هرب إلى مكان مجهول ، حيث دبر بالتنسيق مع رضوان لاغتيال جناح .

وعندما حاصر الصليبيون قلعة حصن الأكراد في شهر نيسان سنة ١١٠٢ م ، قرر جناح الدولة الإسراع لنجدة حامية القلعة ، وقبل مسير الجيش

ذهب ليصلى الجمعة في المسجد ، فهاجم عليه ثلاثة من الفدائيين كانوا بلباس الدراويش وقتلوه . وتقدم الصليبيون على الأثر لمحاصرة حمص ، ولكنهم ارتدوا عنها بعد أن أخذوا الجزية من أهلها ، واستولى دقاق شقيق رضوان عليها ؛ إذ كان جيشه فيها ، ولكنه لم يكن مثل جناح الدولة قوة وشجاعة . وبعد ذلك بمدة قصيرة مات فجأة كبير دعاة الموت في سوريا الطبيب المنجم ، ويذكر بعض المؤرخين أنه أُغتيل .

أبو الطاهر الصائغ :

وقد تولى إدارة شؤون الحركة بعد المنجم ، أبو طاهر الصائغ ، وكان من أصل فارسي ، وسعى أبو طاهر مع رضوان حاكم حلب للحصول على بعض الحصون ، فحصل على حصن سورمين الذي تركز فيه أحد كبار دعاة الحركة بسوريا ويسمى أبو الفتح .

وحتى الآن لم تكن قوة حركة الحشاشين في سوريا بالقدر الذي يمكنها من فرض سلطانها على البلاد ، ويبدو أن الحسين بن الصباح في إيران لم يكن يمدّهم برجاله من الفدائية إلا عند الضرورة القصوى ، حيث كان بحاجة ماسة إليهم هناك . وكان يلزم الحركة في سوريا حتى تتمكن أقدامها فيها من الاستيلاء على مزيد من الحصون الاستراتيجية التي تمكنها من شن هجماتها ، ثم التحصن والصمود ضد الهجمات المضادة .

وفي ٣ فبراير ١١٠٦م نجحت عملية الاستيلاء على حصن أفاميا وقتل صاحبها خلف بن ملاعب . ولم تستمر سيطرة الحركة على هذا الحصن ، حيث شن تنكرد أمير أنطاكية الصليبي هجوماً عليه هو وحصن سورمين ، واستولى عليهما بعد حصار عنيف ، وقبض على أبي الفتح وقتله ، وأثناء قيام أبو طاهر برحلة سريعة إلى الموت مركز الحركة الأساسي ، بهدف شرح الموقف للحسن الصباح وتلقى تعليمات جديدة .

وبعد هذه الإنتكاسة المفاجئة بعدة سنوات ، وبالتحديد في سنة ١١١٣م ، استطاع الحشاشون بمساعدة حليفهم رضوان اغتيال حاكم الموصل السلجوقي

مودود بن التونتكين عندما حضر بجيشه لتدعيم قوة المسلمين في مواجهة الحملات الصليبية ، وكان طغتكين حاكم دمشق قد استنجد به ؛ لما كان يقوم به بغدوين ملك الفرنج من غارات متوالية على دمشق أدت إلى مرورها بأزمة اقتصادية كبيرة . وقد سارع مودود بجمع قواته والخروج إلى دمشق ، فعبر الفرات آخر ذى القعدة سنة ٥٠٦ هـ ، وعندما علم طغتكين بخبر وصوله خرج لاستقباله ، وقابله عند سلمية ، واتفقا على محاربة بغدوين ملك القدس ، ثم توجهوا إلى الأردن مع تيمرك صاحب سنجر والأمير أياز بن أيلغازي ، والتقوا مع جيوش الصليبيين عند طبرية في الثالث عشر من محرم ، وانتصر المسلمون عليهم نصراً مؤزراً ، ثم عادوا إلى مناطق تمركزهم للاستراحة ، ونزل الأمير مودود بمرج الصفر وأذن لجنوده بالاستراحة على أن يعودوا للاجتماع في الربيع لمعاودة قتال الصليبيين . وظل مودود في خاصة جنوده ودخل دمشق ليقم عند طغتكين إلى الربيع ، فدخل الجامع يوم الجمعة في ربيع الأول ليصلي مع طغتكين ، فلما انتهوا من أداء الصلاة ، وخرج مودود إلى ساحة الجامع ويده في يد طغتكين هجم عليه فدائى من حركة الحشاشين فطعنه أربع طعنات وكان مودود صائماً ، فحملوه إلى دار طغتكين ، وحاولوا أن يفطر ، فلم يفعل وقال : « لا لقيت الله إلا صائماً » ، فمات في نفس اليوم . أما الفدائى فقد قبضوا عليه وقتلوه ، وعرضوا رأسه على الجماهير فلم يتعرف عليه أحد ، فأحرق . وقد اختلف أولوا الأمر في تحديد المسؤول عن اغتياله ، والجمهور على أن الحشاشين بالشام قد خشوا بطشه بهم فقتلوه ، ويذهب آخرون إلى أن طغتكين خشى نفوذه وقوته فوضع عليه من قتله . ويذكر بعض المؤرخين سخريّة من أمر مسلمى ذلك الزمان أن قائد الصليبيين لما علم بقتل مودود بعث إلى طغتكين برسالة فيها : « إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها ! » .

وفي نفس العام الذى اغتالت فيه الحركة الأمير مودود ، مات رضوان حاكم حلب حليفهم الرئيسى وخلفه ابنه ألب أرسلان ، وقد ازداد نفوذ الحركة في أول عهده ، مما أخاف ابن بديع رئيس حاميتها وأخاف كذلك أعيانها ، فزين

ابن بديع لألب أرسلان القضاء عليهم ، فاستجاب له ، وأمر بالقبض على كبيرهم أبي طاهر الصائغ وعلى جميع أعضاء الحركة ، فقتل أبا طاهر وجماعة من كبار دعائهم ، وأخذ أموال الباقين وسمح لهم بالخروج من المدينة ، ففرقوا في المدن ، وذهبت جماعة منهم إلى الصليبيين .

وبعد هذه المذبحة يذكر بعض المؤرخين أن أحد رجال حركة الحشاشين اسمه إبراهيم عندما نجا من المذبحة حاول مع مجموعة من أصحابه الاستيلاء على بلدة شيزر الواقعة على نهر العاصي ، عند انصراف النصاري إلى الاحتفال بأعيادهم ، ونجح في مفاجأة المدينة والسيطرة عليها ، ولكن استطاع سكانها بقيادة أمرائهم الاستيلاء على الباشورة وتسلقوا الأسوار بواسطة الحبال التي أدلاها لهم نساء المدينة اللاتي بقين فيها ، وهجموا على رجال الحركة وانتصروا عليهم ، فقتلوا منهم ما استطاعوا وهرب البعض الآخر .

وقد تمكن فدائيو الحركة من القيام بعدة عمليات نجحوا خلالها في اغتيال عدد من الشخصيات البارزة ، ففي سنة ٥١٠ هـ في شهر المحرم اغتالوا أحمديل ابن وهسودان الروادي الكردي صاحب مراغة وغيرها وهو جالس بجوار طغتكين حاكم دمشق ومجموعة من الأمراء في دار السلطان محمد ببغداد ، فقد أتاه رجل متظلم ويده رقعة وهو يبكي ويسأله أن يوصلها إلى السلطان ، فأخذها من يده ، فضربه الرجل بسكين ، فجذبه أحمديل وتركه تحته ، فوثب فدائي آخر وضرب أحمديل سكيناً أخرى ، فنزل عليهما الحاضرون بالسيوف ، ومع ذلك أقبل فدائي ثالث وضرب أحمديل ضربة ثالثة ، فعجب الناس من إقدامه بعد قتل صاحبيه . وقد ظن طغتكين والحاضرون أن طغتكين كان المقصود بالقتل بتدبير من السلطان ، فلما تبين لهم أنهم فدائيون من حركة الحشاشين زال هذا الظن .

بهرام يقود حركة الحشاشين في سوريا :

هذا ، وقد كان الذي تولى مركز كبير دعاة الحركة بالشام بعد مقتل أبي طاهر ، هو الداعية بهرام ابن أنخت الأسد أباذي الذي سبق لنا ذكر مقتله في

بغداد في فصل سالف ، وكان بهرام قد تمكن من الهروب إلى الشام ، فقام في مدنها بنشاط كبير في الدعوة إلى عقيدة إسماعيلية الموت ، فاستجاب له جمع كبير من عوامهم ، وكان يخفي شخصيته حتى يمكنه الحركة بسهولة والدعوة دون التعرض للخطر .

وعندما قوى نفوذه ، وكثر أتباعه في مختلف بلاد الشام ، ولاسيما في حلب ، تحالف مع حاكمها أيلغازي وصادقه ، وقد أقدم الأخير على ذلك خوفاً منه وفي نفس الوقت اعتضاداً به .

واقترح إيلغازي على طغتكين حاكم دمشق أن يستضيفه عنده ، فقبل ضيافته . وفي دمشق أعلن بهرام عن شخصه وجاهر بموقفه وعقيدته ، ونجح في اكتساب أنصار جدد إلى الحركة ، حتى أصبح أتباعه أضعافاً مضاعفة . وكان يؤازره الوزير أبو طاهر بن سعد المرغيناني بهدف الاستفادة منه في مواجهة خصومه .

ونظراً لأن غالبية أهل دمشق يغلب عليهم المذهب السني ، وقد أبدوا امتعاضهم من نشاطه ، فإنه خشي أن ينقلبوا عليه وعلى أتباعه في أي لحظة ، مما دفعه إلى طلب حصن من طغتكين ، يتحصن فيه هو وأتباعه ، فاقترح وزيره المرغيناني إعطاؤه قلعة بانياس ، فوافق وأعطاهما له .

فتوجه إليها بهرام ، وتبعه رجاله وسائر أعضاء الحركة من مختلف جهات الشام ، فعظمت شوكتهم ، واتسع نفوذهم ؛ مما أغضب علماء الدين ولاسيما أهل السنة ، ولكنهم لم يستطيعوا فعل شيء ، فسكتوا على مضض ، خوفاً من حكامهم أولاً ، ومن بطش فدائيي الحركة ثانياً .

ومن بانياس أرسل بهرام دعائه إلى عدة مناطق بالشام لمحاولة كسب مزيد من الأنصار ، أما هو فعندما اطمئن إلى قوة مركزه بدمشق ، قرر القيام بجولة دعائية في الجبال ، عاهداً بأمر القلعة إلى نائبه إسماعيل أحد كبار الدعاة ، وكان هدفه الأساسي هو الحصول على حصون وقلاع جديدة ، وبالفعل نجح في شراء البعض والاستيلاء عنوة على البعض الآخر . وقد اتخذ هذه القلاع كمركز

لشبن غاراته على وادى التيم من أعمال بعلبك ، وكان يقطن هذا الوادى أصحاب مذاهب مختلفة من النصيرية والدروز والمجوس وغيرهم .

وفى سنة ٥٢٢ هـ قام بهرام بهجوم على الوادى ، فحاصره . ولكن استطاع أمير المنطقة « الضحاك » أن يرد بهجوم مضاد بواسطة ألف رجل ، ففاجأ بهرام وجنده ، وانتصر عليهم بعد أن قتل بهرام وعدداً كبيراً من أتباعه ، أما من نجا منهم فقد عاد إلى قلعة بانياس .

إعادة تنظيم صفوف الحركة :

بعد مقتل بهرام وانهزام الحركة هذه الهزيمة المرة ، قام نائبه إسماعيل فى بانياس بإعادة تنظيم صفوف الحركة ، وساعده فى ذلك الوزير المرغينانى . وفى تلك الأثناء كان نجم أحد دعاة إسماعيلية الموت يعلو فى دمشق ، وهو أبو الوفا ، الذى ساندته أيضاً الوزير المذكور كخليفة لبهرام . وقد حقق هذا الرجل نجاحاً بالغاً حتى صارت كلمته أعلى من كلمة حاكمها تاج الملوك .

خيانة المرغينانى ونكبة الحركة بدمشق :

جرت فى هذه الفترة مفاوضات بين الوزير المرغينانى وبين الصليبيين على أساس أن يسلمهم دمشق مقابل تسليمه مدينة صور وتعيينه حاكماً عليها ، وانتهت بينهم تلك المفاوضات على ذلك ، وتحدد الميعاد بينهم فى أحد أيام الجمعة ، واتفق المرغينانى مع رجال حركة الحشاشين على أن يقوموا فى ذلك اليوم بمنع الجماهير من الخروج من الجامع حتى يحضر الصليبيون ويتخذوا مواقعهم فى المدينة .

فتسرب هذا الاتفاق إلى حاكم دمشق تاج الملوك ، فاستدعى المرغينانى إلى قصره ، وعندما جاء إليه انفرد به تاج الملوك وقتله ، وعلق رأسه على باب القلعة . وأصدر أوامره إلى حاميته وأهل المدينة بقتل جميع رجال حركة الحشاشين ، فتمكنوا من قتل ستة آلاف ، وكان ذلك فى منتصف شهر رمضان سنة ٥٢٣ هـ .

ولما علم بذلك إسماعيل خليفة بهرام بقلعة بانياس خشى أن تثور الجماهير عليه وعلى أتباعه ، فتكون عاقبتهم مثل أولئك ، فراسل الصليبيين وفأوضهم على أن يسلمهم القلعة في مقابل أن يأووه هو وأتباعه في مدنها ، فاتفقوا معه على ذلك ، وتسلموا القلعة ، وانتقل هو وأصحابه إلى مناطق نفوذهم بالشام ، فعاملوهم معاملة قاسية ، ولم يعيش إسماعيل بعد ذلك طويلاً فمات في أوائل سنة ٥٢٤ هـ .

وبعد هذه المذبحة الكبيرة لرجال حركة الحشاشين بدمشق ، لم يكن ليسكت زعماء الموت في إيران دون أن يردوا الرد المناسب على المسؤول الأول عن هذه المذبحة ، فكلفوا مجموعة من الفدائيين بالتوجه إلى سوريا للانتقام من حاكم دمشق تاج الملوك بوري بن طغتكين ، وفي سنة ٥٢٥ هـ تمكنوا من التسلل إليه وطعنه طعنتين ، فشفى من إحداها ، وتَنَسَّرَ^(١) الجرح الناتج عن الطعنة الأخرى ، وقد ظل يتألم منه ، ومع ذلك فإنه كان يقوم بواجباته كحاكم . ولكن بمرور الوقت كان الألم يزداد به ، والضعف ينخر في بنيته ، وبمجيء الحادى والعشرين من رجب سنة ٥٢٦ هـ بلغ الأمر منتهاه ، فتوفى الرجل .

الحركة تجدد نفسها مرة أخرى :

وكما هو الحال مع هذه الحركة شديدة البأس ، فإنها كانت تخرج من كل أزمة أو انتكاسة ولدى أتباعها إصرار أقوى على الانتشار والسيطرة والتوسع . ففي سنة ٥٢٧ هـ اشتروا قلعة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون ، وتمركزوا فيه ، وأخذوا يقومون بهجمات متعددة على المجاورين لهم من المسلمين والصليبيين على حد سواء .

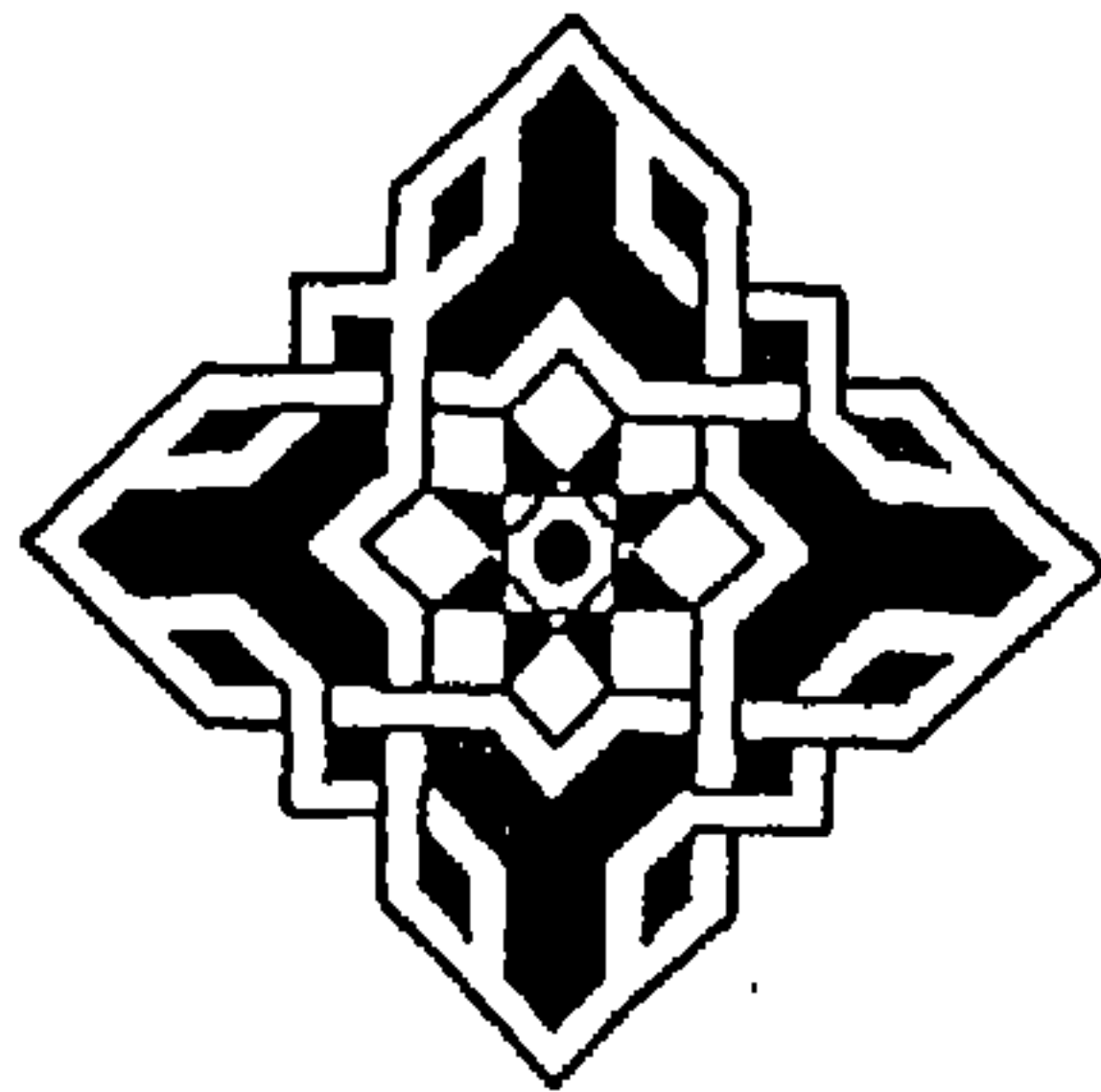
ثم والوا حصولهم على عدة قلاع أخرى ، تارة بالشراء ، وتارة بالقتال ، وتارة بالخدعة ؛ نذكر منها قلعة الرصافة ، والمنيقة ، والخواوى ، والعليقة ، ومصيف .. وتلك الأخيرة كان واليها مملوكاً لبنى منقذ أصحاب شيزر ،

(١) تَنَسَّرَ الْجُرْحُ : أى انتشرت يَدُّهُ لانتفاضه .

تمكنوا من الاحتلال عليه ، حتى صعدوا إلى القلعة ، ثم قتلوه ، واستولوا عليها ، وذلك في سنة ٥٣٥ هـ .

وحتى هذه اللحظة لم يكن لهم موقف محدد أو ثابت تجاه الصليبيين ، فقد كانوا متقلبين في محالفتهم ، فتارة كانوا يحاربون معهم ضد طوائف المسلمين الأخرى ، وتارة يتحالفون مع المسلمين ضد الصليبيين ، وقد نشب النضال والصراع حيناً بينهم وبين فرسان الهيكل (وهم طائفة سرية من الصليبيين) ، ثم تفاهما ولعبا أدواراً مختلفة في الحروب الصليبية . وما يذكره المؤرخون أن فرقة من الحشاشين تحالفت مع ريموند والى أنطاكية في مواجهة نور الدين زنكي ، فقد كانوا يناصبون الزنكيين عداً شديداً ، لاسيما بعد أن لغى نور الدين الصيغة الشيعية للأذان في حلب .

وآخر ما نسجله لحركة الحشاشين في هذه المرحلة أن فدائياً تمكنوا سنة ٥٤٤ هـ من اغتيال زعيم وادي التيم « الضحّاك » الذي كان قد انتصر من قبل على مجموعة منهم بقيادة بهرام — كما سبق أن أشرنا — وقتل بهرام . ثم قتلوا سنة ٥٤٥ هـ حاكم طرابلس الصليبي الكونت ريموند الثاني ؛ مما عرضهم لهجوم الصليبيين الذين أكرهوهم على دفع الجزية .





قلعة مصيف



كتابة منحوتة على حائط قلعة مصيف (سوريا)

العصر الذهبي للحشاشين في سوريا

راشد الدين سنان بن سلمان :

من الواضح حتى الآن أن المؤشر البياني لحركة الحشاشين في سوريا كان بين الصعود والهبوط ، ورغم ظهور زعماء أقوياء للحركة إلا أننا لم نجد منهم زعيماً يذكر بقدرات مؤسس الحركة الأول الحسن الصباح .

وظل الحال هكذا حتى ظهر في الأفق قائد قدير متمكن ، هو سنان بن سلمان : راشد الدين^(١) .

ولم يكن هذا الرجل أول أمره سوى داعية من دعاة الإسماعيلية النزارية ، وكان مولده في البصرة سنة (٥٢٨ هـ = ١١٣٤ م) ، ودرس مختلف العلوم الجدلية والفلسفية في مطلع حياته ، ثم اضطر لأسباب عائلية أن يتوجه إلى قلعة الموت ، حيث أكمل دراسته المذهبية . وعندئذ صدرت إليه أوامر من القيادة العليا بالتوجه إلى سوريا لتدعيم صفوف الحركة هناك ولبت جرعة جديدة من النشاط في دماؤها .

وقد أظهر راشد الدين تقوى وصلاً وتمسكاً بالعقيدة الإسماعيلية ، ونشاطاً كبيراً في نشرها ؛ مما جعله يسمو شيئاً فشيئاً في أعين رجال الحركة ، حتى صار أفضلهم علماً وعملاً ودراية بالواقع السياسي ؛ الأمر الذي مكّنه من أن يصبح « داعي الدعاة » و « شيخ الجبل » ابتداء من سنة (٥٥٨ هـ = ١١٦٢ م) .

وتحت إدارة سنان المنظمة الحازمة ، ارتفع شأن حركة الحشاشين في ربوع الشام ، وأخذ نفوذ سنان نفسه في الإشعاع والارتفاع ، وأصبح في نظر رجاله يساوي نفوذ الحسن الصباح . هذا في الوقت الذي كان فيه نفوذ الموت آخذاً في التراجع .

(١) راشد الدين ، وليس رشيد كما يذكر خطأ بعض الكتاب . انظر : ابن خلكان ٥٢١: ٢ ، والبداية والنهاية ٨٩: ٣ ، والأعلام ١٤١: ٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



صورة راشد الدين سنان
كما تخيلها أحد الرسامين

وحتى هذه اللحظة كان سنان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالقيادة العليا في « الموت » ؛ ولا أدل على ذلك من أنه استجاب لإعلان قيامة القيامة الذي قام به — كما سبق أن فصلنا القول — الإمام حسن ؛ فرفع سنان عن أتباعه كل تعاليم الشريعة ، وأسقط جميع الفرائض ، وأباح لرجاله حرية العلاقات الجنسية مع النساء .

ولكن بمرور الوقت ، وبشعور سنان المتزايد بقوته وقوة حركته في الشام ، أخذ يعمل بالتدريج على الاستقلال عن قيادة الحركة في « الموت » ، وبالفعل تمكن من الانفصال التام وأصبح يدرس نشاطه في الشام بشكل مستقل عن الحركة في إيران .

ولما أحس قائد الحركة في إيران بذلك ، أرسل مجموعة من فدائييه لاغتيال سنان ، ولكن سنان تمكن من معرفة المؤامرة ، واستطاع إحباطها ؛ فاستصفي بعض الفدائيين المكلفين بالمؤامرة وضمهم إليه ، وقتل الباقين .

وفي الوقت الذي ثبتت فيه أركان الحركة في الشام بزعامة سنان ، ظهر صلاح الدين البطل السني العظيم الذي أسقط الخلافة الفاطمية في مصر ، وشرع في طرد الصليبيين من الأراضي الإسلامية ، وعمل على إعادة وحدة الصف الإسلامي .

وفي البداية اعتبر الحشاشون صلاح الدين عدواً رئيسياً لهم ؛ فدبروا لاغتياله مرتين ، ومن حسن الحظ أن المحاولتين فشلتا . ولا شك أن الاعتداء على صلاح الدين كان محاولة خطيرة وغير مسؤولة ، وكان نذيراً بما بلغه أولئك الرجال المرعبين من القوة والنفوذ ؛ فعزم صلاح الدين على سحقهم وإبادتهم قبل أن يستفحل شرهم أكثر من ذلك ، فهاجم قلعة مصياف معقلهم الرئيسي ، وحاصرها حصاراً شديداً ، وجرت مفاوضات بينه وبين سنان شيخ الجبل بواسطة صاحب حماة خال صلاح الدين ، وذلك بطلب من سنان ، وقد نجحت المفاوضات ، وانتهت بتحالف قوى بين صلاح الدين وسنان شيخ الجبل . ولا شك أن صلاح الدين كان موقفاً في هذا الإجراء ؛ فهو يسعى أولاً

وقبل كل شيء لوحدة المسلمين في مواجهة الخطر الصليبي ، ولاشك أن تحالفه مع الحشاشين الأقوياء ذوى الأساليب الخارقة في اغتيال زعماء الخصوم — خطوة على هذا الطريق ، وفضلاً عن هذا فإن صلاح الدين كان يريد استثمار طاقة جنوده وقوتهم لمهام أكثر أهمية وجذرية ، لاسيما وأنه عَلِمَ أثناء حصاره لمصياف بهجوم الصليبيين على وادي البقاع ، الأمر الذى يتطلب سرعة توجهه لملاقاتهم .

وبعد هذا الاتفاق التزم الحشاشون بما تعهدوا به لصلاح الدين ، وتعاونوا معه تعاوناً كبيراً فى الحروب الصليبية ؛ حيث كانت فرقة عسكرية كاملة منهم تحارب مع صلاح الدين ، وكانت هذه الفرقة تحت قيادة الأمير محمد الأيوبي ابن أخى صلاح الدين .

ومع هذا التعاون الوثيق بين سنان وصلاح الدين ، إلا أن سنان استطاع أن يحافظ على استقلالية حركته ، بشكل لا يتعارض مع روح الاتفاق المبرم مع صلاح الدين .

وبمجيء عام (٥٨٨هـ = ١١٩٢م) تمكن الفدائيون من القيام بعملية اغتيالية كبرى ، راح ضحيتها المركز « كوبراد أوف مونتفيرات » ملك القدس ؛ حيث قامت مجموعة من القدائين بالتخفى فى زىّ رهبان النصارى ، مما مكنهم من الوصول إليه أثناء تواجده بمدينة صور ، وعندما اقتربوا منه انهالوا عليه بطعنات خناجرهم المسمومة .

وفى نفس هذا العام الذى نجحت فيه الحركة فى اغتيال تلك الشخصية الصليبية التى كانت تلعب دوراً محورياً فى الحروب الصليبية — أقول فى نفس هذا العام (٥٨٨هـ = ١١٩٢م) توفى مقدّم الحركة الزعيم المرعب : سنان شيخ الجبل ، الذى تمكن من قيادة الحشاشين فى الشام ، مدة ثلاثين عاماً ، بمهارة عالية تذكرنا بالحسن الصباح مؤسس الحركة الأولى .

الحركة فى سوريا بعد رحيل سنان :

وبموت سنان شيخ الجبل انتهى العصر الذهبى لحركة الحشاشين فى الشام ، ولكن ظل خلفاؤه شيوخ الجبل يمارسون دوراً أساسياً على مسرح الأحداث السياسية ، واستمروا فى توظيف الاغتيال كسلاح قوى ضد خصومهم من الصليبيين ، وتمكنوا من الحصول على جزية من الأمراء الفرنجة تحت التهديد بالاغتيال .

وعندما وصل التتار إلى الشام عملوا على القضاء على الحشاشين ، ونجحوا فى الاستيلاء على بعض قلاعهم ، ولكن أصحابها عادوا فاستردوها عند انتصار بيرس القائد المصرى على التتار .

وبعد النجاح الساحق والانتصارات المتوالية التى حققها بيرس أقرت الحركة بالخضوع له ، وقدمت له رجالها الماهرين ليصبحوا تحت تصرفه . ومنذ ذلك الوقت صاروا مجرد مجموعات صغيرة ليس لها تأثير على مجرى الحوادث ، وأصبحوا يعتمدون فى نشاطهم أساساً على الزراعة ، وبعضهم يخضع الآن لإمامة أغاخان .

هذه كانت نهاية الحشاشين فى بلاد الشام بعد فترة ازدهارهم أثناء الحروب الصليبية ، تلك الحروب التى ظهرت فيها براعة خططهم ، وأصبحت حديث الغرب والشرق ، ومصدر إلهام ووحى لكثير من الحركات السرية فى العصور الوسطى والحديثة .



نظرية الوجود

- الألوهية .
- كيف بدأ الخلق ؟ .
- لماذا خلق الله العالم ؟ .
- نظام الوجود العلوي .
- نظام الوجود السفلي .

نظرية الوجود

الألوهية :

تقوم عقيدتهم في الألوهية على تنزيه الله تعالى عن التشبيه بكل ما هو صادر أو ناشئ عنه : فهو لا يعرف ، ولا يوصف ، ولا يسمى ؛ فلا يمكن أن يُنسب إليه اسم ولا صفة ولا نعت ولا وجود ولا عدم وجود : « فلا يقال عليه حي ، ولا قادر ، ولا عالم ، ولا عاقل ، ولا كامل ، ولا تام ، ولا فاعل ؛ لأنه مبدع الحي القادر العالم التام الكامل الفاعل . ولا يقال له : ذات ؛ لأن كل ذات حاملة للصفات » [كنز الولد للحامدي : ص ١٣ — ١٤] .

فلا تدركه الأبصار ولا العقول ؛ لأنه غيب الغيوب ، ومبدع الوجود . فالمبدع فوق الكائنات ، وهو ليس بكائن ولا يكون ؛ إنه يمنح الكينونة ، وهو فعل الكينونة ذاته .

ومن هنا فالتوحيد عندهم توحيد جدلي يحاول تجنب الوقوع في شرك التعطيل من جهة ، وشرك التشبيه من جهة أخرى . ولذا فإن جدلية التوحيد جدلية سلبية مزدوجة : فالمبدع هو في آن واحد « عدم — وجود ، وليس بعدم — وجود » ؛ « لا — زماني ، وليس بلا — زماني » .. إلخ .

وكل نفى لا يكون صحيحاً إلا إذا نفى هو الآخر . فالحقيقة هي في وقوع هذين النفيين في آن واحد ، وهذان لا يكتملان إلا بعمليتي : التنزيه ، والتجريد . أما عملية التنزيه فهي أن نبعد عن الله الأسماء والأعمال التي تنسب إلى « الحدود » أي أصحاب الرتب السماوية والأرضية . وأما عملية التجريد فهي أن نجرده تعالى بجعله مفارقاً للظواهر التي تنشأ عنه .

وإذا كان الله عندهم منزهاً عن كل اسم وصفة ، فإن الأسماء الحسنى وصفات الكمال إنما يتسمى بها ويتصف الموجود الأول أو العقل الأول الذى أبدعه المبدع ، فهذا العقل الأول محل لجميع الصفات المثلى والأسماء الحسنى ، يقول الكرمانى : « إذا كان الله عرياناً عن كل صفة ، فإن صفات الكمال موجودة فى أول مُبدع أبدعه ، فهو (= أول مُبدع) الحق والحقيقة ، وهو الوجود الأول ، وهو الوحدة ، وهو الواحد ، وهو الأزل ، وهو الأزلى ، وهو العقل الأول ، وهو المعقول الأول ، وهو العلم ، وهو العالم الأول ، وهو القدرة ، وهو القادر الأول ، وهو الحياة ، وهو الحى الأول » [راحة العقل : ص ١٨٩] .

كيف بدأ الخلق ؟ :

كيف بدأ الخلق ؟

كيف كانت النشأة الأزلية لعالم الإبداع ؟

يزعم مفكرو الإسماعيلية ودعاتهم أن الإله المتعالى أبدع عالم الإبداع دفعة واحدة ، على شكل أشباح نورانية وصور محضة متساوية فى الكمال الأول الذى هو الوجود والحياة والقوة والقدرة ، مثلها مثل حبات ثمرة التين .

ثم حدث أن واحداً من تلك الأشباح نظر بذاته إلى ذاته وأبناء جنسه ، فعلم أن له مبدعاً مغايراً له ولهم ، فأثبت له الألوهية والوحدانية ؛ وعندئذ اتصل به من مبدعه التأييد الإلهى « والعلم الجارى والنور السارى » الذى هو كلمة الله ، ويسمى أيضاً « الأمر » و « روح القدس » ، وذلك العلم الذى جاءه من المتعالى هو كماله الثانى ، وبهذا العلم صار عقلاً كاملاً أزلياً محيطاً بكل شئ عالماً لما كان وما يكون ؛ فاتخذ المتعالى حجاباً وصار « الاسم الأعظم » الذى به وحده يتوسل إلى المتعالى ..

ثم انتبه شبحان آخران من تلك الأشباح النورانية إلى نفس ما انتبه إليه هذا العقل الأول ، ولكن أحد الشبحين سبق الآخر ، فنظر بذاته إلى ذاته وإلى بنى

جنسه كما نظر العقل الأول ، فعلم — كما علم — أن له مبدعاً فوحده ونزّهه
وقدّس العقل الأول « السابق » له ، فاتصل بواسطته بالنور الإلهي الساري
والعلم الجارى ، فحصل على كماله الثانى وصار عقلاً أزلياً كاملاً لا فرق بينه
وبين الأول إلا برتبة السبق ، فكان الأول هو « السابق » وكان الثانى هو
« التالى » .

عندئذ اتحد السابق بالتالى واتخذ حجاباً وباباً ، وأقام الدعوة بأن خاطب
الأشباح النورانية ودعاهم إلى تأليه المتعالى وتوحيده ، فاستجاب له سبعة
أشباح الواحد بعد الآخر ، كل منهم وحد المتعالى ونزّهه واعترف برتبة العقل
الأول وبكونه « السابق » وبالعقل الثانى وبكونه « التالى » ، وهنا اتصل
بالأشباح السبعة النور السارى والعلم الجارى من خلال العقليين الأول والثانى
وبواسطتهما ، فحصلوا على كمالهم وصاروا عقولاً سبعة ، هى عقول الكواكب
السبعة السيارة .

ولكن الشبح النورانى — الذى سبق الإشارة إلى أنه قد انتبه هو والشبح
الذى صار « التالى » إلى نفس ما انتبه إليه العقل الأول « السابق » — قد
ارتكب خطأ ؛ إذ اعتقد أنه وزميلة فى مرتبة واحدة ، فأراد أن يتخطاه ويتصل
بالعقل الأول مباشرة مستعجلاً هكذا فى الاتصال بالعلم المحيط ومعرفة الحقائق
قبل الأوان ، فكانت نتيجة محاولته القفز إلى الأول متخطياً الثانى أن انقطعت
عنه مادة السابق له ، مادته الإلهية النورانية ؛ فأظلمت ذاته ، وسقطت مرتبته ،
وصار عاشراً بعد أن كان الثالث .

وعندما استيقظ من غفلته ، وعلم أنه ارتكب زلة ، اعترف بخطئه ، وأعلن
التوبة ، وتوسّل بالعقول السابقة له التى حنت عليه ورمته بأشعتها النورانية ،
مما سمح له بالاتصال بالنور الجارى والعلم السارى ؛ فأشرق ذاته ، وتخلص
من تلك الظلمة ، وبلغ كماله الثانى ، وانتظم فى سلك العالم الروحانى . وهذا
العقل الثالث الذى أصبح العاشر هو آدم الروحانى .. آدم الملكوتى ..

ولما كان كل عقل من هذه العقول العشرة يحمل ضمنه ما لا يحصى من

الأشباح والصور النورانية (= العقول السماوية = الملائكة) تتبع في مصيرها مصير العقل الذى توجد فيه ، فإن الأشباح التى فى ضمن هذا العاشر قد زلت بزلاته ، ولكنها لم تتب مثل توبته ، حيث انقسمت فرقاً ثلاثاً :

فرقة وحدت المتعالى ، وقدست العقل الأول ، ولكنها تخطت الثانى فبقيت فى زلتها (ومنها حواء الروحانية زوج آدم الروحانى) ..

وفرقة أقرت بالمتعالى ، ولكنها لم تعترف بالعقل الأول ولا بالعقل الثانى ، وظنت أنها وإياهما فى مرتبة واحدة ..

وفرقة لم تستجب لنداء العقل الأول أصلاً ، فتكرت للدعوة وتكبرت واستكبرت ولم توحد المتعالى ولا التزمت بأحد العقول .

فلما تاب العاشر ، آدم الروحانى ، كلف بتخليص هذه الفرق الثلاث الضالة من الأشباح النورانية التى كان يحملها فى ضمنه ، فخاطبها ، ولكنها لم تستجب له فازدادت صورها ظلمة وازدادت مراتبها سقوطاً .

هكذا تراكمت تلك الأشباح الضورية كترام الغيوم والضباب ، وتحركت حركة لزمها بها الطول ، وكان مبدأ هذه الحركة حرارة ومنتهاها برودة ، ثم تحركت حركة ثانية فلزمها منها العرض ، وكان مبدأ حركتها رطوبة ومنتهاها برودة ، ثم تحركت حركة ثالثة فوقعت فى العمق ، وهكذا صارت تلك الأشباح من خلال حركاتها وبواسطتها هوى وصورة .

وكانت هذه الحركة بقصد من العناية الإلهية التى علمت أنه لا خلاص لتلك الأشباح الضالة إلا بقيام دعوة مماثلة للدعوة التى قامت فى دار الإبداع ، وإن هذه الدعوة الجديدة لا بد فيها من مكان وزمان وامتحان ليتطهر من يتطهر وبصير لطيفاً صافياً فيصعد .. ويبقى فى الظلمة من يبقى ويرتكس ويزداد كثافة وظلاماً .

ثم عمدت العناية الإلهية إلى ذلك الركام من الأشباح الذى صار هوى وصورة ، فصنعت من جزء منه — وهو جزء الفرقة الأولى — عالم الأفلاك

وهم الآباء ، ومن جزء آخر — وهو جزء الفرقة الثانية — عالم الأمهات أو العناصر الأربعة ، أما الباقي — وهو الفرقة الثالثة — فقد انعقد لشدة ظلامه حتى صار كالصخرة ، فجعلت منه العناية الإلهية الأرض .

وبتأثير الآباء (= عالم الأفلاك) على الأمهات (= عالم العناصر الأربعة) أخذت المعادن والنباتات والحيوانات في الظهور ، ثم تلا ذلك ظهور الإنسان .

لماذا خلق الله العالم ؟

تشير أصول الحركة العقائدية إلى استحالة معرفة حكمة الخلق ؛ فالسؤال عن « لماذا خلق الله العالم ؟ » سؤال غير منطقي وغير مقبول لديهم ؛ لأن الإنسان لما كان عاجزاً عن إدراك كيفية كون العالم ، فإنه بالأحرى أعجز عن إدراك حكمة خلقه . وإذا كان البعض يقولون إن كيفية خلقه كانت « بالأمر » فإنهم لم يعرفوا كيفية ذلك « الأمر » . وقد تكون حكمة الخلق داخلية في كلفيته ؛ وبالتالي يمتنع معرفة حكمته لعدم معرفة كلفيته .. يقول السجستاني : « .. ومن المتفق عليه أن أحداً لم يقف على كيفية كون العالم من الصانع ، وإن كان بعض الحكماء ، قد أطلقوا على أن كونه من الصانع بالأمر ، فلم يقفوا على كيفية ذلك الأمر . فلما اتفقت آراؤهم على أن درك كيفية كون العالم غير ممكن ، كان طلب لمية كونه أمحل وأبعد عن القياس . ولعل لمية داخلية في كلفيته ، فيعسر الوقوف على لميته لخباء كلفيته » [الينابيع : ص ١٠٣] .

وأيضاً فإن ملكة المعرفة التي يستخدمها الإنسان في محاولة معرفة حكمة خلق العالم ، إنما هي جزء من هذا العالم ؛ فكيف إذن يستطيع معرفة حكمة خلق العالم كله مع أن ملكة المعرفة جزء منه ؟ يقول السجستاني : « وأيضاً فإن القوة الباحثة على لمية خلق العالم في الإنسان جزء من العالم ، فكيف يمكنه الوقوف على لمية خلق شيء ، والقوة الباحثة جزء من الشيء الذي يريد الوقوف على لميته ؟ فإذا أمكنه الوقوف على لمية خلق العالم بالقوة الباحثة التي فيه ،

كانت هذه الصورة خارجة عن الشيء الذى أحاط الإنسان به ، . والجزء لا يخرج من كله » [الينايع : ص ١٠٤] .

وطالما أن معرفة حكمة خلق العالم متوقفة على معرفة كيفيته ، فإن الإنسان فى الوقت الذى يستطيع فيه أن يعرف كيفية كون العالم ، فإنه يمكنه معرفة : لماذا تُخلق ؟ لأن المرء إذا أحاط بكيفية كون شيء ما ، فإنه يجوز عقلياً أن يعرف حكمة وجوده .. يؤكد ذلك صاحب الينايع مع ضرب بعض الأمثلة التوضيحية فيقول : « إنما حكم أن السؤال عن لمية ما يدرك كيفية كونه محال ممتنع ، فأما إذا أحاط الإنسان بكيفية كون شيء ، ثم طلب لميته ، كان ذلك مستقيماً جائزاً فى العقل . ومثال ذلك كمن وقف على كيفية كون النبات من الطبايع بمعونة من حركات الأجرام العلوية ، جاز له أن يطلب لمية كونه ، ويمكنه الإحاطة به ، كمن وقف على كيفية كون الحيوان من الأمهات بمعونة النبات ، كان له أن يطلب لمية كونه » [الينايع : ص ١٠٣] .

وهكذا نرى من واقع نصوص المذهب الذى تنتمى إليه حركة الحشاشين أن حكمة خلق العالم مجهولة ، ولا يمكن اكتشافها قبل معرفة كيفية كون العالم ؛ لأن الإجابة عن سؤال « لم ؟ » تتوقف على الإجابة على سؤال « كيف ؟ » .

مماثلة العالم العلوى للعالم السفلى :

نرى من استعراض قصة الخلق عند الإسماعيلية أن نظام الوجود العلوى يتكون بخلاف المبدع من عشرة عقول تتدرج فى ترتيب هرمى محكم .

وبعد ذلك تقدموا خطوة أخرى ، فقالوا بأن نظامهم الدينى إنما هو على مثال العالم العلوى فكائنات ونظام الهيكل الإسماعيلى (= الحدود السفلية) تماثل العقول السماوية (= الحدود العلوية) ؛ فالنبي شيد نظام الدين على غرار نظام الوجود ، يقول هبة الله الشيرازى : « ... موضوع عالم الجسم وعالم الدين الذى هو الأوضاع الشرعية التى كنى الله عنها بالخلق والأمر — على أصل واحد ونسخة واحدة ، كما قال الله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وكما قال

النبي ﷺ : « إن الله تعالى أسس دينه على مثال خلقه ليستدل بخلقته على دينه وبدينه على وحدانيته » .. [المجالس المؤيدية : ص ٩٧] .

فكل الموجودات من أجسام متحركة ونفوس الأولياء والتابعين لهم وما أنزل الله من الكتاب والأحكام ، كل ذلك يماثل النظام العلوى ، يقول الكرمانى : « ذلك آثار خلق الآفاق التى تجمع عالم الجسم بما يحويه من متحرك وساكن والأنفس التى هى أولياء الله أجمع من نبي ووصى وإمام وتابع ، وما أنزله من كتابه وأحكامه المؤسس أمرها على مثال ما سبق عليها فى الوجود من العالم » .

ومن هنا فإن معيار صحة وصواب الشرائع هو مماثلتها لنظام الموجودات ، وإذا وجدت شرائع مخالفة لنظام الموجودات فهى باطلة ، يقول الكرمانى : « فما وافق خلق الله تعالى وطابقه من الأوامر والشرائع أخذوا به بأنه صحيح ، وما نافاه وخالفه منها أطرحوه عالمين بأنه سقيم » .

وكل ما غاب عن الحواس يجب تصور موجوداته ونظامها على أساس المماثلة مع نظام الدين وأصل الخلق : « وما غاب عن الحواس أخذوه على صيغته واعتقدوه على مثاله من قانون الشريعة وأصل الخلق » .

والدليل عندهم على وجود محاكاة بين نظام الدين ونظام العالم العلوى — بالإضافة إلى الآية والحديث السابق ذكرهما — أن النبي : « سلك صلى الله عليه وعلى آله فى التعليم والدلالة على الموجودات والهداية إلى اقتناء السعادات وتأليف الشرع وبسط السياسة الإلهية ، مناهج التشابه بالصانع فيما صنعه ليكون شرعه ، لكونه ميزاناً للمعالم الإلهية ، على صيغة موازنة مطابقة للخلق ، فوضع بإزاء كل موجود سنة من السنن وأمرأ من الأمور ليكون قد دل على ما علا من الحدود فى دين الله وكيفية أمرهم فى وجودها بما دنا وحضر منهم ، وتحصل بمعرفتهم الأشياء العالية وتصور مراتبها ، وجعل القائمين مقامه مهيمين على هذا العالم مختصين بفضيلته ، [وجعل] تابعيهم المنتسبين إليهم [مختصين] بحسن طاعتهم وعبادتهم لله تعالى » . [راجع هذا النص

والنصوص السابقة في راحة العقل للكرمانى : ص ٢٣٦ وما بعدها] .

ومن هنا فقد أجروا موازنة بين عالم الممثلات — الذى هو عالم العقول السماوية التى أبدعها الإله المتعالى : ابتداء من العقل الأول حتى العقل العاشر ، وبين عالم الأمثال الذى هو عالم الدين المسمى عندهم « الصنعة النبوية » : فإذا كان يوجد فى عالم الصنعة النبوية ، عالم الدين ، ناطق (= رسول) هو الموجود الأول فى هذا العالم ، فإنه يجب اتخاذه مثلاً والقول بوجود ممثل له فى عالم الألوهية هو العقل الأول (فلكه الفلك الأعلى) .

وإذا كان فى عالم الدين أساس (= الوصى) ، فإنه يجب اتخاذه مثلاً والقول بوجود ممثل له فى عالم الألوهية هو العقل الثانى (الفلك الثانى) .

وإذا كان الإمام فى عالم الدين يأتى فى المرتبة الثالثة بعد الناطق والوصى ، فإنه يجب اتخاذه مثلاً والقول بوجود ممثل له فى عالم الألوهية هو العقل الثالث (فلك زحل) .

وهكذا : فإن الباب ممثلوه هو العقل الرابع (فلك المشترى) .

ثم الحجة : ممثلوه العقل الخامس (فلك المريخ) .

ثم داعى البلاغ : ممثلوه العقل السادس (فلك الشمس) .

ثم الداعى المطلق : ممثلوه العقل السابع (فلك الزهرة) .

ثم الداعى المحدود : ممثلوه العقل الثامن (فلك عطارد) .

ثم المأذون المطلق : ممثلوه العقل التاسع (فلك القمر) .

ثم المأذون المحدود أو المكاسر : ممثلوه العقل العاشر (ما دون فلك القمر من الطبائع) .

عقائد ما بعد الموت

- مصير الطبقة الأولى من المؤمنين .
- مصير الطبقة الثانية من المؤمنين .
- مصير الكافرين .

عقائد ما بعد الموت

يتحدد مصير الإنسان روحاً وجسداً بعد الموت — في عقائد الحركة — على أساس انتائه العقائدى ، فيصنفون الناس قسمين : قسماً يؤمنون بالمذهب ، وقسماً يكفرون به .

والمؤمنون بالمذهب ينقسمون بدورهم إلى نوعين ، لكل منهما مصير يتناسب مع درجته في الإيمان ونصيبه من المعرفة والعمل .

مصير الطبقة الأولى من المؤمنين :

أما النوع الأول من المؤمنين : فهم « أهل المعارف الحقيقية ، والعلوم الإلهية ، والأعمال الصالحة ، والموالات لجميع الأئمة ، من ناطق الدور ووصيه إلى إمام الزمان وحدوده » [الأنوار اللطيفة في فلسفة المبدأ والمعاد للحارثى] .
فهؤلاء عندما تنفصل أرواحهم عن أجسادهم ، فإنها تأخذ طريقها إلى « جنة المأوى » حسب مرتبتها ؛ كالاتى :

بعد أن تفارق النفس جسدها تتخذ بالنفس التى فوق أفقها ، ثم تصعدا معاً إلى النفس التى فوقها ، وتندججا معاً فى نفس واحدة تتحد هى الأخرى بالنفس الموجودة فى المرتبة التى فوقها ، ويستمر الصعود واتحاد النفوس إلى أن يصار إلى النفس الكلية التى تعود إليها النفوس الجزئية .

والدليل على هذا من كتبهم أن ابن الوليد يشير فى كتابه « الذخيرة فى الحقيقة » : إلى أن إمام الزمان يحرك عمود النور فيجذب صورة المتوفى (أى نفسه) إلى صورة حده العالى « ليسمع سؤال من يسأله عن المعارف وجوابه بالحقائق ويرقى بالإفادة والاستفادة » ، فيستكمل الاطلاع على الحقائق حتى

إذا جاء دور انتقال حده العالى ذاك إلى صورة العالى عليهما جذبهما عمود النور إلى صورة هذا الأخير ، فتصير الصور الثلاث صورة واحدة ، وتستمر عملية اتحاد النفوس وصعودها على هذا النحو حتى الوصول إلى رتبة الحجة « مجمع انجمايع نهاية كل حد شريف إلى دار القدس .. جنة المأوى المجتمعة جميع المصور إلى شريف مقامه » . [الذخيرة فى الحقيقة : ص ٦٩ وما بعدها] .

على أنه ينبغي الإشارة إلى أن الحد العالى التى تنتقل إليه أرواح الأنبياء والأوصياء والأئمة عند انفصالها عن أجسادها هو « العقل العاشر » الذى هو « مجمع الأوائل منهم والأواخر .. فكل ناطق ووصى وإمام فنقلته إلى حرم العاشر الأمين فيكون الكل عنده مجتمعين إلى أن تتكامل المقامات الشريفة وينقضى دور بتمامه » [الذخيرة : ص ٩٢] .

ولكل روح من تلك الأرواح رتبتها وموضعها حسب درجة إيمانها ومعرفتها يقول الحارثى : « وعلى قدر مبلغ كل واحد منهم فى العلم والمعرفة والولاء يكون علوه فى ذلك الهيكل النورانى » .

هذا عن أرواح هذا النوع من المؤمنين ، أما أجسادهم ، فقد وجدنا فى كتب القوم اختلافاً بيناً وتعارضاً ملموساً حول تحديد مصيرها .

فعلى سبيل المثال يذكر الحارثى أن أجساد هذا الصنف من المؤمنين « تكون محفوظة فى أعز عز ، وأحرز حرز ، وذلك أنها تعود إلى السحيق بعد مفارقتهم لطائفهم ، ثم إلى المزاج والممتزج ، ثم تعود إلى الأرض أمطاراً ، ثم تلتطف إلى أن تحلل بخاراً ، وتصعد إلى فلك البروج فى أماكنها ، وينحدر ذلك من البروج إلى الأرض ، ثم يصير تراباً سحيقاً ، ثم ترتقى إلى أن تصير فى القامة الألفية إنساناً ، وذلك الصاعد الكائن خلفاً للمنحدر .. وعند كمال هذه الأشخاص وبلوغها الحلم تدعى فتجيب ويؤخذ عليها العهد الكريم ، وترتقى فى الرقب الدينية والمعارف الحقيقية شيئاً بعد شيء من غير أن يدخلها شك ولا يعرض لها شبهة ، بل تكون جارية فى مضمار الصعود ، إلى أن تبلغ مالها أن تبلغه ، وهو مبلغها الذى بلغته فى أول وهلة عند كونها وظهورها بالجثة الإبداعية : فالباب

يعود باباً ، والحجة يعود حجة ، وداعى البلاغ يعود داعى بلاغ ..
ولا يزالون كذلك كلما صفت نفس وصعدت إلى عالم الصفا ، انبعث في
جسمها المتخلف نفس أخرى بتدبير المتدبرات ونظر العناية الإلهية » .

فيفهم من كلام الحارثي أنهم يؤمنون بالتناسخ ، في حين أن المُطلع على
مؤلفات هبة الله الشيرازي وحميد الدين الكرمانى وابن الوليد يجد ما يفيد عدم
اعتقاد القوم في التناسخ .

وعلى سبيل المثال فإن ابن الوليد يتحدث عن مصير تلك الأجساد بشكل
يختلف تماماً عما قاله الحارثي ؛ حيث يؤكد ابن الوليد على أن نفوس المؤمنين
المتوفين بعدما تلتحق بجنة المأوى ، فإن العناية الإلهية تعمد إلى أجسامهم وتعمل
فيها « بالتخمير في قبورها ثلاثة أيام » من يوم الوفاة فتكون منها « فضلات
لطيفة » تصعد دخاناً وبخاراً إلى السماء فتجذبها أشعة الكواكب والأفلاك
إليها ، فتصعد أولاً إلى القمر « الذى هو الواسطة بين عالم الكون والفساد وبين
عالم الأجرام ، فتقيم فيه مدة ما يقدرها المدبر من الأيام والشهور والأعوام ، ثم
تنتقل إلى فلك عطارد .. ثم ... إلى فلك الزهرة » ، وبعد أن تستكمل تطهرها
من خلال تنقلها في هذه الأفلاك الثلاثة وتكون « قد ازدادت علواً وشرقاً »
تنتقل إلى « الباب الجرمانى الكبير الكريم والمحل الفلكى العظيم سراج العالم
ومصباحه » فلك الشمس « قلب عالم الأجرام وبيت الحياة والنور » حتى
تستكمل شرفها وتصبح « خميرة نامية .. مجتمعة ممتزجة لطيفة .. فتبهطها
العناية الإلهية على حسب ما صعدت : تدفعها الشمس إلى الزهرة ثم تدفعها
هذه إلى عطارد ثم يدفعها هذا إلى القمر ويدفعها القمر إلى الأرض فتحلُّ على
« شئ من الفواكه الطيبة والمياه اللذيذة العذبة » في شكل قطرات مطر وندى
« قد انصرفت وصفت بما فعلته الأفلاك فيها من العقد والحل » فيتغذى منها
إمام الزمان وزوجته « وتقع الملامسة بين العضوين الشريفين فيختلط جميع
المائتين اللطيفين » ، فتحمل زوجة الإمام ، وترعى الكواكب ذلك الجنين الذى
يتغذى بما انتقل إليه من تلك « الخميرة » عبر تلك الفواكه والمياه ..

وهكذا نرى أن ابن الوليد في كتابه « الذخيرة في الحقيقة » [ص ٨٢-٨٦] يتحدثنا عن مصير أجساد المؤمنين بعد الموت على أساس أنها تمر بمراحل تصبح في نهايتها الخميرة الإبداعية التي هي غذاء الإمام في بطن أمه . الأمر الذي يختلف تمام الاختلاف مع ما ذكره الحارثي من أن أجساد المؤمنين تمر بدورات تناسخية .

مصير الطبقة الثانية من المؤمنين :

هذا عن نفوس النوع الأول من المؤمنين ، أما النوع الثاني منهم ، وهم « أهل الولاء المتعلقون بشيء من العلوم الدينية والحكم الإلهية » فإن أرواحهم حسب أقوال الحارثي في كتابه (الأنوار اللطيفة في فلسفة المبدأ والمعاد) تكون في الهيكل النوراني ولكن في درجة أدنى من الدرجات التي يوجد فيها أهل النوع الأول ، « فيكون كل واحد منهم في موضعه الذي يستحقه » ، أما أجسامهم فلا تبلغ « مبالغ أجسام أهل الضرب الأول » ، بل تبقى مرتبة بتلك الأفعال القبيحة التي تعدت إليها ، وأقدمت عليها من غير حلها ، فيقتص منها بجميع ما أسلفته وفعلته من قليل وكثير ، ويسلك بها في شيء من صراط العذاب ، ومنظامير العقاب الأدنى ، وتعرف بالنار المصفية ، إلى أن يكمل ما عليها من المظالم ، واستؤنف بها العمل والترقى إلى أن تظهر إلى القامة الألفية ، ثم تدعى فتجيب ، وتتصل إلى حدها الذي بلغته أولاً ... » .

مصير الكافرين :

بقي أن نعرف عقيدتهم في شأن غير المؤمنين بمذهبهم ، حيث يقولون إن نفوس هؤلاء الكافرين تظل في عالم الطبيعة الأرضية تناسخها أجسام الكائنات المختلفة ، كلما بليت صورة بالفساد كونت أخرى بالكون ، فلا تزال تتعرض فيها للألم والأسقام ؛ فلا تفارق جسداً إلا ويتلقاها آخر . ويستدلون على هذا الاعتقاد بقوله تعالى : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ [النساء : ٥٦] .

يؤكد هذا من كتبهم ما جاء في كتاب الحامدى (كنز الولد : نص ١١٢-١١٣) ، حيث يقول : « إن النفس في عالم الكون والفساد ، كائنة في الأجساد ، وهى الأرواح الهابطة للزلة التى كانت منها ، والخطيئة التى جنتها ، فأهبطت وأبعدت من دار الكرامة ، فبقيت معذبة مربوطة بالطبيعة الحسية والتكليفات اللازمة لها فى الشرائع الناموسية ، جزاء لها بما أسلفت ، وما ذكره الحكماء من الهوى والصورة ، إلا تنبيهاً للنفس اللاهية ، والأرواح الساهية الغافلة ، عن آيات الله ، وتذكيراً لهم .. وأن الهوى والصورة : أعرف عليها واقفون ، وبراغ لهم إلى يوم يبعثون ، كلما بليت صورة بالفساد كونت أخرى بالكون ، فهم بين البلاء والنشوء ، مترددون ما بين الهوى الجسمانية والصورة التركيبية » .

واضح من هذا النص أنهم يؤمنون بأن الكافرين يمرون بأدوار تناسخية متكررة من العذاب والآلام بعد موتهم الأول . والسؤال الآن : ما هى طبيعة تلك الأدوار ؟ وكيف تحدث ؟ .

يرى القوم أن الكافر عند موته تتحد نفسه بجسده حتى يصير الاثنان جوهرأً واحداً ، ثم يتحول هذا الجوهر الواحد إلى تراب ، ثم يتبخر هذا التراب ، ويصبح مطراً ، ولكنه ليس مطر خير ، وإنما مطر سوء ؛ حيث يحدث معه البرق والرعد والسيول المدمرة ، ثم يتحولان (أى الجسد والنفس اللذان أصبحا جوهرأً واحداً) إلى نبات أو حيوان « فيغتذيه من يصلح له الاغتذاء ، ويستقبل بهما العذاب ، وهى الأدراك السبعة :

فأولها : درك الرجس : وهى قمص البشر ، فيصير ذلك المغتذى به نقطة يرتقى إلى أن يخرج من بطن أمه جنيناً فى قميص الزنج والزنات والبربر والترك وغيرهم من الذين لا يصلحون لمخاطبة الحق . ولا يزال ينتقل من قميص إلى قميص ، إلى أن يستكمل فى كل نوع من أنواع هذا الدرك سبعين قميصاً .

ثم يخرج بالمزاج والممتزج ، إلى قمص الوكس ، وهو الدرك الثانى المماثل للتركيب البشرى ، وهم القروذ والدب والنسناس والغول وأمثال ذلك .

فيسلك به في كل نوع من هذه الأنواع سبعين قميصاً إلى أن يستوفيها جميعها ،
وهو في جميع هذه القمص الوكسة يتحقق أنه في حال العذاب ..

ثم يسلك به في قمص العكس ، وهو الدرك الثالث ، وهم سبع البر
والبحر ، كالأسود والذئب وأمثالهم ، إلى أن يستكمل في كل نوع من هذه
الأنواع سبعين قميصاً ..

ثم يسلك به في قمص الحرس ، وهو الدرك الرابع ، وهم هوام البر
والبحر ، كالأفاعى والعقارب ، فينقمص في كل نوع من هذه الأنواع سبعين
قميصاً ...

ثم يسلك به في الدرك الخامس ، ويسمى النجس ، وهم طير البر والبحر ،
إلى أن يستوفي في كل نوع منها سبعين قميصاً .

فإذا استوفي جميع هذه القمص سلك به بما هو في الدرك السادس ، ويسمى
البكس ، وهو النبات المحظور القاتل المهلك للحيوان ، إلى أن يستوفي في كل
نوع من هذه الأنواع سبعين قميصاً .

ثم يسلك به في الدرك السابع ، الذي يسمى الركن ، وهو المعدن
والحجر ، إلى أن يستوفي في كل نوع من أنواعه سبعين قميصاً ..

وبعد أن يمر بهذه الأدوار التناسخية ، يتم نفيه إلى أماكن محالاة من السكان
في الأجزاء غير المعتدلة من الكرة الأرضية .



نظرية الإمامة

- إثبات الإمامة .
- حتمية التعلم من الإمام .
- وجوب معرفة إمام الزمان .
- التسليم المطلق للإمام .
- طبيعة الإمام المتميزة .
- تعالى منزلة الإمام .
- حقيقة الإمام كمظهر للألوهية
اللامعلومة .
- النتائج المعرفية لنظرية الإمامة .
- رتبة النبي وعلاقته بالإمام .

نظرية الإمامة

إثبات الإمامة ..

وإلزامية التعلم من الإمام :

أول خطوة يقوم بها الحسن الصباح في إثبات الإمامة ، وإلزامية التعلم من الإمام ، هي تصديق سلطة العقل ؛ على أساس أن العقول تختلف فيما بينها ؛ وتتوصل إلى آراء متعارضة . وطالما آمن المرء بقدرته عقله ، فليس له أن ينكر قدرة العقول الأخرى التي تختلف معتقداتها عن معتقداته ؛ وبالتالي تتعدد المعتقدات وتتباين ، مما يدل على ضياع الحقيقة بين هذه الشرائع المتكثرة . يقول الحسن الصباح في الفصل الأول من الفصول الأربعة التي ترجمها الشهرستاني عن الفارسية في كتابه الملل والنحل :

« للمفتي في معرفة الله تعالى أحد قولين : إما أن يقول أعرف البارئ تعالى بمجرد العقل والنظر دون احتياج إلى تعليم معلم . وأما أن يقول : لا

طريق إلى المعرفة مع العقل والنظر إلا بتعليم معلم . قال (= الحسن) : ومن أفتى بالأول فليس له الإنكار على عقل غيره ونظره ؛ فإنه متى أنكر فقد علم ، والإنكار تعليم ، ودليل على أن المنكر عليه محتاج إلى غيره . قال (= الحسن) : والقسمان ضروريان ؛ لأن الإنسان إذا أفتى بفتوى ، أو قال قولاً ، فإما أن يعتقده من نفسه ، أو من غيره » . [الفصول الأربعة بترجمة الشهرستاني في الملل والنحل : ص ١٩٥] .

وبذلك فإنه يحصر وسائل العلم في وسيلتين : إما عن طريق العقل والنظر ، وإما عن طريق المعلم أو الإمام . ولما كانت النتائج والمعتقدات التي يتوصل إليها

العقل متكثرة متعارضة متناقضة ؛ فقد ثبت عجز العقل عن التوصل إلى الحقيقة الواحدة ، وثبت بطلان الآراء المتباينة التي يصل إليها ؛ فإن علامة الحق كما يقول الحسن : « هي الوحدة ، وعلامة الباطل هي الكثرة ، وأن الوحدة مع التعليم ، والكثرة مع الرأي ، والتعليم مع الجماعة ، والجماعة مع الإمام ، والرأي مع الفرق المختلفة ، وهي مع رؤسائهم » . [الفصول الأربعة بترجمة الشهرستاني في الملل والنحل : ص ١٩٧] .

وإذا ثبتت الحاجة إلى المعلم ؛ فإنه لا بد من معلم واحد محدد معصوم من الوقوع في الخطأ والمعاصي ؛ لأنه لا يجوز التعلم من عدة معلمين ؛ حيث أن كثرة عددهم تؤدي إلى تنوع آرائهم ؛ مما يدل على بطلان التعلم منهم ؛ فـ « علامة الحق هي الوحدة ، وعلامة الباطل هي الكثرة » . يتساءل الحسن مؤكداً هذا :

« إذا ثبت الاحتياج إلى معلم ، أفصلح كل معلم على الإطلاق ، أم لا بد من معلم صادق ؟ » .

ويجب على هذا التساؤل بقوله :

« ومن قال إنه يصلح كل معلم ما ساغ له الإنكار على معلم خصمه . وإذا أنكر فقد سلم أنه لا بد من معلم صادق معتمد » . [الفصل الثاني] .

وفي الفصل الثالث يبين الحسن وجوب تعيين شخص الإمام ، فيقول :

« إذا ثبت الاحتياج إلى معلم صادق ، أفلا بد من معرفة المعلم أولاً والظفر به ، ثم التعلم منه ؟ أما جاز التعلم من كل معلم من غير تعيين شخصه وتبيين صدقه ؟ والثاني رجوع إلى الأول . ومن لم يمكنه سلوك الطريق إلا بمقدم ورفيق ، فالرفيق ثم الطريق » .

وهكذا ، فإنه يمكن تقسيم جميع الأحزاب الدينية ، من هذا المنظور ، إلى قسمين :

القسم الأول : يقولون بوجوب وجود معلم صادق يمكنهم من معرفة

الحق . ويتحتم تعيين شخص هذا المعلم أولاً ، ثم التعلم منه .

القسم الثاني : يأخذون العلوم أحياناً عن طريق العقل والنظر وأحياناً أخرى عن معلم أو عدة معلمين .

ووفقاً للمقدمات السالفة التي ذكرها الحسن الصباح يكون الحق من وجهة نظره : « مع الفرقة الأولى ؛ فرئيسهم يجب أن يكون رئيس المحققين ، وإذ تبين أن الباطل مع الفرقة الثانية فرؤساؤهم يجب أن يكونوا رؤساء المبطلين » [الفصل الرابع] .

فهذه هي الأدلة التي يستخدمها الحسن الصباح للبرهنة على ضرورة الإمام ، وحتمية التعلم منه ، وبطلان استعمال العقل . ولعل القارئ يلاحظ معي أنه يستخدم حججاً عقلية لإبطال عمل العقل ؛ فهو لا يعترف بقدرة العقل ، ورغم ذلك يستخدم حججه !!

ومن جهة أخرى ، فإن علماء المذهب الإسماعيلي الذي تنتمي إليه حركة الحشاشين ، قد حاولوا من قبل التدليل على وجوب التعليم من الإمام ، وإبطال النظر العقلي ، باللجوء إلى النصوص الشرعية .. من هؤلاء نذكر القاضي النعمان قاضي القضاة وداعي الدعاة في عصر المعز لدين الله الفاطمي ؛ حيث يشير في كتابه (اختلاف أصول المذاهب : ص ١٣٩ — ١٤٠) إلى أن القائلين « بالنظر وحجة العقل ممن ينتحل ملة الإسلام » الذين يقولون : « فما أنزل الله في كتابه أو ثبت لنا عن رسول الله فليس لنا إلا أن نتعقبه (= نتبعه) ولا ننظر فيه .. ومالم نجده في الكتاب ولا في سنة رسول الله استعملنا فيه النظر وحجة العقل ، ومالم يثبت لنا في النظر وحجة العقل رفضناه » إن القائلين بهذا هم — من وجهة نظر المذهب كما يعبر عنه القاضي النعمان — محقون في الشق الأول من دعواهم مخطئون في الشق الثاني منها ! .

فهم محقون في ترك الاعتراض على الله عز وجل وعلى رسوله ، والتسليم لما جاء به الكتاب وثبت من سنة الرسول .

ولكنهم مخطئون في قولهم : « وما لم نجده في الكتاب ولا في السنة استعملنا فيه النظر وحجة العقل » ؛ لأن الله قال : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وقال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ [المائدة : ٣] .
ولأن الرسول قال : « اتبعوا ولا تتدعوا » .

وإذن فليس هناك — كما يقول النعمان — نقص في الكتاب ، وإنما هناك جهل من الناس . والجاهل بأمر من أمور الدين مطالب بسؤال أهل العلم = أهل الذكر ؛ لقوله تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [النحل : ٤٣] .

وقوله : ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ [النساء : ٨٣] .

والمقصود من « أهل الذكر » و « أولى الأمر » و « الذين يستنبطونه » — هم : الأئمة .

ولا تقتصر حجج القاضي النعمان على الحجج الشرعية ، بل يستخدم أيضاً حججاً عقلية ، فيقول للقائلين « بالنظر وحجة العقل » : ما قولكم في من نظر مثلكم واستدل بحجة عقله مثلكم ، فخالفكم فيما توصلتم إليه أنتم بالنظر وحجة العقل ؟ ما حجتكم عليه وقد استعمل ما استعملتموه وذهب إلى مثل ما ذهبت ، فهل يكون الحق فيما قلتم أنتم وفيما قال مخالفكم ، فيكون الشيء حلالاً وحراماً ؟

وجوب معرفة إمام الزمان والتسليم المطلق له :

لذلك كله يتحتم وجود الإمام والتعلم منه ؛ فالأرض — كما يقولون — لا يجوز أن تخلو من إمام ؛ وعلى المؤمن أن يعرف هذا الإمام ويتبعه ؛ وينسبون في هذا الصدد حديثاً للنبي ﷺ يقول فيه : « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » وهذا الحديث رائج بكثرة في مصنفاتهم ، كما ينسبون إلى

جعفر الصادق أنه يقول : « الجاهلية جاهليتان : جاهلية كفر ، وجاهلية ضلال ؛ فجاهلية الكفر ما كان قبل مبعث النبي ، وجاهلية الضلال ما يكون بعد مبعثه فيمن ضل عن إمام زمانه » . [ديوان المؤيد في الدين : ص ٧٢] .

وتمثل معرفة الإمام درجة عالية من درجات العلم ؛ فكما تشير المراجع الأملوتية فإنه يمكننا معرفة أنفسنا من خلال صورتنا الفيزيائية ، وهي معرفة متبينة حتى للحيوانات . ويمكن لنا أن نعرف اسمنا الرسمي ونسبنا الأرضي ، وهي معرفة متبينة حتى لأعدائنا . ثم تأتي بعد ذلك المعرفة السامية التي هي الإقرار بالإمامة ، وهي معرفة يشترك فيها كل أعضاء الدعوة . وأخيراً توجد معرفة الإنسان بحقيقته أي الحقيقة الباقية وصفاتها ، وهي معرفة تعنى أننا بدأنا نسمو ببصيرتنا على كل أنماط المعرفة الأخرى ، معرفة تنير القلب ولا تكون إلا للحجة .

وبعد أن يعرف المؤمن إمامه ، ينبغي عليه أن يجعل الإمام محور وجدانه وحيه ؛ وعلامة هذه المحبة أن تكون نفس الإمام أحب إليه من نفسه ؛ بل عليه أن لا يحب نفسه ؛ يقول نصير الدين الطوسي في التصورات — وهو أحد أعلام إسماعيلية الموت — : « آية هذه المحبة عدم محبة النفس ؛ ذلك لأن من أحب نفسه مثقال ذرة فكأنما هو لم يحب الإمام قط ؛ لأن محبته إياه قد خالطتها محبته نفسه فلا تكون محبته خالصة له » .

وهذه المحبة الخالصة للإمام تستلزم الطاعة المطلقة له ، والتسليم التام لكل ما يصدر عنه من تعاليم ؛ لأنه أعلى منه رتبة ومقاماً . وهذه سنة الوجود التي يتحقق بها كمال الوجود ؛ فكلما سلم حد من الحدود نفسه إلى الحد الذي يليه مقاماً ورتبة فإن كماله يتحقق ، ويضرب نصير الدين الطوسي مثلاً على ذلك في التصور الثالث والعشرين من كتابه (التصورات) بأن التراب إذا وضع نفسه تحت تصرف النبات حتى يضرب فيه النبات بجذوره ويستخلص غذاءه من صفواته وخلاصاته وينمو ويرتفع وتظهر خاصياته — وصل من الترابية إلى النباتية — والنبات إذا وضع نفسه تحت تصرف الحيوان فجعل هذا منه غذاءه ،

فكمل جسمه وهيكله وحواسه — وصل من النباتية إلى الحيوانية . والحيوان إذا وضع نفسه تحت تصرف الإنسان حتى يستغل بعضه في تقويم جسمه وتقوية روحه الحيوانية التي بها يحس الإنسان ويتحرك ، ويجعل منه غذاءه ، ويستغل بعضه الآخر في إنجاز مصالحه — وصل من الحيوانية إلى الإنسانية .

ثم إن الإنسان الناقص الجاهل يمكنه أن يرتفع من درجة الجهل إلى درجة العلم إذا جعل نفسه تحت تصرف الإنسان العاقل الكامل ، وسلمه حسه وعقله ؛ فيلقى إليه كلية بزمام نفسه حتى يحوله من حال إلى حال ، ويبلغ به من موضع إلى موضع على الوجه الذي يرى مصلحته فيه .

وهكذا فإن الطوسي ، ينطلق من مبدأ التفاضل السائد في الوجود ابتداء من عالم التراب إلى عالم النبات إلى عالم الحيوان إلى عالم الإنسان ، وخضوع كل عالم من هذه العوالم للعالم الذي يعلوه ؛ ينطلق الطوسي من هذا المبدأ ليستنتج وجود صنف من البشر أفضل من الآخرين علماً وكلاً ، هم الأئمة ؛ الذين يتوجب على سائر أصناف البشر أن يمثلوا لهم ويتبعوهم حتى يمكنهم الترقى في مراتب الكمال البشرى .

طبيعة الإمام المتمايزة :

تكشف مصادر الحركة المذهبية عن أنها تؤمن بأن طبيعة الإمام ليست بشرية خالصة ، بل هي طبيعة متمايزة وسامية ؛ حيث يجمع الإمام في شخصه بين ناسوت طبيعي وناسوت خاص ولاهوت .

أما الناسوت الطبيعي للإمام فهو جسده البشرى العادى المكون من اللحم والدم والعظم « الذى تجرى عليه الحوادث وتلم به الأمور الكوارث من القتل والموت والحزن ومعاناة الأضداد ومكايده الحساد » .

أما الناسوت الخاص للإمام فهو جسد لطيف لا تدركه الأبصار ، وليس كبقية أجساد الناس الأخرى ؛ إذ أن هذا الجسد إنما تكون من مغناطيس كوني يمارس عمله على أجساد المؤمنين الأثرية عند موتها ، فتكون منها فضلات

لهيفة تتصاعد من سماء إلى سماء ، ثم تنزل مطهرة شريفة ومعها إشعاعات قمرية ، فلا يراها الإدراك النظرى ، ثم تحط وهى فى شكل ندى سماوى — على سطح ماء صاف أو على بعض الثمار ، ثم يشرب الإمام وزوجته من هذا الماء ويأكلان من هذه الثمار ، وعندما يجامع الإمام زوجته يصبح الندى السماوى برعماً لجسد لطيف هو جسد الإمام الآتى الذى مازال جنيناً فى رحم أمه ، وترعى الكواكب ذلك الجنين الذى يتغذى بما انتقل إليه من تلك الخميرة عبر تلك الثمار والمياه ، وينقسم غذاؤه قسمين :

أحدهما : ما يتصل به من أشعة الأفلاك والكواكب ، وذلك متصل بخط والده التى هى النطفة الملقاة إلى أمه .

والثانى : يأتيه من والدته ، وهو ما يكون فى الأغذية التى تغذى بها والأشياء التى تتصل بها فى مأكليها ومشربها .

والذى يواصله قسط الأب هو مادة لأعضائه الباطنة ، وقسط الأم هو مادة أعضائه الظاهرة ...

فإذا كان الشهر الرابع رفع عمود النور بواسطة شعاع الشمس إلى ذلك الجنين حياة محيية ذخرت له من ألطف فضلات الحدود الميامين وأتباعهم .. وهى تقوم له مقام طرف الحرارة الغريزية الأدنى المنفوخة فى الأجنة عند كونها فى الأحشاء فى الشهر الرابع ، والتى بها تكون الحركة والنمو ..

ثم تتصل به فى الشهر السابع الطرف الأعلى الفاضل من تلك الحرارة الغريزية الذى هو الحياة الشريفة ..

فوفقاً لهذه الكيفية يتكون ناسوت الإمام الخاص أو جسده الخاص الذى لا يجرى عليه أى لون من ألوان الأحداث الخارجية التى تجرى على الناسوت الطبيعى من مرض أو موت أو تقلبات فسيولوجية أو غيرها .

وبذلك يكون للإمام ناسوتان : ناسوت طبيعى ، وناسوت خاص . والعلاقة بين الناسوتين تتمثل فى كون الأول غلاًفاً للثانى ، ولذلك فإن

الناسوت الطبيعي رغم أنه يشارك أجساد الناس الآخرين فيما يقع عليه من أحداث وعوارض إلا أنه يتميز عن تلك الأجساد العادية في كونه يعكس عنه نظرات الأعين فيرتد إليها نظرها ، مثل المرآة المصقولة التي تعكس النظرات الموجهة إليها ، أو كما يقول ابن الوليد في كتابه [الذخيرة في الحقيقة : ص ٩٩] : « كما ترد المرآة الصقيلة المبصرات بالتعكيس إلى نظر ذاتها لا إلى سواها .. وكل ناظر إلى ذلك الغلاف الشريف — ناسوت الإمام الطبيعي الجسماني — فإلى ذاته نظر وكل طالب إدراكه بتلك الحاسة فعلى الحيرة وقع وفي العجز والقصور استقر » .

أما لاهوت الإمام ، فلا بد لنا لكي نفهم المقصود منه أن نوضح أن المستجيب عندما يعلن إيمانه بالدعوة صادقاً مخلصاً — يتصل بروحه قبس من النور يظل قريباً منه دون أن يمتزج فيه ، ويتوقف حجم هذا القبس النوراني ودرجة نموه على مدى ارتقاء فكر وعمل هذا المستجيب ، وإذا ما نجح في أن يرتقى بفكره وعمله فإن المغناطيس الإلهي يقوم بواسطة عمود النور بجذب صورة نور المستجيب المؤمن منذ وقت وجوده إلى صورة نور صاحبه الذي يسبقه في المرتبة ، ثم يرتفعان معاً إلى الحد الذي يعلو عليهما ، وهكذا دواليك حتى يصلوا جميعاً إلى مرتبة يشكلون فيها مجمع الحدود أو « الهيكل النوراني » الذي — وإن كان له شكل إنساني — إلا أنه هيكل روحاني محض . وهذا الهيكل النوراني هو الإمامة .

وعندما يتم النص على إمام جديد من طرف أبيه تأتيه صورة الإمامة — أو لاهوته — من هذا الهيكل النوراني .

وهكذا نفهم أن لاهوت الإمام هو هذا الهيكل النوراني المكوّن من كل صور (أي نفوس) المستجيبين النورانية .

ولكل إمام من الأئمة الذين يتعاقبون في كل حقبة من حقب الدور — هيكله النوراني القدساني الخاص والذي يتكون بتلك الطريقة . ومجموع الأئمة يشكلون الهيكل النوراني الأعظم ، وهو على وجه التقرير قبة الهيكل النوراني .

تعالى منزلة الإمام :

تعتبر حركة الحشاشين الإمام هو ممثل الله على الأرض ؛ فهو « ظل الله » ، و « وجه الله » ، و « الإنسان الكامل » ، و « رجل الله » ؛ يقول الطوسي في [التصورات : ص ٩٨] :

« من الممكن أن تسمى القائم — الإمام أو وجه الله الباقي ، أو الصفة العظمى التى هى اسم الله الأعظم ، ولك أن تسميه مظهر الكلمة العليا ، أو محق الوقت ، وهو الكل بلا خلائق ، وكل الخلائق بدونه عدم ، وكلا الأمرين بمعنى واحد » .

ويؤكد الطوسي على هذا التصور للإمام فيقول : « إن قوله قول الله ، وفعله فعل الله ، وأمره أمر الله ، وكلمته كلمة الله ، وحكمه حكم الله ، وإرادته إرادة الله ، وعلمه علم الله ، وقدرته قدرة الله » !! [التصورات : ص ٨٩] .
وليس غريباً بعد ذلك على أناس يعتقدون فى الإمام مثل هذا الاعتقاد التأليهى ، أن يعتبروا ذلك الإمام هو « المولى الذى بإرادته يصبح المعدوم موجوداً وبقبوله يصبح الممتنع واجباً » !! [التصورات : ص ٨٨] .

حقيقة الإمام كمظهر للألوهية اللا معلومة :

وإذا كان الإمام يتمتع بهذه الرتبة والمنزلة ، فهذا لأن الصورة الإنسانية — فى ظنهم — هى مثال عن الصورة الإلهية ؛ والإمامة هى المظهر الإلهى الأصيل ووحى الحضرة الإلهية والهادى إلى هذا الوحى ؛ والإمام هو « الحجة العظمى » ، والكفيل الذى ينوب عن الألوهية اللا معلومة . وإلى هذا تذهب خطبة الإمام حسن على ذكره السلام (هكذا يشفعون اسمه) فى ٨ آب ١١٦٤م عندما أعلن قيام القيامة فى قلعة الموت :

« مولانا هو قائم القيامة ، ومولى الكائنات ، وهو الوجود المطلق المنزه عن كل التعريفات والتحديدات الوجودية كلها ؛ لأنه يتعالى عليها كلها ، يفتح

باب رحمته ، ويجعل بنور معرفته من كل كائن ناظراً وسامعاً ومتكلماً إلى الأبد .

ويلح الطوسي على هذا المعنى في تصوراته مؤكداً أن وجه الإمام القائم « هو وجه الله ، ويده يد الله ، وسمعه سمع الله » ، ومن هنا فله الحق : « أن يقول نحن أسماء الله .. ونحن من الله إذا كنا به فنحن هو .. أنا رافع السموات وأنا باسط الأرضين ، وأنا الأول والآخر والظاهر والباطن وأنا بكل شيء عليم » !!

على أنه ينبغي التأكيد على أن ما يقصده هؤلاء بحقيقة الإمام هذه ، ليس هو الوجه الحسى المادى لهذا الإمام أو ذاك ، وإنما حقيقة الإمام الباقية التى تجد مثلاً فردياً أرضياً عليها فى شخص كل إمام . وهذه الحقيقة الباقية للإمام ، تجعل الإمام موجوداً وجوداً سرمدياً ؛ فهو قد وُجد وهو موجود وسيوجد دائماً ، وتقلبات ظهوره كلها مرتبطة بإدراك الناس ، فشخصه هو نوعه ، ونوعه هو شخصه . وشخصه باق بنوعه أبد الأبدين ، وكلمة التوحيد متوارثة متناسلة فى نسله وعقبه فى سلالة واحدة ، بل وفى ذات واحدة ، ويستدلون على ذلك بالآية الكريمة : ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ [آل عمران : ٣٤] ، و﴿ وجعلها كلمة باقية فى عقبه ﴾ [الزخرف : ٢٨] .

وهذا الإمام الواحد فى الحقيقة ، قد جعله الله تعالى يظهر فى أشكال وصور أرضية مختلفة نظراً لمصلحة العباد ؛ فهو يبدو جنيئاً فى رحم أمه طوراً ، وصغير طوراً آخر ، وابناً مرة ، وحفيداً مرة ، وشاباً فى بعض الأخيان ، وأحيان أخرى كهلاً ، وملكاً فى زمن ما ومتسولاً فى زمن آخر ... وهكذا سائر الأحوال ، كل ذلك حسبما يتراءى لأعين الخلق ؛ وحكمه هذا كما يقول صاحب (هفت باب بابا سيدنا) : « حتى يستقر الوجود للخلق ، ويظهر لهم حكم إمام زمانهم فى يومهم وغدهم » . [ص : ١٨]

وكما أن الإمام يظهر فى أزمنة مختلفة ، فهو يظهر أيضاً فى أماكن مختلفة ؛ فتارة يظهر فى هذا البلد ، وتارة أخرى فى بلد آخر ، ومرة يكون بالمغرب وأخرى بالمشرق ، وثالثة بالشمال ، ورابعة بالجنوب .. وهكذا .. وهؤلاء

الرجال المتفاوتون في المظهر والمتعددون في الأماكن باختلاف الأزمان — هم في الحقيقة والجوهر إمام واحد .

ويمكننا أن نفهم مقصدهم من « وحدة الأئمة » أكثر إذا ما عرفنا عقيدتهم فيما يسمونه « عمود النور » الذي تتحقق به بين الأئمة علاقة نسب نورانية ؛ فيزعمون وجود : « نور ساطع متصل بالنفوس الخيرة .. هو العمود الذي يذكرون أنه بين الإمام وباريه ، عمود من نور ، مجرى الوحي على ممر الدهور .. هو الحبل المذكور أن طرفه بيد الله وطرفه الثاني بأيدي عبيده .. يدرك به ما في العالم العلوي وما في العالم السفلي كما قال مولانا أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) عليه السلام : والله لو كشف الغطاء ما ازدادت يقيناً . فهو روح القدس الجارى عن النهاية الأولى الذي هو الأمر ، علّة العلل ، الموجود الأول » . [كنز الولد للحامدي : ص ١٧٣] .

ولتأسيس هذه العقيدة يستندون إلى حديث نبوي مروي في كتبهم ، يقول فيه النبي لعليّ بن أبي طالب :

« لم أزل أنا وأنت يا عليّ على نور واحد ننقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية ، كلما ضمّنا صلب ورحم ظهر لنا قدرة وعلم حتى انتهينا إلى الجد الأفضل والأب الأكمل عبد المطلب ، فانقسم ذلك النور نصفين : في عبد الله وأبي طالب . فقال الله تعالى : كن يا هذا محمداً وكن يا هذا علياً » .

النتائج المعرفية لنظرية الإمامة :

هذه النظرة للإمام تترتب عليها نتائج معرفية متعددة ، لعل أول نتيجة منها هي أن معرفة الإمام أو الإنسان الكامل ، هي المعرفة الوحيدة لله ، الممكنة للإنسان باعتبار أن الإمام هو المظهر الإلهي الابتدائي : « فمن لم يعرف إنسان زمانه الكامل فإنه سيبقى غريباً . وفي هذا المعنى قيل : من رآني فقد رأى الله » . ويستدلون على ضرورة معرفة الإمام حتى يمكن للمرء معرفة الله استدلالاً تمثيلاً ؛ فيقولون إن النور الذي يشع عن المصباح ليس المصباح

نفسه ، ولكن إذا لم نجد النور فكيف نعلم ما هو المصباح أو كيف نعرف إذا كان المصباح موجوداً أصلاً وأين هو؟ . ومن هنا فقد قال الطوسي في [التصورات : ص ٨٨] : « وقد جعل الحق تعالى طاعة الإمام ميزاناً لطاعته وعبادته ، ومعرفة هي عين معرفته ، ومحبة عين محبة نفسه » .

ويعتبر الطوسي وجود الإمام بين الناس من رحمة الله الكبرى عليهم ، بل على خلائق العالم كله ؛ لأن الإمام هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله ، فيقول : « ومن رحمة الله الكبرى على خلائق العالم بروز إمام الزمان كالخلق (أى على صورتهم وهيئتهم) بين الخلق حتى يعرف الخلق الله حق معرفته وبه يطيعونه... » .

وتؤسس الحركة تصورها هذا على قول للإمام الرابع زين العابدين يقول فيه : « من عرف إمامه فقد عرف ربه » .

وإذا لم يعرف العبد إمامه فبالتالى لن يعرف ربه وسيموت وهو جاهل به ؛ ويستدلون على ذلك بحديث يروونه عن النبى قال فيه : « من مات وهو لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » .

فمعرفة الله تتم عن طريق معرفة الإمام وبواسطته ، أما الإمام نفسه فمعرفة تتم بواسطة معرفة النفس ، فمعرفة النفس هي التى توصل إلى معرفة الإمام ، والدليل على ذلك هو تلك الحكمة الماثورة فى كتبهم : « من عرف نفسه فقد عرف مولاه (= إمامه) » .

ولكن لا يعنى هذا أن معرفة الإمام ممكنة من كل وجه ، بل هي فى الحقيقة ممكنة من وجه واحد من حيث كون الإمام « خلقاً » فى مقابلة الخلق ، أما من حيث كونه « حقاً » فى مقابلة الخلق فمعرفة ممتنعة ، يقول الطوسي : « وإن قيل ليس لأحد إلى معرفة الإمام سبيل فكأنما قيل بأن معرفة الله هي معرفة أهل كل زمان لإمامهم الذى يجب عليهم طاعته — كلام مجازى ... وإن قيل ان السبيل إلى معرفة الإمام مفتوح أمام كل الناس ، فكأنما قيل إن الإمام محسوس بحس كل إنسان ومعقول بعقله . ومن أحد الوجهين يتأتى الكفر ، ومن الوجه الآخر يتأتى الشرك . ومن ثم لزم أن تكون معرفة الإمام من حيث هو الحق فى

مقابلة الخلق غير ممكنة ؛ لأن حس أى إنسان أو عقله لا يمكن أن يصل إلى معرفة ذاته وحقيقة صفاته ، أما معرفته من حيث هو خلق فى مقابلة الخلق فممكنة » . [التصورات : ص ٨٨] .

وهكذا فإن النصوص الماثورة عن الحركة تؤكد على أن معرفة الله لا تتم إلا بمعرفة الإمام ، ومعرفة الإمام تتم عن طريق معرفة النفس ؛ فيكون التدرج المعرفى الذى يتدرج معه العارف هو : معرفة النفس ، التى ينتج عنها معرفة الإمام ، فمعرفة الله .

رتبة النبى وعلاقته بالإمام :

بما ان الإمام هو المظهر الأرضى للتجلى الأولى ، والإمامة باقية سرمدية ، فى حين أن النبى والرسالة النبوية وقتية ؛ فإن الولاية أو الإمامة متقدمة على النبوة التى هى معينها ، وشخص الولى (= الإمام) متقدم على شخص النبى .

وهذه النظرية للعلاقة بين الإمام والنبى تختلف كل الاختلاف عن نظرة الشيعة الاثنى عشرية ؛ حيث أن تقدم الولاية عندهم على النبوة إنما هو فى شخص النبى ذاته ؛ فهى لا تتضمن أبداً معنى يكون فيه الولى متقدماً على النبى المرسل .

وبينا يحتل النبى المشرّع المرتبة الأولى لدى الإمامية الاثنى عشرية ولدى الإسماعيلية الفاطمية ، فهو عندهم المثل الأرضى للعقل الأول ؛ فإنه لا يحتل لدى إسماعيلية الموت (= حركة الحشاشين) إلا مرتبة ثالثة . والذى يبدو هو أن إسماعيلية الموت لا تفعل أكثر من إعادة نسق من الصدارة ، كانت قد أقامته الإسماعيلية — قبل — الفاطمية ، ويتمثل فى تتابع هذه الحروف الرمزية الثلاثة : (ع) على الإمام ، (س) سلمان — جبريل — الحجة ، (م) محمد النبى . وسبب ذلك هو أن النبى باعتباره « ناطق » أى مبلغاً لشرعية ؛ فهو بهذا يشغل مهمة الداعى الذى يدعو الناس نحو الإمام الذى يمثل المعنى المستور الباطنى لهذه الشرعية .

التنظيم السرى للدعوة

- أسباب اللجوء للعمل السرى .
- النظام الهرمى للدعاة .
- أساليب الدعوة ومراحلها .
- مراحل ارتقاء المستجيب فى درجات التنظيم .

التنظيم السري للدعوة

فرضت المعطيات المحلية : التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، التي كانت تتحدد بها الوضعية العامة في إيران — على حركة الحشاشين الانصراف عن العمل السياسي المباشر إلى العمل السري المنظم .

فقد عانت الحركة الإسماعيلية — التي تمثل الأصول المباشرة لحركة الحشاشين — أشد المعاناة في المجال السياسي ، عندما فشلت محاولات دعائها الرامية إلى ضم الأقاليم الإيرانية إلى الدولة الفاطمية عن طريق استمالة الأمراء المحليين . وحين تسلم البويهيون — وهم من الشيعة المعتدلة — زمام السلطة في بغداد فضل رؤسائهم ممارسة السلطة الفعلية باسم الخليفة العباسي بدل التنازل عنها للخليفة الفاطمي . وإذا كان بعض الأمراء البويهيين قد سمحوا أحياناً للدعاة الإسماعيليين بالتحرك علناً في العراق وفارس ، فإن الدولة الغزنوية والدولة السلجوقية السنيتين اللتين قامتتا على أنقاض الدولة السامانية ، قد شنتا حملة واسعة رهيبة ضد الدعاة الإسماعيليين وأتباعهم فشردهم وقتلهم وأحرقت دور كتبهم . وقد امتدت الحملة إلى العراق والشام بعد أن استولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧ هـ وحصل زعيمهم طغرل بك على لقب « السلطان » من طريق الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) .

في ضوء هذا الوضع الوعر كان من الطبيعي إذن أن تراجع الحركة الإسماعيلية في العراق وإيران أسلوب عملها . فإذا كانت تعمل من قبل وفقاً لسياسة « التفتح » والعمل العلني من أجل الهيمنة الفكرية واستمالة الأمراء المحليين ، وفشلت في ذلك ، فإنه لم يبق لها إلا العمل السري .

وهذا ما لجأت إليه الحركة في شكلها الجديد مع الحسن الصباح ، الذي انكب على تنظيم الحركة تنظيماً هرمياً سرياً محكماً على أساس الولاء الشخصي

ومبدأ « التعليم » الذى يربط الاتباع بالإمام ربطاً قوياً معتمداً على السيطرة
السيكولوجية وغزو الأذهان بطرق منظمة بالغة الإحكام .

وتتمثل أهم معالم هذا التنظيم السرى وطرق الدعوة العقائدية فى الجوانب
الآتية :

مراتب الدعوة :

تختلف مراتب الدعوة فى عهد الحسن الصباح اختلافاً واضحاً عما كانت
عليه من قبل ، فقد كانت مراتب الدعوة مقسمة إلى عشر مراتب ، يُطلق عليها
« مراتب الحدود المؤثرة فى الأنفس » ، وهذه المراتب العشر ثلاث منها كلية ،
وسبع منها تابعة .

فالثلاث الكلية هي :

١ — الناطق : ومهمته إفاضة البركة بتأسيس قوانين العبادة العلمية الظاهرة
بالتنزيل والشرعية .

٢ — الأساس : ويقوم بقبول البركة بكليتها والقيام بها بجميع التنزيل
وتأسيس قوانين العبادة العلمية الباطنية بالتأويل .

٣ — الإمام : وله الأمر وسياسة الأمة كافة على سنن الدين ، وليس من
مهامه أن يقوم بالدعوة بنفسه ، بل يتولى توجيه سائر الدعوة ويرشدهم
إلى نشر الدعوة وتلاوة مجالس الحكمة .

أما السبع مراتب التابعة ، فهي :

١ — الباب : وله فصل الخطاب فى أمور الدنيا والدين ، وهو أول من
يتلقى العلوم الإلهية من الإمام ، ثم يفيض بها على من هم دونه .

٢ — الحجة : له الحكم فى ترتيب المراتب ، وارتضاء الآراء والاعتقادات ،
وإظهار تأويل الكتاب . والحجة ذو مواهب حربية وسياسية ؛ ولذا

فكان كثيراً ما يقول بالسفارة عن الإمام . وعدد الحجج يبلغ أربعة وعشرين حجة ، منهم حجج للنهار وهم الذين يدعون في زمن الظهور وفي مناطق النفوذ الشيعي ، وحجج الليل وهم الذين يدعون في زمن الستر .

٣ — داعي البلاغ : له رتبة الاحتجاج بالبرهان في إثبات الحدود العلوية ومراتبها في وجوداتها ، وتعريف الميعاد .

٤ — الداعي المطلق : ويقوم بتعليم العبادة العملية ، ونشر التأويل ، وتعريف الحدود .

٥ — الداعي المحصور : ويقوم بتعليم مراسم العبادة العلمية ، وتعريف الحدود السفلية وأدوارها .

٦ — المأذون المطلق : وله أخذ العهد والميثاق ، ويقوم بتعريف رسوم الدين وآدابه .

٧ — المأذون المحصور : وله المكاسرة والهداية إلى الحق .

هذه هي مراتب الدعاة في الحركة الإسماعيلية التقليدية ، ولكن عندما جاء الحسن الصباح وأعاد بناءها بما يناسب الوضعية التاريخية في إيران ، فإنه ابتكر نظاماً جديداً تتحدد وفقاً له مراتب الدعاة كالاتي :

١ — شيخ الجبل : وهو نائب الإمام ، ورئيس الدعوة الجديدة ؛ فكان ابن الصباح يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة ، ومولانا ، وشيخ الجبل .

٢ — كبار الدعاة : وهم الذين يضطلعون بالمهام العظمى ، ويثق بهم ابن الصباح ثقة تامة ، ولا يتجاوز عددهم ثلاثة أفراد ؛ لأنه قسم العالم أقساماً ثلاثة ، وجعل على رأس كل قسم واحداً من هؤلاء الدعاة الثلاثة .

٣ — الدعاة : وعددهم غير مقيد برقم محدد ، ويشترط في الداعي منهم أن يكون ماهراً في المناظرة ، متمكناً من الفلسفة والعقيدة ، يحيط علماً

بأساليب الإقناع والإفحام .

٤ — الرفاق : وهم الذين قطعوا بعض الخطوات في التفقه في أصول المذهب ، ولكنهم بارعون في العمليات الحربية ، فيقومون بتدريب الفدائيين وتوجيههم .

٥ — الفدائيون : وهؤلاء هم الأدوات المنفذة لعمليات الاغتيال التي كانت تقوم بها الحركة ، ويختارون على أساس إخلاصهم ، واستعدادهم المطلق للتضحية بأنفسهم .

٦ — اللاصقون : وهم الذين تدرجوا بعض التدرج في تعلم أصول المذهب ، وليس لهم الحق في نشر الدعوة .

٧ — المستجيبون : وهم المؤمنون حديثاً . وطبعاً هؤلاء ليسوا من الدعاة ، ولكن بإمكان أى واحد منهم أن يسمو ويتبوأ المرتبة التي تتناسب مع ميوله وإمكانياته العلمية أو الحربية .

وبعد رحيل الحسن الصباح طرأت تطورات كثيرة على بنية الدعوة ، لاسيما عند إعلان القيامة في عهد الحسن بن محمد ثم في عهد خليفته محمد . فإعلان القيامة أصبح الحسن هو « القائم » .

وعندما خلفه ابنه محمد عمل على رفع مكانة أبيه إلى عالم الأمر الإلهي ليكون مظهر الكلمة العليا ، مما اقتضاه أن يجرى كثيراً من التعديلات على مرتبة الإمام والحد القدسي الذي يوازيه ، بل على سائر المراتب .

وفي فترة متأخرة كتب نصير الدين الطوسي في كتابه « التصورات » عن مرتبتي : لسان العلم ، ويد القدرة .. وهما مرتبتان لم تشر إليهما المراجع السابقة عليه . أما لسان العلم فهو الذي يتولى رعاية وتعليم أفراد الحركة ، ويكتشف قدرات وملكات كل منهم ، وينميها حتى يصل بها إلى الكمال . ومثل لسان العلم مثل الماء الذي ينتشر في الأرض فيخرج منها ألوان الزهور والأشجار والنبات .

أما يد القدرة : فهو الذى يقوم على رعاية شؤون الحركة وسياستها ، وتبلغ سلطته أقصاها عندما تتوقف الدعوة الفكرية ، إذ يصبح له السلطة على كل أفراد الحركة بما فيهم لسان العلم نفسه . ولكن قد يفوض الإمام فى فترة ازدهار قوة الحركة — إلى لسان العلم سلطات يد القدرة . وإذا كان مثل لسان العلم هو الماء فإن مثل يد القدرة هو النار حيث يتشابه معها فى القدرة على الإهلاك والتفريق انطلاقاً من سلطاته الحربية .

ثم طرأت على بنية الدعوة تعديلات جوهرية عندما اضطرت الحركة إلى الاندماج فى الطرق الصوفية من باب التقية بعد الدمار الذى لحقها على يد التتار ، وأصبح يطلق على رجال الدعوة مصطلحات صوفية ، مثل شيخ وولى ومريد .

أساليب الدعوة ومراحلها :

ليس أمر الدعوة متروكاً على عواهنه يتصرف فيه الدعاة كيفما أرادوا ، فوضع الحركة وسريتها وما هى فيه من خطر يقتضى التنظيم المحكم فى أسلوب الدعوة ؛ لأن أى خطأ من الممكن أن يترتب عليه أoxم العواقب . ولذا فإن هناك من الوسائل والأساليب ما ينبغى على الداعى أن يلتزم بها فى دعوته ، فأولاً يتحتم عليه — كما يقول القاضى النعمان — : « اختيار أمر من يدعوه ، وتعرف أحوالهم رجلاً رجلاً ، وتميز كل امرئ منهم ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى إليه ويحمله عليه من أمر الله وأمر أوليائه ، ومقدار ما يحمله من ذلك ، وقدر قوته وطاقته ، ومتى يوصل ذلك إليه ، وكيف يغزوه به ، وامتحان الرجال ، وتعرف الأحوال ، ومقدار القوى ، ومبلغ الطاقات » ، ويؤكد النعمان على أهمية ذلك فيقول : « وعلم ذلك هو أفضل ما يحتاج إليه الدعاة فى باب السياسات والرياضات ؛ فكثيراً ما فسد أمر الداعى من جهله بهذا الباب ، وفسدت دعوته منه » [الهمة فى آداب اتباع الأئمة : ص ١٣٨] ، وفى مكان آخر من نفس الكتاب يؤكد على ضرورة التدرج فى الدعوة

فيقول : « ولتثبت أمر أولياء الله حدود وشرائط وآداب ودرجات يرتقى فيها الداخل في ذلك ، فإذا لم يقف على ذلك أولاً فأولاً ، ويرتقيه درجة درجة ، ووصل إليه منه الشيء قبل وصول ما يجب أن يصل إليه قبله — هلك ، كما أن الطفل لو حمل عليه الطعام في حين ولادته لهلك . ولذلك كان علم أولياء الله غير مطلق إلا لمن أطلقوه له ؛ لأنه لو كان مطلقاً لأهلك بعض الناس به بعضاً ... فلهذا ولامتحان العباد أسر أولياء الله ذلك وأخفوه ، ولو نشره وأظهروه على حقيقة الواجب فيه لما تخلف أحد عنه » [الهمة في آداب اتباع الأئمة : ص ٥٣] .

ويتدرج الداعي مع المدعو في مراحل تسع ، كلما نجح معه في مرحلة ينتقل به إلى المرحلة التي تليها ، وتتمثل تلك المراحل فيما يأتي :

المرحلة الأولى :

يحاول الداعي في المرحلة الأولى أن يشكك المدعو في معتقداته ، فيسأله عن مسائل الدين الغامضة ، ويعرض عليه بعض الإشكاليات العقائدية ، فإن كان المدعو عارفاً بما سئل أقره الداعي ، وإلا فإنه يعرضها عليها للتأمل والتفكير فيها .

ثم يبين له كيف أن الدين أمرٌ يجهله الناس ، وأن أصل الشر والخلاف في الأمة بسبب انصراف الناس عن الأئمة الصادقين الذين نصبوا لهم ، وأقيموا لحفظ شرائعهم يؤدونها على حقيقتها ، ويحفظون معانيها ، ويعرفون بواطنها .

ففساد أحوال الناس وانحذارهم إلى مختلف ألوان الضلالات ، إنما حدث لما عدلوا عن الأئمة ونظروا في الأمور بعقولهم ، وقلدوا سفلتهم ، وأطاعوا سادتهم وكبراءهم اتباعاً للملوك وطلباً للدنيا ، التي هل ملك الآثمين وأجناد الظلمة وأعوان الفسقة ، الذين يحبون العاجلة ، ويجتهدون في طلب الرئاسة على الضعفاء ، ومكايدة رسول الله وأمته ، وتغيير كتاب الله عز وجل ، وتبديل سنة نبيه ، ومخالفة دعوته ، وإفساد شريعته ، ومعاندة الخلفاء من بعده

ثم يبين له أن دين محمد لم يجيء بما يحقق الأمنى والشهوات الزائلة ، ولا بما تعرفه الدهماء والكافة ؛ وإنما هو علم خفى ، وهو سر الله المكتوم الذي يرتفع

عن الابتذال ، ولا يطيق حمله وينهض بأعبائه إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن اصطفاه الله .

فإذا آنس الداعى من المدعو ارتياحاً أو قبولاً انتقل به إلى طائفة من المسائل الأخرى ؛ فيحاول أن يثير ملكة حب الاستطلاع عنده ، فيسأله عن بعض المسائل الغامضة المتعلقة بأصل الكون والكائنات وتركيب الأشياء وطبيعتها ومصيرها ، من تلك المسائل :

لماذا خلق الله العالم فى ستة أيام ؟ هل عجز عن خلقه فى ساعة واحدة ؟

وما معنى الصراط المصروب فى القرآن ؟

وما إبليس وما الشياطين وأين مستقرهم ؟

وما يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت وأين مستقرهم ؟

وما هى أبواب النار وأبواب الجنة ؟

وما شجرة الزقوم الثابتة فى الجحيم ؟

وما معنى (ألم) و (ألمص) و (كهيعص) و (حم) ؟

ولماذا جعلت السموات سبعاً ، والأرضون سبعاً ، والمثانى من القرآن سبع آيات ؟

ولمَ فجرت العيون اثنتا عشرة عيناً ؟

ولمَ جعلت الشهور اثنا عشر شهراً ؟

ثم يقول الداعى لمن حوله : فكروا أولاً فى أنفسكم : أين أرواحكم ؟ وكيف صورها ؟ وأين مستقرها ؟ وما أول أمرها ؟

وما معنى قول رسول الله ﷺ : « خلقت حواء من ضلع آدم » ؟

ولمَ كانت قامة الإنسان منتصبية دون غيره من سائر الحيوانات ؟

ولم كان فى وجهه سبع ثقب ، وفى سائر بدنه ثقبان ؟

ولما كان في ظهره اثنتا عشرة عقدة ، وفي عنقه سبع عقد ؟
ولم جعل عنقه صورة ميم ، ويداه حاء ، وبطنه ميماً ، ورجلاه دالاً ؛ حتى
صار كتاباً مرسوماً يترجم عن محمد ؟
ولم جعلت قامته إذا انتصبت صورة ألف ، وإذا ركع صارت لام ، وإذا
سجد صارت صورة هاء ؛ فكان كتابه يدل على الله ؟
ولم جعلت عظام الإنسان كذا ، وعدد أسنانه كذا ، والأعضاء الرئيسية
كذا ؟

وينتهي إلى القول بأن الله الذى خلق الإنسان — حكيم غير مجازف ، وأنه
فعل جميع ذلك لحكمة ، وله فيها أسرار خفية ، حتى جمع ما جمع ، وفرق
ما فرق ؛ فكيف يسع المرء الإعراض عن هذه الأمور ؟ ألا يدللكم هذا على أن
الله أراد أن يرشدكم إلى بواطن الأمور الخفية ، وأسرار فيها مكتومة ، لو تنبهتم
لها وعرفتموها لزال عنكم كل حيرة ، ودحضت كل شبهة ، وظهرت لكم
المعارف السنية ؟ ألا ترون أنكم جهلتم أنفسكم التى من جهلها كان حرياً أن
لا يعلم غيرها ؟

فإذا آنس الداعى أن نفس المدعو قد تعلق بما أثار من الأمور ، وبدأ يسأله
عن معانيها وتفاسيرها ، استمهله حتى يحجى وقت الإفضاء .

ثم يتلو عليه بعض الآيات فى الوفاء بالعهد وتوكيد الأيمان ، مثل قوله :
﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى
ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ [الأحزاب : ٧] ، وقوله : ﴿ وَلَا
تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا تَفْعَلُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ... ﴾
[النحل : ٩١ — ٩٢] .

ثم يطالبه بالعهد الذى يجب أن يقطعه كل مدعو على نفسه بالوفاء
والكتمان ، وفيه يقول المستجيب :

« أقسم بالله الذى لا إله إلا هو الحى ، الجبار ، القهار ، عالم الغيب والشهادة ؛ والنقص والزيادة ، القائم على كل نفس بما كسبت ؛ القوى الشديد الأخذ لها بما ظهرت وأضمرت ، العليم بما فى الضمائر ؛ الخير بمكنون السرائر ، الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ، ولا فى السماء ، ولا تفوته غوامض الأشياء ، الذى من أقسم به كاذباً ، واستشهده باطلاً ، استحق الخزى والخذلان ، وحل فى مقام السخط والهوان . وأقسم به ثانياً وثالثاً ورابعاً ، كما أقسمت به أولاً ؛ وأقسم بجميع أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ؛ وأشهد ملائكته المقربين ، وأرواح أنبيائه المرسلين ، ونفوس الصادقين والصالحين من عباده العارفين - اننى طالب راغب فى المذهب الإسماعيلى من خالص اعتقادى وصميم فؤادى ؛ اعتقاداً لا يشوب باطنه الدنس ولا الشك ولا الريب ولا الشبهة فى الإيمان . وليس لى قصد فى هذه الرغبة إلا تحقيق أمر الدين ، وطلب معرفة حقيقة اليقين ، وتصحيح الاعتقاد ، والدخول مع الفرقة الناجية من الطغيان والفساد ، ومعرفة مولانا صاحب الوقت ، وإتمام الزمان . وإننى إذا فهمت أمراً ، وعرفت سراً ، أكتمه وأخفيه عنى لا يعتقد بمعتقدى ، ولا أظهره لأحد من الخلائق لا بقول ولا بنية ولا بإشارة ولا عبارة ، ولا تكتبه يداى ، ولا ينطق به لسانى . وإن أضمرت خلاف ما أنطق به ، أو كنيت أو تخليت أو تفكرت أو توهمت ، أكون كافراً بالله وبرسله وأوليائه وملائكته وكتبه ، وأكون محارباً لهم ، ومنكراً أمرهم ، ومخالفاً قولهم ، وذابحهم وشارب دمائهم ، وبريئاً منهم فى الدنيا والآخرة ، وخارجاً من دين الإسلام والمروءة والإيمان ، والله على ما أقول شهيد . »

هذا نص العهد الذى يقطعه المستجيب على نفسه كما جاء فى رسالة الطيبى المسماة « الدستور ودعوة المؤمنين » . وقد وقفنا على نص آخر للعهد أورده المقرئ فى كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، وأورده من قبله البغدادى فى « الفرق بين الفرق » والغزالى فى « فضائح الباطنية » كما أورد هذا العهد آخرون من مؤرخى وغلماة أهل السنة ، وتوجد فروق طفيفة بفعل الزمن فى هذا النص بين كل مصنف وآخر ، ونصه كما ورد عتند الغزالى فى

« فضائح الباطنية : ص ٢٨ ، ٢٩ » كالاتي :

« جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله عليه السلام ، وما أخذ الله على النبيين من عهد وميثاق ، أنك تُسير ما سمعته مني وتسمعه ، وعلمته وتعلمه من أمرى ومن أمر المقيم بهذه البلدة لصاحب الحق الإمام المهدي ، وأمور إخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته ، وأمور المطيعين له على هذا الدين ، ومخالصة المهدي ومخالصة شيعته من الذكور والإناث ، والصغار والكبار ، ولا تظهر من ذلك قليلاً ولا كثيراً تُدّل به عليه ، إلا ما أطلقت لك أن تتكلم به ، أو أطلق لك صاحب الأمر المقيم في هذا البلد أو غيره ، فتعمل حينئذ بمقدار ما نرسمه لك ولا تتعداه . جَعَلْتُ على نفسك الوفاء بما ذكرته لك وألزمته نفسك في حال الرغبة والرغبة ، والغضب والرضا ، وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه أن تتبعني وجميع من أسمىه لك وأبينه عندك مما تمنع منه نفسك ، وأن تنصح لنا ولالإمام ولي الله نصحاً ظاهراً وباطناً ، وألا تخون الله ولا وليه ولا أحداً من إخوانه وأوليائه ومن يكون منه ومنا بسبب : من أهل ومال ونعمة ؛ وأنه لا رأى ولا عهد تتناول على هذا العهد بما يبطله . فإن فعلت شيئاً من ذلك وأنت تعلم أنك قد خالفته ، فأنت برىء من الله ورسوله الأولين والآخرين ، ومن ملائكته المقربين ، ومن جميع ما أنزل من كتبه على أنبيائه السابقين ، وأنت خارج من كل دين ، وخارج من حزب الله وحزب أوليائه ، وداخل في حزب الشيطان وحزب أوليائه ، وخذلك الله خذلاناً بيناً يعجل لك بذلك النعمة والعقوبة إن خالفت شيئاً مما حلفتك عليه : بتأويل أو بغير تأويل . فإن خالفت شيئاً من ذلك فله عليك أن تجح إلى بيته ثلاثين حجة نذراً واجباً ، ماشياً حافياً . وإن خالفت ذلك فكل ما تملكه في الوقت الذي تحلف فيه صدقة على الفقراء والمساكين الذين لا رحم بينك وبينهم ؛ وكل مملوك يكون لك في ملكك يوم تخالف فيه فهم أحرار ؛ وكل امرأة تكون لك أو تتزوجها في قابل فهي طالق ثلاثاً بته إن خالفت شيئاً من ذلك . وإن نويت أو أضمرت في يميني هذه خلاف ما قصدت فهذه يمين من أولها إلى آخرها لازمة لك . والله الشاهد على صدق نيتك وعقد ضميرك . وكفى بالله شهيداً

بينى وبينك . — قل : نعم ! » فيقول : « نعم » .

ثم يطالبه الداعى بعد ذلك بمبلغ من المال يقدره رسماً للدخول في الدعوة ، فإذا امتنع المدعو عن القيام بما تقدم وقف به الداعى عند هذا الحد ، وإذا أجاب انتقل به الداعى إلى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية :

يقوم الداعى في هذه المرحلة بإقناع المدعو أن إقامة فرائض الإسلام لا تؤدي إلى مرضاة الله إلا إذا كانت عن طريق الأئمة من ولد إسماعيل بن جعفر الذين جعلهم الله أئمة للناس وأقامهم لحفظ شريعته ، ويستدل الداعى على ذلك بما ورد في كتب الإسماعيلية حتى يثبت الأمر في نفسه .

المرحلة الثالثة :

إذا أيقن الداعى أن المدعو قد اقتنع بنظرية الإمامة انتقل به إلى هذه المرحلة : المرحلة الثالثة ؛ حيث يبين له عدد الأئمة وأسمائهم ، فيلقنه أن الأئمة سبعة ، قد رتبهم الله تعالى كما رتب السموات والأرضين والكواكب وغيرها من جلائل الموجودات وجعلها سبعة . وهؤلاء الأئمة السبعة هم : على بن أبى طالب ، و الحسن بن على ، والحسين بن على ، وعلى بن الحسين الملقب بزين العابدين ، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد الصادق ، والسابع هو القائم صاحب الزمان إسماعيل بن جعفر . فإذا استقر في ذهن المدعو أن الأئمة سبعة ، تلا عليه الداعى بقية الأئمة الذين يعتقد في إمامتهم . فيقف به عند رأى الإسماعيلية في إمامة إسماعيل ثم ولده محمد ، ويلقى إليه أن محمد بن إسماعيل عنده علم المستور ، وبواطن الأمور ، وعلم التأويل ، وأن دعائه هم الوارثون لعلمه دون سائر طوائف الشيعة ، مستدلاً على كل ما سلف بالبراهين والأدلة الواردة في مصنفات كبار دعاة الإسماعيلية .

المرحلة الرابعة :

إذا ما تأكد الداعى من إيمان المستجيب بكل ما سبق في المراحل السابقة ، فإنه يشرع معه في المرحلة الرابعة ، فيبين له فيها أن الأنبياء المعترين ، الناسخين

للشرائع الناطقين بالأمر ، عددهم كعدد الأئمة سبعة فقط في كل دورة ، وكل منهم لابد له من صاحب يأخذ عنه دعوته ويحفظها على أتمه ، ويكون له ظهيراً في حياته ، ثم يخلفه بعد وفاته ، ويتخذ له كنيبه ظهيراً يخلفه ، ويسير كل مستخلف على هذا المنوال إلى أن يأتي منهم على تلك الشريعة سبعة ، ويقال لهؤلاء السبعة الصامتون ؛ لأنهم ثبتوا على شريعة واحدة واقتفوا أثراً واحداً ، ويقال لأولهم « السوس » .

فإذا انقضى هؤلاء السبعة ، فلا بد من أن يبدأ دور ثان من الأئمة ، يفتتحه نبي ناطق ينسخ شريعة من مضى ويخلفه على النحو المتقدم سبعة من الصمت ، وهكذا حتى يقوم النبي السابع من « النطقاء » فينسخ جميع الشرائع المتقدمة ، ويكون هو صاحب الزمان الأخير .

وكان أول الأنبياء « النطقاء » آدم ، وظهره — أو سوسه — ولده شيث ، وخلفه سبعة من الأئمة الصمت على شريعته .

ثم جاء نوح ثاني النطقاء ، وظهره ولده سام ؛ فنسخ شريعة آدم ، وخلفه السبعة الصمت على شريعته .

وكان ثالث النطقاء : إبراهيم الخليل ، وظهره ولده إسماعيل ؛ فنسخ شريعة نوح .

وكان رابعهم . موسى بن عمران ، وظهره أخوه هارون .

وخامسهم . المسيح عيسى بن مريم ، وظهره شمعون الصفا .

وسادسهم : محمد ﷺ ؛ فإنه نطق بشريعة نسخ بها كل الشرائع المتقدمة ، وكان ظهيره وسوسه علي بن أبي طالب . وكان السبعة الصمت يتعاقبون دائماً بين كل ناطق وآخر على النحو المتقدم ، فلما توفي محمد سادس النطقاء ، تلقى دعوته علي بن أبي طالب وهو أول السبعة الصمت ، وجاء من بعده ستة صمتوا على الشريعة الإسلامية ، وحملوا تراث أسرارها ، وهم : ابنه الحسن ، ثم ابنه الحسين ، ثم علي بن الحسين ، ثم محمد بن علي ، ثم جعفر بن محمد ، ثم إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو آخر الصمت من الأئمة المستورين . وأما

السابع من النطقاء في هذا الدور ، فهو « قائم الزمان » محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وهو الذى انتهى إليه علم الأولين ، ووقف على بواطن الأمور ومدارك الغيب ؛ ولذا فإن على الأمة اتباعه وطاعته .

المرحلة الخامسة :

ويوضح الداعى فيها حتمية أن يكون مع كل إمام قائم حجج متفرقون في الأرض ، وعدتهم دائماً اثنا عشر رجلاً في كل زمان ، كما أن عدد الأئمة سبعة دائماً . ويستدل على ذلك بأمر ، منها : أن الله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً ، ولا بد في خلق كل شيء من حكمة ؛ وإلا فلم يخلق النجوم التى بها قوام العالم سبعة ، وجعل أيضاً السموات سبعاً ، والأرضين سبعاً ، والبروج اثني عشر ، والشهور اثني عشر ، ونقباء بنى إسرائيل اثني عشر ، ونقباء رسول الله من الأنصار اثني عشر نقيباً .. إلى آخر تلك الحجج الموجودة في كتب القوم .

المرحلة السادسة :

يتحدث فيها الداعى عن شرائع الإسلام وفرائضه من الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها ، ويعلم المدعو أن هذه الشرائع والفروض ترجع في الواقع إلى معانٍ وحكم أخرى غير الظاهرة ، وأنها وضعت على سبيل الرموز لمصلحة العامة ؛ حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض ، ولكي تصدهم عن الفساد في الأرض ، وتكفل خضوعهم وحسن طاعتهم ، وذلك حكمة من الناصبين للشرائع وقوة في حسن سياستهم لأتباعهم ، واتقاناً منهم لما رتبوه من النواميس ونحو ذلك ..

المرحلة السابعة :

إذا ما ثبت للداعى أن المدعو على درجة من الاستعداد والقابلية لأن ينتقل إلى مرتبة أعلى ، فحينئذ يبين له أن صاحب الشريعة لا يستغنى بنفسه ، ولا بد له من صاحب معه يعبر عنه ليكون أحدهما الأصل والآخر يصدر عنه ، وهذا إنما هو إشارة العالم السفلى لما يحويه العالم العلوى . ويستدل الداعى على ذلك بأن مدير العالم في أصل الترتيب وقوام النظام ، صدر عنه أول موجود بغير

واسطة ، ولا سبب نشأ عنه ، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، ففيه إشارة إلى أن الأول في الرتبة والآخر هو القدر الذي قال فيه : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] . كما يستدل بكل ما في علمه من أدلة وبراهين نقلية أو عقلية .

المرحلة الثامنة :

وفيهما يعرف الداعى المدعو أن مدبر الوجود ، والصادر عنه ، إنما هو تقدم السابق على اللاحق ، تقدم العلة على المعلول ؛ فكانت الأعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثانى .

والسابق لا اسم له ، ولا صفة ، ولا يعبر عنه ، ولا يحدد ؛ فلا يقال موجود ، ولا معدوم ، ولا عالم ، ولا جاهل ، ولا قادر ، ولا عاجز .. وهكذا سائر الصفات ؛ فإن الإثبات يقتضى شركة بينه وبين المحدثات ، والنفى يقتضى التعطيل . وهو ليس بقديم ولا محدث ، بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته ..

ثم إن التالى يلحق بمنزلة السابق ، والصامت فى الأرض يدأب فى أعماله حتى يصير بمنزل الناطق سواء ، وأن الداعى يدأب فى أعماله حتى يبلغ منزلة السوس .. وهكذا .

وأن معجزات الأنبياء إنما هى أشياء تنتظم بها سياسة الجمهور ، وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة يحوى معانى فلسفية ، تنبىء عن حقيقة ما يشتمل عليه العالم بأسره من الجواهر والأعراض ، وأنها تكون تارة رموزاً يعقلها العالمون ، وتارة تكون بإفصاح يعرفه كل الناس ، وأن القرآن والقيامة والثواب والعقاب وغيرها — معناها غير ما يفهمه الكافة وغير ما يتبادر إلى الذهن ، وأنها ليست إلا حدوث أدوار تقع عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها من كون وفساد جاء على ترتيب الطبائع .

المرحلة التاسعة :

وهى المرحلة الأخيرة التى تمثل أعلى مرتبة من مراتب العلم والمعرفة ؛ حيث يدخل فيها المدعو إلى دائرة الأسرار النهائية ، ويتعمق فى علوم الفلسفة ، لاسيما علمى الطبيعة وما بعد الطبيعة . ويوقف فيها الداعى المدعو على السر النهائى المتمثل فى أن الوحى إنما هو صفاء النفس ، فيجد النبى فى فهم ما يلقى إليه ويتنزل عليه ، فيبرزه إلى الناس ، ويعبر عنه بكلام الله ، الذى ينظم به النبى شريعته حسبما يرى من المصلحة فى سياسة الكافة . ولا يجب العمل بهذه الشريعة إلا بحسب الحاجة فى رعاية مصالح الدهماء ، وليس على العارف المستنير أن يعمل بها ، وأن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع إنما وجدوا لسياسة العامة ، وأن فلاسفة الإسماعيلية أنبياء حكمة خاصة .

مراحل ارتقاء المستجيب فى درجات التنظيم :

يمكن للمستجيب أن يترقى فى درجات التنظيم حسب قدراته وإمكاناته وما يبذله من جهد فى تحصيل المعارف . فبعد أن يستقيم على طريقتهم ، يأخذ فى التحرك نحو عالم الحقيقة ، تبدأ تنهال عليه « الأسرار الإلهية أولاً فأولاً على التدرىج » حتى إذا « أنارت بصيرته وشعشت صورته أطلق عن الوثائق .. وأقيم مناظراً مكاسراً ، ونصب لجميع الفرق مناظراً ، فإذا علا حده فى المعارف .. أقيم مأذوناً مطلقاً ، فإذا ازداد على تلك الرتبة فى المعارف علواً .. كان داعى بلاغ قد أذن له إلى جميع من فى صقعه بتأييده والإبلاغ ، فإذا اتصل به التأيد الكلى بخيال (أى الذى ينقل المعرفة) المصعد لرتبته .. كان باباً ومجمعاً شريفاً وهججاً ، يتسلم الصورة من الأفلاك الدنيية جميعها ويتصل بصورته الشريفة داني صورها ورفيعها ويحفظها فى ذاته الشريفة حفظ ممازجة عن طريق الصور العلمية ... ومقام هذا الحد الشريف المعرب عنه بالباب هو الحجة العظمى سبب الأسباب » [الذخيرة فى الحقيقة لابن الوليد: ص ٧٥ — ٨١] .

إذن فالمستجيب يمكنه أن يترقى حتى يصل إلى مرتبة الحجة العظمى أو

الباب وهى المرتبة التى لا يمكنه تخطيها ؛ لأن المرتبة التى تليها مباشرة هى مرتبة الإمام التى لا تنال إلا بالوراثة والتعيين .

نظام الشفرة المستخدم بين كبار الدعاة :

من المعلوم لدى الجميع أن أى عمل سرى لا تكتبل سرية إلا باستخدام رموز سرية لا يعرف مدلولها إلا المنتمون إلى التنظيم . ومن هنا فقد لجأت حركة الحشاشين منذ وقت مبكر إلى استخدام تلك الرموز فى المكاتبات والمراسلات الدائرة بين أتباعها ، وكانوا يستعملون الحمام الزاجل فى نقل الرسائل السرية بين مقارهم وقلاعهم فى شتى أنحاء إيران والشام .

وقد وصلت إلينا فى العصر الحديث ، بعد خروج جزء من كتب الحركة إلى النور ، بعض الأمثلة للرموز السرية التى كان يستخدمها رجال الحركة . وهاكم شيئاً منها :

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤
٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢
٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠
٤١	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨
٤٩	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦
٥٧	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٦٤
٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢
٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠
٨١	٨٢	٨٣	٨٤	٨٥	٨٦	٨٧	٨٨
٨٩	٩٠	٩١	٩٢	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦
٩٧	٩٨	٩٩	١٠٠	١٠١	١٠٢	١٠٣	١٠٤
١٠٥	١٠٦	١٠٧	١٠٨	١٠٩	١١٠	١١١	١١٢
١١٣	١١٤	١١٥	١١٦	١١٧	١١٨	١١٩	١٢٠
١٢١	١٢٢	١٢٣	١٢٤	١٢٥	١٢٦	١٢٧	١٢٨
١٢٩	١٣٠	١٣١	١٣٢	١٣٣	١٣٤	١٣٥	١٣٦
١٣٧	١٣٨	١٣٩	١٤٠	١٤١	١٤٢	١٤٣	١٤٤
١٤٥	١٤٦	١٤٧	١٤٨	١٤٩	١٥٠	١٥١	١٥٢
١٥٣	١٥٤	١٥٥	١٥٦	١٥٧	١٥٨	١٥٩	١٦٠
١٦١	١٦٢	١٦٣	١٦٤	١٦٥	١٦٦	١٦٧	١٦٨
١٦٩	١٧٠	١٧١	١٧٢	١٧٣	١٧٤	١٧٥	١٧٦
١٧٧	١٧٨	١٧٩	١٨٠	١٨١	١٨٢	١٨٣	١٨٤
١٨٥	١٨٦	١٨٧	١٨٨	١٨٩	١٩٠	١٩١	١٩٢
١٩٣	١٩٤	١٩٥	١٩٦	١٩٧	١٩٨	١٩٩	٢٠٠

أمثلة من الرموز السرية التى كانت تستخدمها الحركة

فرق الفدائيين ... والعمليات الانتحارية ..

- كيف تمكنت مجموعة صغيرة من بث الرعب في قلوب أعداء أقوياء ؟
- أسلوب اختيار الفدائيين وتدريبهم .
- أساليب الاغتيال .
- نوعية الشخصيات المستهدفة بالاغتيال .
- لماذا يضحي الفدائي بحياته ؟

فرق الفدائيين ... والعمليات الانتحارية ..

إذا كان الشق الأول من العمل السرى يتمثل في الدعوة ونشر الفكر الإسماعيلي كما تفهمه حركة الحشاشين ، فإن الشق الثاني من هذا العمل يتمثل في استخدام الرعب كسلاح ضد الأعداء اللدودين للحركة الذين لا يتورعون عن شن حملات التقتيل والتشريد ضد أعضائها . ولكن كيف يمكن لمجموعة صغيرة أن تبث الرعب في قلوب أولئك الأعداء الأقوياء ؟

إن هذه المجموعة الصغيرة يمكنها أن تفعل ذلك إذا كان وراءها عقل محنك يستطيع أن ينظمها التنظيم المحكم الذى يؤهلها للقدرة على توجيه ضربات مؤثرة إلى الخصم ، ثم امتصاص رد الفعل العنيف الذى لا محالة واقع ؛ الأمر الذى يتطلب رجالاً يؤمنون بعقيدة استشهادية تلهمهم الشجاعة والصمود في مواجهة أى تصفية جسدية يقوم بها الخصوم تجاههم .

وقد استطاع الحسن الصباح بما أوتي من علم بالدين والفلسفة وبما رزق من موهبة عسكرية — أن يث في عقول أتباعه العقائد التى تدفعهم دفعا إلى الإقدام بشجاعة على الموت ، كما تمكن من ابتكار تنظيم محكم الأركان يستطيع أعضاؤه القيام بالعمليات الفدائية التى كان يدبرها الحسن بذكاء وحنكة بالغتين . وقد أسفرت هذه العمليات عن زرع الرعب والإرهاب خلال مدة قصيرة في أوصال الدولة السلجوقية وبلاط الخلافة العباسية الخصمين الرئيسيين لحركة الحشاشين .

وتظهر براعة الحسن الصباح منذ اللحظة الأولى التى يختار فيها الفدائيين ،

حيث يعمد إلى أهل المناطق الجبلية والصحارى الذين يتميزون بالصلابة والقوة ، ونشأوا على النفرة من السلطات السنية ، فكان يصطفى منهم الشبان ، ويتعهدهم بالتربية والشقيف الفكرى الذى ينمى روح الجهاد والتضحية فيهم ، ويدربهم على وسائل الهجوم ، واستخدام الخناجر ، والقدرة على التخفى وتقمص الشخصيات المختلفة حسب مقتضى الحال ، كما يعلمهم لغات مختلفة ، حتى يمكنهم الظهور بشخصيات أجنبية عن المنطقة التى يقومون فيها بأداء الواجبات المكلفين بها .

وعندما يتم تكوينهم وإعدادهم ، فإنه كان يشرح لهم خطة العملية التى عليهم تنفيذها ، وكانت هذه الخطة تهدف إلى اغتيال الشخصية المستهدفة فى مكان عام وبمراى من الجماهير ، مثل الجامع الكبير وفى يوم الجمعة ، أو فى موكب عظيم وسط الحرس والجنود ، أو فى السوق ، أو فى مقر الحكم .

وكانوا يتخفون أحياناً فى ملابس النساء ، وأحياناً أخرى فى ملابس الجنود ، ولكن كان الأغلب أنهم يتخفون فى زى المتصوفة والدراويش حيث لا يتوقع الحرس منهم شراً أو أذى . وتظهرنا بعض الحوادث أن منهم من كان يدخل فى خدمة الضحية حتى تثق فيه ، ثم ينتهر الفرصة المناسبة للإجهاز عليها . وفى بعض الأحيان إذا كانت الضحية عالماً من علماء الدين فإنه كان يواظب على حضور دروسه ويظهر نبوغاً فى التعلم وحباً واتباعاً للشيخ حتى ينال ثقته ويجهز عليه فى الوقت المناسب .

ولسنا بحاجة هنا لضرب الأمثلة على أساليبهم تلك ، إذ قد سبق لنا — فى القسم التاريخى — استعراض معظم عمليات الاغتيال التى قاموا بها .

ونستطيع من واقع ذلك الاستعراض التاريخى أن نتبين أن الشخصيات المستهدفة بالاغتيال كانت هى تلك التى تتربع على قمة المجتمع السياسى والعسكرى والعلمى ؛ فقد أمكنهم اغتيال عدد من الخلفاء ، مثل الخليفة العباسى المسترشد بالله ، ومن بعد الخليفة الراشد ، كما اغتالوا الخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله . واغتالوا عدداً موفوراً من القواد العسكريين والأمراء

والسلطين والوزراء . ولم يتورعوا عن توجيه خناجرهم المسمومة إلى صدور العلماء والمفكرين والقضاة الذين كانوا يعارضون دعوتهم . كما كانوا يغتالون كل من تسول له نفسه الارتداد عن دعوتهم بعد الدخول فيها ، وكذلك بعض أصحاب القلاع الذين يرفضون تسليمها أو بيعها لهم .

وتتمثل الأهداف المحورية لعمليات الاغتيال في الرغبة في القضاء على رموز الشر في العالم من وجهة نظرهم ، والانتقام من القواد والأمرء الذين كانوا يحاربونهم ، وردع علماء الدين الذين لا يكفون عن نقدهم وإظهار مسالهم في خطب الجمعة والدروس العامة وأحياناً في تصنيف المؤلفات الناقدة لهم . وقد مر معنا في القسم التاريخي نماذج حية على كل ذلك .

ولكن أكثر الجوانب إثارة في عمليات الاغتيال هو شجاعة الفدائيين وإقدامهم العجيب على طلب الموت ، الأمر الذي حار فيه كثير من المحللين وتضاربت بشأنه تفسيراتهم .

وفي رأي أن أيّاً من أصحاب تلك التفسيرات لم يتمكن من أن يضع يده على مكن الحقيقة في هذه المسألة .

والتفسير الصحيح من وجهة نظرنا ينطلق من تسليمنا بأن الفكر هو موجه السلوك ، وبالتالي فإنه يمكننا أن نقف بكل سهولة على تفسير سلوك الفدائي في تضحيته بحياته إذا ما وقفنا على مكونات فكره التي استطاع أن يشكّلها الحسن الصباح تشكّلاً يجعل الفدائي ينفذ أوامره غير آبه بما يترتب على ذلك من نتائج .

الموقف الذي ينطلق منه الفدائي بصفة خاصة وعضو حركة الحشاشين بصفة عامة ، هو القلق والشعور بالخيبة إزاء الواقع الذي يجد نفسه ملقى فيه : الواقع الذي يعيش فيه كنفس مقيدة في بدن ، وكفردية مؤطرة في مجتمع حيث لا يلقى إلا ما ينغص ويكدر ، إلا ما يجعله يشعر بأنه محاصر ومستبعد ، فيبدو العالم له شراً كله وتصبح مشكلته الأساسية هي مشكلة الشر في العالم : لماذا كان العالم يحتوي على الشر ؟ لماذا يطغى فيه الشر ؟ وما مصدره ؟ .

من الوعي بهذه « الوضعية » يبدأ موقف عضو الحركة ، ومن إعلان رفض هذه الوضعية ينطلق : أولاً بإبداء التضايق والشكوى منها ثم بإعلان الكراهية والعداء لها انتهاءً بالتشهير بها والتمرد عليها . والفدائي إذ يرفض هذه الوضعية بوصفها واقعاً خارجياً يرفضها أيضاً كشعور داخلي : يرفضها كشروط حياة ويرفض نفسه كوجود خاضع لهذه الشروط . ومن هنا إحساسه بالغربة بصورة مضاعفة : يشعر بنفسه غريباً في عالم يراه غريباً عنه تماماً ، فينتجه إلى تمييز نفسه عن هذا العالم ، إلى الانفصال عنه والقطيعة عنه . ومن هنا ذلك الميل الجامح الذي يستولى على العارف ويذكي شوقه إلى الرحيل عن هذا العالم ، إلى التحرر من قبضته وقيوده والرحيل بعيداً عنه إلى حيث يسترجع كامل حريته ، كامل امتلاكه لنفسه . هكذا تقترن لدى الفدائي رغبة جامحة في أن يكون نفسه ، في أن يستعيد الانتماء إلى نفسه ، في أن يلتحق بـ « عالم آخر » ، عالم متعالٍ عن المكان والزمان ، عالم « الحياة الحقيقية » ، عالَم الطمأنينة والكمال والسعادة ، العالم الذي كان فيه وأخرج منه والذي سيعود إليه . وهو يستقي معرفته بذلك العالم الآخر لا من خلال تأمل العالم الدنيوي ، وكيف يمكن أن يجد فيه الجواب وهو عالم غريب كله شر ؟ ولا باستعمال حواسه وعقله ، وكيف يمكن أن يعتمد عليهما وهما مرتبطان بهذا العالم ؟ وإذن فلا يبقى إلا أن يطمع في أن يتلقى المعرفة التي يبغيها من القوى العليا التي هو مشدود إليها ويسعى للالتحاق بها ، ولكن هذه القوى العليا لا تعطى علمها الغيبي إلا لإمام الزمان ، ومن هنا فإن الفدائي « يسلم » نفسه تماماً إلى هذا الإمام أو من ينوب عنه ، وفق ما سبق أن وضعنا ، فيقوم الإمام أو نائبه باستغلال هذا الموقف فيدفع بالفدائي ورغبته في الخلود والرجوع إلى موطنه الأصلي إلى أقصى مدى . إن الإمام يقدم له تاريخ ما قبل تاريخه وما بعده ؛ فيعرف منه أنه كان موجوداً قبل وجوده الراهن في العالم ، وأنه جاء إلى هذا العالم من عالم آخر يقع خارج هذا العالم ويسمو على تحديداته الزمانية والمكانية . هكذا يقتنع بسهولة ، أو لا يفتأ يقنع نفسه باستمرار ، أنه ينتمي بطبيعته إلى عالم آخر : عالم الخلود .

وانطلاقاً من هذا التصور يقتنع الفدائي بأن وجوده الراهن في هذا العالم شيء غير طبيعي ؛ وبالتالي فلا بد أن يكون هذا السقوط الذي أصابه ، والذي يتمثل في مغادرته عالم الخلود والارتقاء في هذا العالم المملوء شراً ، لابد أن يكون نتيجة لذنوب ، نتيجة لخطيئة . وإذن فلا بد من تدارك الموقف ، لابد من العمل من أجل الخلاص . وهكذا يزداد شوقاً وحنيناً إلى العودة إلى حاله الأصلية . إنه يتصور « البعث والنشور » على أنه رجوع إلى حال سابقة سامية ، حال من الحرية الفكرية ، حال ينزع فيها عنه جسده ؛ ليعود إلى الحال التي كان عليها قبل ميلاده ، لا بل قبل تكونه الجسماني . إنها النشأة الأخرى ، أو الميلاد الجديد .

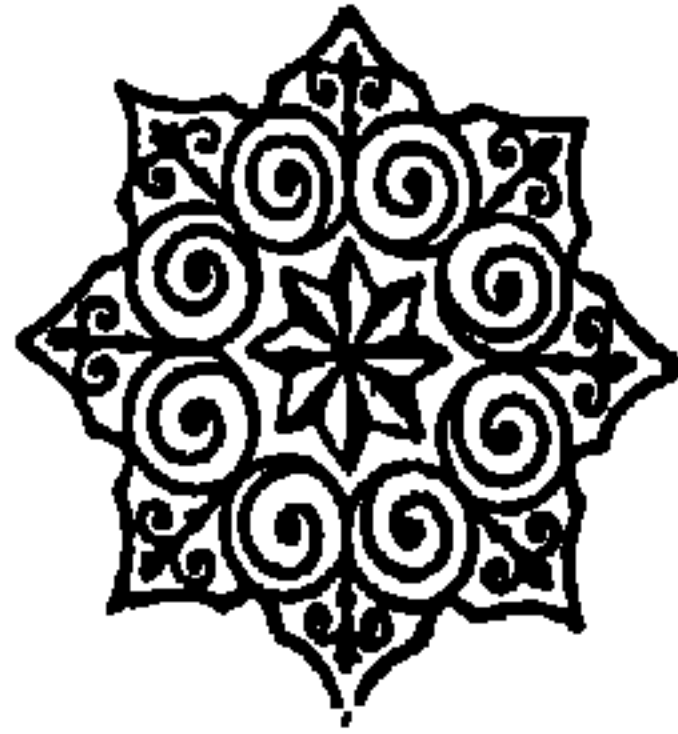
وبعد أن عرف الفدائي من أين أتى وعرف أن مصيره الحقيقي الذي سيتحرر فيه من سجن هذا العالم هو الرجوع إلى حيث أتى ؛ ففي هذا الرجوع — وفيه وحده — يكمن خلاصه .. بعد أن عرف إلى أين ، لا يبقى إذن إلا أن يسلك الطريق ، وسلوك هذا الطريق لا يكون إلا تحت رعاية الإمام وتوجيهه ، والخضوع له خضوعاً مطلقاً وفقاً لمبدأ « التعليم » الذي يقوم بدوره على « التسليم التام » لكل ما يصدر عن الإمام أو المعلم الصادق من أوامر ، حتى أنه — كما يقول نصير الدين الطوسي في التصورات — « لو أراد له الحياة لما أحب الموت . ولو أراد له الموت لما أحب الحياة ، ولو قال له أن النهار المشرق ليل بهيم أو أن الليل البهيم نهار مشرق لما هجس في قلبه أى اعتراض على هذا القول ، ولما حام حول كيف يكون الأمر كذلك ولماذا . فينعدم اختيار الإنسان الناقص الجاهل وإرادته باختيار الإنسان الكامل العاقل وإرادته » .

ومن هنا فإن الإمام أو المعلم الصادق عندما يأمر الفدائي بأن يغتال إحدى الشخصيات المناوئة للدعوة ، والتي تمثل من وجهة نظره أحد رموز الشر ومصادره في هذا العالم ، فإن الفدائي يسارع بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه رغم أنه يعلم أن تلك العملية ستودي بحياته الدنيوية ؛ وهو يفعل ذلك انطلاقاً من رغبته الجارحة في المساهمة في القضاء على الشر المسيطر على هذه الحياة الدنيا ، وشوقاً في الصعود إلى عالم الفردوس والخلود الذي آمن من قبل أنه لن يمكنه

بلوغه إلا بأن « يخلع عنه قميص جلده » فيتحرر من بدنه ومن كل ما يشده إلى هذا العالم .

هذا هو التفسير المنطقي الذى يكشف النقاب عن الأسباب الحقيقية التى تجعل الفدائيين يقدمون على التضحية بحياتهم . ولا شك أن القارئ الكريم إذا ما تفهم التفسير المقدم فإنه سيتبين بوضوح سذاجة وسطحية التفسيرات الأخرى ، مثل التفسير الخرافى الذى قدمه ماركو بولو ؛ إذ يشير فيه إلى أن الإمام يمارس سيطرته وتأثيره على الفدائيين عن طريق تخديرهم بالحشيش وإذاقتهم ألوان الشهوات . من النساء والولدان وأطياب الطعام والشراب ، ثم إغرائهم بالمزيد منها عند القيام بالمهام المنوطة بهم . والأسباب التى تدعونا لرفض هذا التفسير قد ذكرنا طرفاً منها عند الإشارة للطبيعة الطبوغرافية لقلعة الموت ، والتى تدل بوضوح على استحالة وجود أنهار العسل والخمر واللبن والحدائق الغناء فى مثل تلك الظروف الجغرافية والمناخية بالغة القسوة . ونزيد هنا أن التجربة الإنسانية ، فضلاً عن التحليل النفسى الحديث ، يؤكدان أن النفوس المترفة التى درجت على تعاظم المخدرات إن هى إلا نفوس ضعيفة مستكينة يصعب أن يقوم أصحابها بأعمال انتحارية تتطلب إقداماً وتضحية مثل تلك الأعمال التى يقوم بها فدائيو الحركة .

وهنا يجب أن نسارع بالتنبيه إلى أن هذا التحليل الذى نقدمه للأسباب والدوافع التى تدفع بالفدائي إلى الرهان على الحياة والموت ، إنما هو تحليل تفسيرى علمى بحث ، وليس تبريراً بأية حال من الأحوال ؛ وهناك فارق — وفارق كبير — بين التفسير والتبرير .



الخاتمة

سيظل الإرهاب - سواء كان الإرهاب كما تمارسه الدولة العباسية والسلجوقية في مواجهة الحشاشين ، أو كما يمارسه الحشاشون في مواجهة العباسيين والسلجوقيين - عملاً لا أخلاقياً ، وتفكيراً لا منطقياً . نقول هذا ونؤكد عليه رغم أننا لا ننكر العوامل الموضوعية التي تقف وراء هذه الظاهرة ؛ حيث لا يشك أحد في أن العنف يولد العنف ، وأن الإرهابي إذ يلجأ إلى العنف فإنه لا يخلقه ولا يبتدعه ، وإنما يجد بذوره في العالم المحيط به ؛ فالظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة آنذاك في الدولة الإسلامية كان لها دور كبير في نشوء هذه الظاهرة ، والمجتمع الإسلامي في ذلك الوقت بما يحوى من تناقضات وصراعات كان ينبج حفار قبره . ومن هنا فإن أية رؤية تحليلية تنظر إلى الإرهاب السياسى والعقائدي على أنه عنصر غريب عن المنتظم الحضارى الذى كان سائداً حينئذ ، إنما هى رؤية مبتورة لأنها تجرد هذه الظاهرة من إطارها الاجتماعى والسياسى والاقتصادى .

وإذا كان الإطار التاريخى يعطى للإرهاب عنصراً عقلانياً ، فإن هذا يعنى أن الإرهاب ينطوى على تناقضات باطنية تحركه في جوانبته . ولكن حتى هذا العنصر العقلانى يظل عاجزاً وقاصراً ومنهراً ؛ لأنه يدفع إلى فعل كل شيء ولا يتوانى عن أى شيء مهما كان لا أخلاقياً - من أجل انتصار قضيته ؛ يظل هذا العنصر قاصراً لأنه ينطلق من موقف شديد التشنج والخطورة من شأنه أن يؤدي إلى أعمال شرسة وفضيحة ضد الآخرين ، وإلى أعمال انتحارية يروح ضحيتها عادة الإرهابيون أنفسهم . وليس بوسع أحد أن يفرض على الإرهابي الذى ينطلق من موقف أيديولوجى - قواعد وقوانين من خارج مفاهيمه وحقائقه هو ، لأنه هو الذى يحددها ويختارها ويلتزم بها بمقدار ما تخدم قضيته ، وبما ما تتناسب مع الظروف التى يكافح فيها . فهو لا يراعى أى عُرف وأية حُرمة اجتماعية أو سياسية ، كما أنه لا يراعى أية قاعدة أخلاقية تشكل عائقاً في سبيله ؛ إذ أنه يضع بتصرفه جميع الطرق والأساليب والوسائل

الممكنة دون أن يتراجع أمام الصعاب مهما بلغت خطورتها لأنه يلعب لعبة الموت فقط ، الموت من أجل حياة بعينها يريد لها دون غيرها . فكل ما هو ممكن فهو مسموح ، وكل ما هو نافع وفعال فهو ضرورى ولا يمكن التخلي عنه لأى سبب من الأسباب خارج مستلزمات حاجته وإرادته التى تهدف بالأساس إلى التغلب على العدو وتحقيق الأهداف المرجوة وانتصار القضية الحقيقة من وجهة نظره . فالمهم أن ينجح ؛ لذلك لا يفرق بين الوسائل العادية والقانونية وبقية الوسائل الأخرى مهما بلغت حداً قصياً من العنف اللاأخلاقى واللاعقلانى . فهو لا يتوانى عن ضرب أى هدف يقع على مطال يده ، سواء كان من الممتلكات العامة أو الخاصة ، أو كان إنساناً عادياً أو أية شخصية سياسية أو علمية أو إجتماعية ، عندما يرى هو أن مصلحته قائمة فى هذا الفعل .

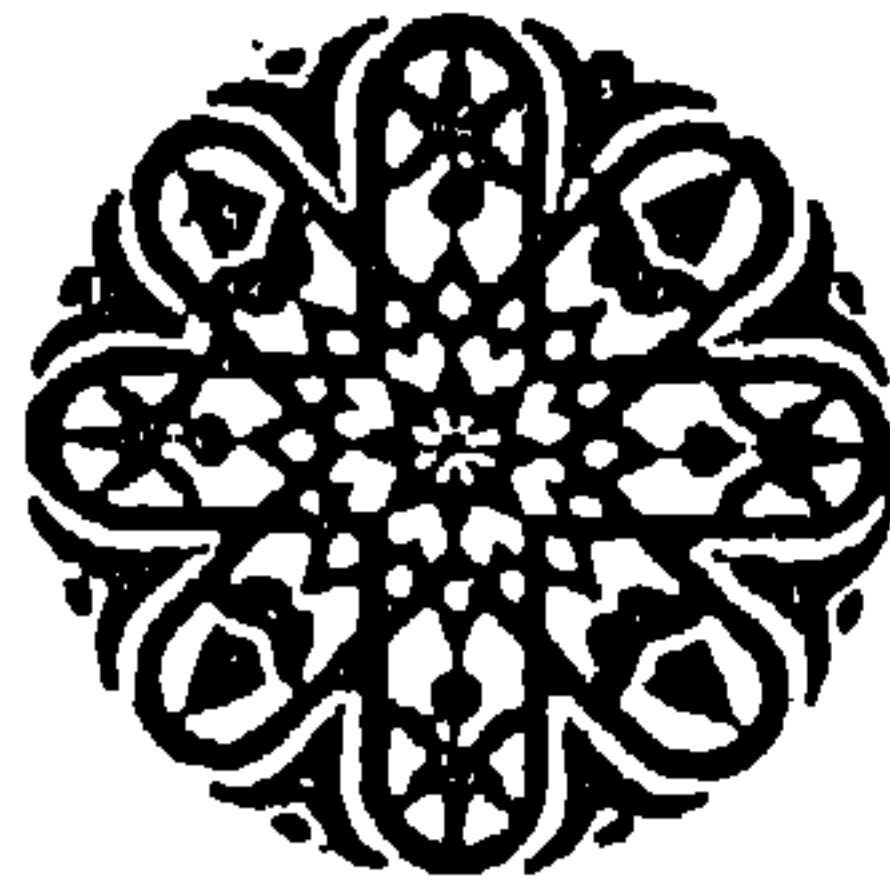
وكما قالت مدام رولان : «أيتها الحرية ، كم من الجرائم ترتكب باسمك ! » ، فإنه يمكن القول : « أيها الحق ، كم من الجرائم ترتكب باسمك ! » . فالإرهابى إذ يحاول محو الاضطهاد والشرور والظلم — يعتمد إلى الإمعان فى إثارة آلام وشرور أخرى أعمق وأشد ؛ فباسم أى حق وباسم أية أخلاق يموت الأبرياء ويموت العلماء لمجرد أنهم يخالفون الإرهابى فى رأى والعقيدة ؟ وباسم أية أخلاق لا يأمن الإنسان على نفسه وهو يشعر أنه مهدد بتصفيته جسدياً من مخالفه فى التوجه والايديولوجية ؟ .

فى الواقع إن الإرهاب كسلاح فى التعامل مع الخصوم هو سلاح بدائى يفقد قيمه وينقض أخلاقياته بسبب مبدأ عدم التمييز بين الأهداف والوسائل أو مبدأ الضربة العمياء .

إن الحكومات العباسية والسلجوقية من جهة وحركة الحشاشين من جهة أخرى ؛ إذ يمارس كل حزب منهما الإرهاب فى مواجهة الحزب الآخر ، فإنه يضع أمامه هدفاً يقوم على تقويض ما يعتبره مصدراً للشرور التى تعبت فى المجتمع المعنى فساداً ، وتدميره تدميراً كاملاً .

وفى الواقع إن محاولة التبرير الأخلاقى والعقلانى للإرهاب بالاستناد إلى الهدف — مهما كان نبيلاً ومشروعاً — يعنى جعل الأخلاق مجرد مجاملة للنزعات والأهواء التى تسيطر على مجموعة بشرية أو طبقة أو حزب أو دولة ؛ وبالتالى تفقد الأخلاق مضمونها وتتصدع قوانينها .

فبدىيى إذن صعوبة ، بل استحالة ، فهم ظاهرة العنف والإرهاب بالنسبة للأخلاق المجردة والمبنية على المبدأين الرئيسيين : الخير والشر ؛ إذ ليس بإمكان هذه الأخلاق أن تبرر العنف والإرهاب — كوسيلة للحوار بين الخصوم — وإلا وقعت فى التناقض والانتفاء والعشية . فعلى مستوى الأخلاق المجردة تظل المناقضة بين العنف والأخلاق لا يمكن تجاوزها ، كما لا يمكن تجاوز المناقضة بين الإرهاب والفضيلة .



فهرس الكتاب

الصفحة

الموضوع

تقديم ٥

الأحداث التاريخية المواكبة لنشأة الحركة وتطورها وضمحلها

- طابع العصر ١١
- السلاجقة ١٢
- الفاتح طغرل ١٢
- ألب أرسلان : البطل قلب الأسد ١٤
- السلطان ملكشاه ١٥
- نظام الملك : الوزير اللامع والخصم اللدود لحسن الصباح ١٥
- اضمحلال مجد السلاجقة ١٦
- السلاجقة في الشام ١٧
- سلية الخليفة العباسي تجاه الحروب الصليبية ١٩
- مقدم صلاح الدين وانتصاراته ٢٠
- الخليفة الناصر وشاهات خوارزم ٢١
- ظهور التتار في أقصى الشرق ٢٢
- العاصفة المميتة ٢٤
- هولاكو يحطم قلاع الحشاشين ٢٤
- سقوط بغداد ٢٥
- تحطيم الجيش المصري لأسطورة التتار ٢٦

الأصول التاريخية لحركة الحشاشين

- نشوء الفاطميين ٣٣
- عيد الله الحاكم القوي ٣٣
- فتح مصر ٣٥
- عصر الأساطير والتناقضات ٣٧
- أطول حكم في التاريخ الإسلامي ٣٩
- الحالة الداخلية لمصر في عهد الفاطميين ٤٠
- هل حققت الدعوة الإسماعيلية انتصارات عقائدية ٤٠
- مع انتصارات الفاطميين السياسية ؟ ٤٢

حركة الحشاشين : النشأة والتطور

- الظروف الممهدة لظهور حركة الحشاشين ٤٨
- مع الحسن الصباح من الصفر ٥٣
- الرفاق الثلاثة : حقيقة أم خرافة ؟ ٥٤
- الحسن الصباح في مصر ٥٨
- الاستيلاء على قلعة الموت ٦٤
- الوضع الطبوغرافي لقلعة الموت ٦٥
- تفنيد خرافة ماركو بولو ٦٦
- انتصارات الحسن الصباح ٧٤
- اغتيال نظام الملك ٧٦
- انشقاق داخلي في التيار الإسماعيلي ٨٠
- الاستيلاء على قلعة كردكوه الشهيرة ٨١
- انتكاسة مفاجئة للحركة ٩٠
- وما زالت الاغتيالات مستمرة ٩٢
- هجوم واسع النطاق على معظم قلاع الحركة ٩٧
- انتقام الحسن من قائد الهجوم ٩٨
- محاولة إسقاط قلعة الموت وغيرها ٩٨
- الحسن يعيد تنظيم صفوف الحركة ١٠٠
- مدى مسؤولية الحركة عن مقتل أمير الجيوش بمصر ١٠١
- نهاية المطاف مع الحسن الصباح ١٠٣

حركة الحشاشين في إيران بعد رحيل الحسن الصباح

- تتابع عمليات الاغتيال ١٠٩
- اغتيال الخليفة العباسي المسترشد ١١١
- اغتيال الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله ١١٢
- عهد الإمام محمد المهتدي ١١٤
- القاهر بقوة الله ١١٩
- إعلان القيامة والتحرر من تعاليم الشريعة وسقوط الفرائض ! ١١٩
- بشائر العودة إلى الالتزام بالشريعة ١٢١
- عهد الإمام جلال الدين وعودة الشريعة ١٢١
- علاء الدين محمد ١٢٣
- ركن الدين شاه ١٢٦
- الحشاشون في مواجهة التار ١٢٦

حركة الحشاشين في سوريا

- نشاط الحركة يمتد إلى سوريا ١٣٢
- الخطوة الأولى للحركة في سوريا ١٣٣
- أبو طاهر الصائغ ١٣٤
- بهرام يقود الحركة ١٣٦
- إعادة تنظيم صفوف الحركة ١٣٨
- خيانة المرغيناني ونكبة جديدة للحركة بدمشق ١٣٨
- الحركة تجدد نفسها مرة أخرى ١٣٩
- العصر الذهبي للحشاشين في سوريا ١٤٢
- راشد الدين سنان بن سلمان ١٤٣
- اضمحلال الحركة في سوريا ونهايتها ١٤٦

نظرية الوجود

- الألوهية ١٤٩
- كيف بدأ الخلق ؟ ١٥٠
- لماذا خلق الله العالم ؟ ١٥٣
- نظام الوجود العلوي والسفلي ١٥٤

عقائد ما بعد الموت

- مصير الطبقة الأولى من المؤمنين ١٥٨
- مصير الطبقة الثانية من المؤمنين ١٦٠
- مصير الكافرين ١٦١

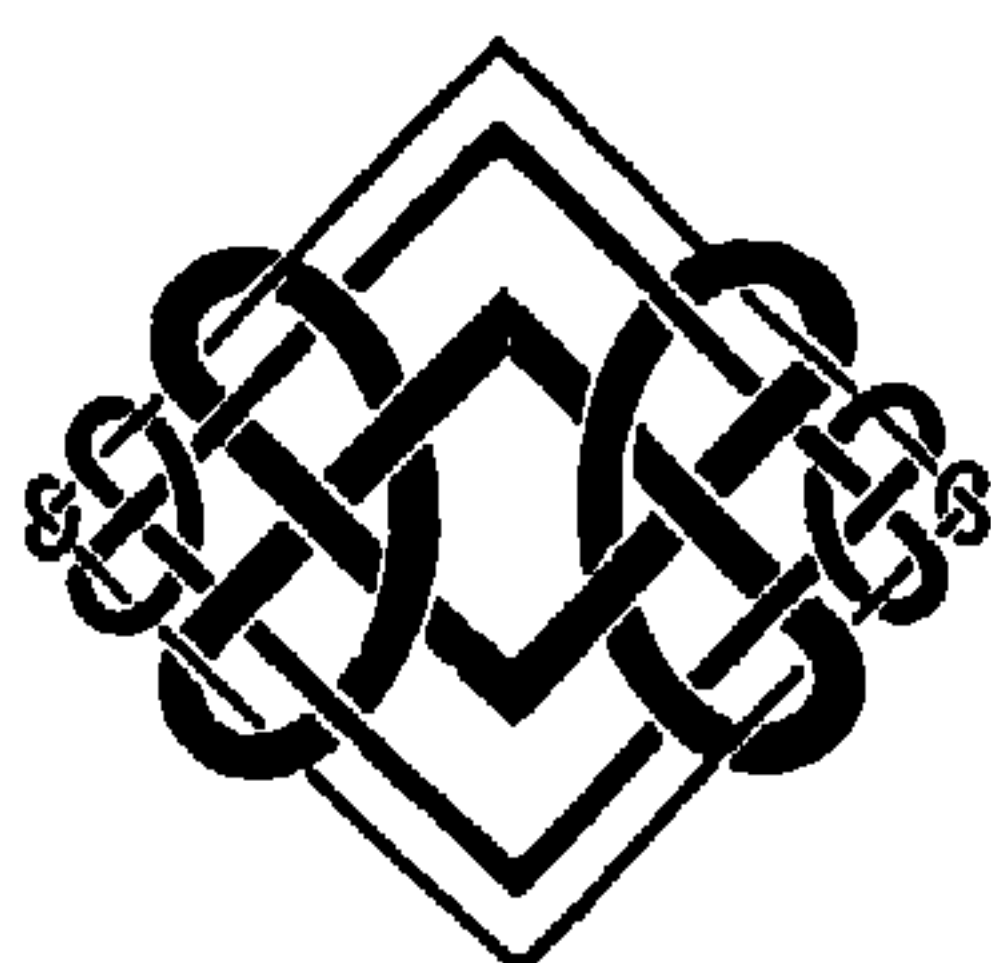
نظرية الإمامة

- إثبات الإمامة ١٦٥
- وجوب معرفة إمام الزمان ١٦٨
- طبيعة الإمام المتمايزة ١٧٠
- تعالى منزلة الإمام ١٧٣
- حقيقة الإمام كمظهر للألوهية اللامعلومة ١٧٣
- النتائج المعرفية لنظرية الإمامة ١٧٥
- رتبة النبي وعلاقته بالإمام ١٧٧

التنظيم السري للدعوة

- اسباب اللجوء للعمل السري ١٧٩

- النظام الهرمي للدعاة ١٨٠
- أساليب الدعوة ومراحلها ١٨٣
- مراحل ارتقاء المستجيب في درجات التنظيم ١٩٣
- نظام الشفرة المستخدمة بين كبار الدعاة ١٩٤
- فرق الفدائيين والعمليات الانتحارية ١٩٦
- الخاتمة ٢٠٢



رقم الإيداع ٨٨/٧٠٢٥

الترقيم الدولي ٨ - ٧٥ - ١ - ١٣٤ - ٩٧٧

دار الناصر للطباعة والإبلاغ

٢ - شارع نشاط شبرا القاهرة

٧٧٣٢٢١٠ ت